

أنشى بطعم النبىذ

الناشر



النخبة للطباعة والنشر

رئيس مجلس الإدارة

أسامة إبراهيم

المدير التنفيذي

سماح الجمال

إشراف فنى

أحمد جابر

تصميم الغلاف

أحمد صادق

التدقيق اللغوي

إسماعيل إبراهيم

دار النخبة

للطباعة والنشر والتوزيع

٣٣ شارع السنترال - المجاورة الأولى

- الحي الأول - مدينة الشيخ زايد -

الجيزة - مصر

تليفون: ٣٨٥١١٩٦٩ - ٠٠٢٠٢

٠٠٢ - ٠١٢٨٨٦٨٨٨٧٥

الطبعة الأولى

1438 هـ - 2017 م

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية:

2017/8715

ISBN: 978 - 977 - 6580 - 65 - 7

E-mail: alnokhoba@gmail.com

أنتى بطعم النبىذ

هند زيتوني

رواية

٢٠١٧

أوقفوا الحروب والدمار والغبار...

خذوا النياشين والتيجان والعروش...

خذوا الكراسي المرصعة بالذهب والعدم...

ودعوا لي حفنة صغيرة من الوطن...

تظلل سماه أشجار الياسمين...

إهداء

إلى وطني الجريح الذي ما زال ينتف...

إلى روح الشهداء الذين صعدوا الربهم باسمين...

إلى كلِّ مَنْ ساعدني وشجعني ليخرجَ هذا العمل إلى
النور...

إلى «ماري وباتريشا وساشا»، صديقاتي في بلاد العم
سام...

وإلى كل الذين ساعدوني ولم أذكر أسماءهم...

لكم محبتي وشكري.

هند زيتوني

قضايا شائكة في «أنثى بطعم النبيذ»...

تزأج رواءة هند زيتوني بين عدد من القضايا الشائكة ضمن نسيج العمل الروائي، فهناك قضايا: صراع الحضارة العربية من جهة والحضارة الغربية من جهة، والخلافات والنزاعات بين أصحاب الأديان المختلفة (الإسلام والمسيحية واليهودية).

بل إن هناك صراع داخلي بين الإنسان المتدين نفسه، بين ما يعتقد ويؤمن به وما يمليه عليه الواقع أحياناً ويجعله ينحرف عما كان يعتقد.

وهناك النظرة العدائية تجاه الإسلام والمحاولات المتكررة للإصاق الإرهاب به، وهناك صراع بين القيم والتقاليد العربية والقيم والتقاليد الغربية التي وضع المرء في أتونها، مثل قضية المساواة بين المرأة والرجل في الحضارتين، والصراع القائم بين كراهية واضحة للغرب، ولكن في الوقت نفسه هناك سعي محموم نحو الدخول إلى عالمه والالتحام به.

وهناك قضية أو لنقل قضايا أخرى تتعلق بالصراع داخل الأوطان وتجلى فيها بشكل واضح الصراع بين السلطة والشعب، القهر

ومحاولة البحث عن الحرية، والكرامة الانسانية في مقابل القتل والتعذيب والتشريد. ومع المعاناة المستمرة داخل الأوطان يلجأ المواطن إلى تكرار الهروب إلى ما يعتقد أنه الفردوس.

ويلاحظ في الرواية تعدد الشخصيات وتنوعها تنوعاً شديداً، عرقياً ودينياً وحضارياً مما أتاح تنوع القضايا التي نسجت الرواية دون أن يبدو أن هناك افتعالاً أو إقحاماً لها ضمن نسيج العمل الروائي.

وتأتي لغة السرد فصيحة ولكنها تتسم بالبساطة والسهولة، قادرة على حمل أفكار الشخصيات ورؤاها وفلسفاتها ومعبرة عن الوقائع والمواقف والأحداث بدقة إلى حد كبير، ولا نستشعر فيها أثر اللغة الأنجليزية عليها في الصياغة والتركيب - إلا فيما ندر - على الرغم من أن الكاتبة هند زيتوني عاشت فترة طويلة في أمريكا تربو على عقدين من الزمان. وهي لغة تناسب طبيعة الشخصيات.

ولعل لجوء الكاتبة إلى استخدام اللغة الفصحى كان أمراً صائباً لأن البدائل ستكون عبئاً على العمل الروائي نفسه، ولتنوع اللغات الموجودة في مجتمع الرواية بشكل كبير، ومن ثم فإن محاولة محاكاتها ستجعل الرواية عبارة عن لهجات متعددة ولغات شتى،

وكانها ساحة لكي تستعرض الروائية معرفتها باللغات الأجنبية المختلفة، وتنوعها بهذا الشكل سيكون عقبة لدى المتلقي.

كما تمكنت الروائية من نسج أحداث الرواية بشكل متماسك إلى حد كبير جدا، على الرغم من تنوعها تنوعا شديدا وامتدادها جغرافيا.

بقيت كلمة أخيرة: على الرغم من أن هذا هو العمل الروائي الأول للمبدعة هند زيتوني، إلا أنه يبشر بروائية واعدة وستكون لها بصمات واضحة في مجال الرواية في المستقبل القريب.

دعواتي لها بالتوفيق في أعمالها المقبلة.

د. فرج علام

كلية آداب الوادي الجديد، جامعة أسيوط

الفصل الأول

Florida, soho

من سوريا إلى سوهو

عندما دخل «محمود» الحانة لأول مرة، كان يرتعش، وقد انتابه شعورٌ غريبٌ جدًّا، وكأنه على كوكبٍ غريبٍ لا ينتمي إليه، إناث شبه عاريات، يلبسن ملابس قصيرة جدًّا وشفافة، ويتعلن أحذية لامعة وعالية، ويضعن مساحيق التجميل الصارخة. كنّ من جنسيات مختلفة، ولكن ذوات الأعمار الشابة، وشباب يتحدثون بلغات مختلفة. كان منهم الأمريكيان والآسيويون، العرب، الإيرانيون، وكثيرًا من الذين جاؤوا من ميامي وهم يحملون الجنسيات الكوبية، ويتحدثون اللغة الإسبانية.

وقف «محمود» مذهولاً بعض الوقت، وحاول أن يسترد أنفاسه المتقطعة، ينظر نظرة خاطفة إلى الفتيات وتارة إلى الأكواب التي بين يديه التي كان يحضرها ليضعها على البار الذي كان يقف خلفه. كما طلب منه صديقه «زأك». وقد بدا عليه الخجل من ردة فعل جسده الذي اشتعلت فيه حرائق الشهوة، فراح يحتسي كوبًا

من الماء البارد لتهدأ نفسه قليلاً. كانت الحانة عبارة عن مكان كبير مبني من الخشب اللامع والزجاج المحفور الملون. كان يبدو عليه أنه قديمٌ وقد خضع لتجديدات حديثة، وإضافة مطعم كبير فيه لطهي المأكولات المتنوعة، وهذا ما جعل الناس يأتون إليه من جميع أنحاء المدينة للتسلية وقضاء وقتٍ ممتعٍ.

كانت أجهزة التلفاز معلقة في كل الجهات، يشاهد فيها الزائرون برامجهم المفضلة أما الأضواء فكانت خافتة لخلق جو رومانسي جميل، يجمع العشاق والأصدقاء. وهناك قسم يجلس فيه الناس، حيث تُقدّم لهم الوجبات الخفيفة التي تعشقها الأمريكيات مثل الفلافل والشاورما والحمص، حيث يستمتع الشباب إلى الموسيقى العربية للشباب خالد أحياناً، أو الليدي جاغا، وكثير من أغاني الراب، ويرقص الشباب على أنغامها.

يجلس بعضهم على كراس متحركة خلف البار، ليطلبوا شراهم المفضل من النادل مثل: Bloody Mary

. the Long Island iced tea المارتيني أو الموهيتو، حيث يقدم إليهم النادل مقبلات، كالتبولة، الخضار الطازجة والمقطعة والصلصات وأجنحة الدجاج المقلية والحارة.

أما المشروبات الروحية فيمنع من شربها من هم تحت السن القانونية لشرب الكحول.

رأى «محمود» الكثير من الشباب العرب الذين يضعون الوشم على جلودهم، ومنهم مَنْ كان يراقص صديقته ومنهم مَنْ كان يقبلها. في البدء كان يحسبهم من الجنسيات الإسبانية ولكن كان يستمتع لبعض الدردشة التي تتخللها بعض الكلمات العربية «شوف هل البنت صاروخ، والله عندها عيون بتجنن»، ثم تعود اللكنة الإنجليزية كما سمعهم يتحدثون بها بالسابق، فقد كان معظم البنات اللواتي يجلسن معهم أمريكيات.

كان المنظر غريباً وكأنه يشاهد أحد الأفلام الأمريكية، التي اعتاد أن يراها وراء شاشات السينما عندما كان في الوطن.

فجأةً تخيل «محمود»، منظر البحر وصراعه مع الموج، والجثث التي كانت تطفو على وجهه، حيث عاش صراع البقاء مع الماء، ولكن صراعه هذا كان أصعب صراع قابله في حياته.. فكيف لشاب نشأ في بيئة دينية ولم يرَ الكحول في حياته أن يصبح نادلاً بين يومٍ وليلة، فقد شعر كأن الحياة تسخر منه وهو الذي سخر من السكاري والمترنحين على الطرقات.

بجانب البار كان هناك شاب أسمر البشرة، طويل القامة، عريض المنكبين، مهمته حماية الفتيات من السكاري وفض أي نزاع قد ينشب في الحانة.....

«أصعب الأشياء في الحياة هي البدايات عليها تترتب كل الحماقات اللاحقة».

واسيني الأعرج».



كان «محمود» يستغفر ربه كلما وقعت عيناه على فتاة جميلة ولأنه كان شاباً وسيماً كانت الفتيات ينظرن إليه بإعجاب.

في أول يوم بدأ فيه العمل في سوهو في حانة الهاید بارك رآته «كريستين» وهي فتاة أمريكية تتردد إلى البار كل يوم جمعة لتقضي يوماً ممتعاً وترقص وتتسامر مع أصدقائها. كانت قد تعرفت في البداية على «زاك»، وهو شاب عربي، وحبيبته «روزان» منذ عامين ونشأت بينهم صداقة حميمة، شيئاً ما كان يشدها للعرب وثقافتهم وطريقة معيشتهم حتى اللكنة الإنجليزية التي كانوا يتحدثون بها. فقد كان يعجبها الارتباط الأسري بين الفرد وعائلته واحترامه لوالديه. وكم أحبت عشق «زاك» لـ «روزان»، وتمنت لو تحظى بحبيب يحبها ويغار عليها.

كانت «كريستين» أنثى جميلة، شقراء الشعر، ناصعة البياض، يفتّر ثغرها عن ابتسامة ساحرة، ولها عينان بلون زرقاء البحر. كان

جسمها ممتلئاً ولها نهدان بارزان. وكانت فتاة لطيفة، واجتماعية تحب السهر واللهو والتعرف على الشباب العرب.

ولكنها لا تزال في المرحلة الأولى من دراستها الجامعية.

في ذلك اليوم، سألت «زاك» عن «محمود» بدلال: متى جاء صديقك؟، قال «زاك»: أتقصدين مايك؟، قالت «كريستين»: اسمه مايك؟ رائع!

أجابها «زاك»: منذ أيام فقط، وهو خجول جداً وجديد على هذه الأجواء.. أنا اخترت له اسم مايك لأنه سهل اللفظ ويبعد عنه بعض تعليقات العنصريين الذين يكرهون العرب، نشأنا معاً في نفس المدينة (بانياس) وأتيت أنا كما تعلمين قبل الحرب وبقي هو هناك، وبعد الحرب أصبحت ظروفه صعبة جداً هو وأسرته فشجعتهم على القدوم إلى هنا، وهو يقيم في شقتي الآن في إيبور سيتي، ريثما تتحسن ظروفه.

سألت «كريستين»: هل هو مرتبط؟

قال «زاك» مبتسماً: لماذا تسألين؟ هل أعجبك؟، لا أعتقد أنه مرتبط. نسيت أنك تميلين إلى العرب أو «راكبي الجمل» كما يقولون هنا!

نظرت إليه «كريستين» بغضب، وأردفت: لا تقل هذه العبارات أرجوك، هي للعنصريين فقط، ! أو «red neck» وأنت تعرفني لا أفرّق بين الناس أو أقيّمهم حسب جنسيتهم أو دينهم، فقيمة الفرد عندي بما يحمله في روحه من أخلاق وقيم.

ثم قالت: يبدو على صديقك أنه متعب كثيراً من السفر.

زاك: نعم لقد عاش رحلة طويلة ومرعبة، الأفضل ألا تفكري به كثيراً فهو متدينٌ ولا يصاحب أحداً.

«كريستين» اسمعيني جيداً صديقي ليس متحرراً كما تظنين، ولا أعتقد أنه يحب العلاقات العاطفية.

أجابت «كريستين»: أنا أعجبني هذا النوع المستعصي، وأخذت تضحك وتنظر إليه بإعجاب!

لا أظن أنه قديس، فهو بشر مثلنا بالنهاية، وممكن جداً أن يقع بالحب، وممكن أيضاً أن يرتشف قليلاً من نبيذه!. أحببت كل هذه البراءة التي تسكن في عينيه. سأروضه قليلاً قليلاً تذكر هذا يا «زاك» وسنصبح أنا وهو أجمل عاشقين في سو هو!

انتظر وستبهرك النتائج. أنا «كريستين» الأنثى الجميلة، اللعوب، وأعرف جيداً كيف أخرجه من قوقعته، وسأجعل منه أفضل نادٍ

وأفضل ساقى خمر، وسيفتح أكبر زجاجة شامبانيا بكل سرور
ويحتسيها معى رشفةً رشفةً.

ذاك: مستغرباً يا لك من شيطانة، لن أصدق أنّ «محمود» سيفعل
ذلك، حتى ولو رأيته بأَم عيني.

كان «محمود» يستمع للمحادثة ولا يفهم إلا القليل منها، حيث
اللهجة الأمريكية وسرعة الكلمات لا تمكنه من الفهم جيداً،
فرصيده اللغوي قليل جداً، فقد درس اللغة الإنجليزية في المدرسة
كمادة مثل باقي المواد في المرحلتين الإعدادية والثانوية، ولكن
لم يمارس الحوار مع أحد، لذا كان يكتفى برسم ابتسامة على
وجهه المرهق.

ذهبت «كريستين» إلى منزلها في تلك الليلة بعد أن أمضت ساعات
طويلة في البار.

وكان طيف «محمود» لا يفارقها، وصوته الناعم يعزف بأذنيها
سيمفونية طويلة.

قالت لنفسها: أيعقل أن أكون قد أحببت بهذه السرعة؟! ومن
النظرة الأولى؟! أنا أعرف الحب كالموت، يأتي فجأةً، وأجمل
حب هو الذي تقذفه الأقدار في قلبك وأنت تحتسي كأساً من

النبيذ البارد، ويأتي الحب ليقلب حرارة جسدك رأساً على عقب ولكن لا أصدق أنه حصل لي أنا شخصياً وبهذه السرعة!.

لا لا مستحيل، ولكن كل الذي أعرفه بأنه يملك عينين ساحرتين وهما كالمحيط غرقت بهما يا إلهي. آه من تلك النظرات لقد تسربت إلى قلبي وفتحت كل أبوابه، أظن أنه يملك شكلاً رائعاً! وبشرته السمراء أسرتني كثيراً وأشعلت في شراييني لهيباً لا ينطفئ، وساعده المفتولان رائعان. كل شيء فيه مختلف! لا، لن أتخلى عنه ولكن سأرى إن كانت روحي ستخلق مع روحه، ويجب أن أنسى أنه عربي ومسلم! فهذا ليس بعائق أبداً فأنا ليس لدي مشكلة مع العرب، وأعتقد بأنهم رائعون.

قال نيتشه: «المرأة لغز مفتاحه الحب».



بضعة أيام فقط، مضت على وصول «محمود» من بلد الحرب (سوريا) وقريته التي تطل على البحر، حيث ترك وراءه سماءً تشتعل بالدخان وقلوباً متعبة من الخوف والجوع والفقر، واليأس والانتظار. مازالت تتداعى في مخيلته ملامح أسرته الباهتة التي لم تتركه ولا لحظة، ووجه أمه العجوز كان يطارده كما يطارد

الشرطي اللص الهارب، وكأنها لا تزال واقفة أمامه وهي تحمل
سبحتها بين يديها ودموعها تغسل وجهها المتغضن. وصوتها
المكسور «الله يرضى عليك يا ابني ويكفيك شر بنات السوء..
لا تشلح جاكيتك خليك لابسه البرد قارس هناك». تذكر كيف
قال لها: المدينة التي سأذهب إليها دافئة يا أمي طول أشهر السنة.
لا برد فيها ولا ثلوج، ولن احتاج الجاكيت، اطمئني، ومع ذلك
سأرتديه ليطمئن قلبك.

كل ذلك الحديث أصبح شريطاً من الذكريات، يتكرر في مخيلته
كلما شرد قليلاً فيمتلئ قلبه بشيء من الحزن والشوق.

فتذهب أصابعه للبحث عن التعويذة التي علقتها أمه برقبته،
فيلمسها لينزاح عن صدره خيط الهم والكآبة الذي يخنقه كحبل
المشقة.

قال له «زاك» ذات صباح: يبدو أن «كريستين» معجبة بك جداً
يا «محمود»، لقد اتصلت بي وأخذت رقم هاتفك، هل ستفهم
عليها لو اتصلت بك؟

محمود: ماذا تقصد بكلمة أفهم عليها يا صاحبي؟ وماذا تريد مني
تلك الفتاة اللعوب؟!

ذاك: هذه الفتاة تحب العرب كثيراً وهي بصراحة، تُفتش على صديق عربي.

وأردف ضاحكاً: يعني بدها بوي فرند، فتح مخك شوي يا أخي! يعني معقول تبقى هيك، وحيد بهي الغربية؟، والله رح تتعب كثير.

محمود: ولكن يا «ذاك» أنت تعرفني جيداً أنا لست مثلك أعيش كعصفور طليق، أنا جئت من بيئة محافظة جداً ونشأت على الصوم والصلاة وغضُّ البصر.

قال «ذاك»: على الأقل اقبل بها كصديقة وتدرّب معها على اللغة والمحادثة، صدقني ستفيدك كثيراً، وهي تعرف معاهد اللغة المجانية الموجودة في هذه المدينة وستساعدك بالانتساب إليها، لتتمكن من فهم الحوار والمحادثة أيضاً.

هتف «محمود»: حسناً إذا كانت ستساعدني فلا بأس أعطيها رقمي. ولكن صداقة أخوية! فأنا أحتاج لرصيدٍ من الكلمات على الأقل لأتفاهم مع الزبائن ويجب أن أنجز هذه المهمة الصعبة بأسرع وقت، وكما تعلم أهلي ينتظرون المال بفارغ الصبر.

مضى على وصول «محمود» إلى مدينة تامبا شهرٌ كاملٌ، وهو مازال يعمل بتنظيف الأكواب وتحضيرها للشاربين ويعد أحياناً

بعض الوجبات الخفيفة لهم والأطباق الجانبية. كان يرفض تقديم الخمر أو صبها في الأكواب.

ذاك: غداً ستقابل «جابي» صاحب الحانة. لقد حدثته عنك بالهاتف لأنه كان خارج المدينة. تخيل يا «محمود» «جابي» مدمن على القمار، يسافر إلى لاس فيغاس ليمارس هوايته ويخسر أموالاً طائلة، هذه الحانة التي نعمل بها دجاجة تبيض بيضاً من ذهب ولكن يصرف جزءاً منه في بارات نيفادا، دون علم زوجته طبعاً.

كان «جابي» رجلاً لطيفاً، في نهاية العقد الخامس من عمره، من أصول مغربية، قصير القامة، يرتدي قبعة رياضية وسلسالاً ذهبياً عريضاً ويحمل جواله طوال الوقت. جاء إلى الولايات المتحدة منذ أكثر من ثلاثين عاماً وتزوج من فتاة أمريكية كانت تعمل معه في الحانة. وتحول من عامل بسيط إلى مالك لها خلال سنوات قليلة. وأصبحت مصدر رزقه الوحيد، وكان يحب أن يساعد الشباب العرب، خاصة الذين جاؤوا بعد الحرب «من بلاد الربيع العربي».

قال «جابي» لـ «محمود»: أهلاً بك في بلاد العم سام، لقد حدثني «ذاك» عنك كثيراً، وأخبرني بأنك ترغب بالعمل في حانتي، وكما علمت نك لا تملك خبرة في عمل الحانات.

محمود: نعم أنا مضطّر جدًا للعمل، والوضع في البلاد كما تعلم...

جايي - مقاطعًا - أعلم، أعلم ماذا تريد أن تقول. سأعطيك مرتبًا جيدًا وسترتاح جدًا في العمل معنا هنا، لدينا فريق عمل رائع كلهم يتقنون عملهم ويساعدون بعضهم البعض، ولكن لا أخفي عليك يا «محمود»، أن العمل هنا شاق جدًا ويتطلب الوقوف الطويل والحركة السريعة والانتباه والمجاملة، وأحيانًا عدم الاكتراث، أي عندما تسمع أمريكيًا عنصريًا ينعتك براكب الجمل أو شيء كهذا، يجب أن تبسم فقط دون أن ترد عليه بأي حرف وتسأله ماذا يريد أن يشرب!

فأنا لا أريد مشاكل في حانتي، هي مصدر رزقي الوحيد، والذي أريد أن أنبهك عليه يا «محمود» أن العامل عندي يجب أن يتقن كل المهام التي يقوم بها أصدقائه، فأنت أحيانًا ستكون طاهيًا، ومرةً نادلاً، أو محاسبًا، أي حسب الاحتياج وحسب الظروف التي تتطلب منك، وأنا سأعطيك الوقت الكافي لتتقن كل شيء. وذاك سيشرّف على تدريبك فهو من أفضل العاملين في الحانة وأمهرهم في صنع الكوكتيلات اللذيذة وقد نجح بتدريب الكثير من الشباب، وأنا أثق به كثيرًا فهو شابٌ موهوبٌ ويتقن عمله

جيداً وكان له الفضل بنجاح هذه الحانة وتطويرها.. كما أسلفت المهام صعبة ولكن أنا كريمٌ جداً مع الذين يبذلون جهداً جيداً هنا وأراقب الكاميرات الموجودة في كل الغرف، فقط لأطمئن على سير العمل. بصراحة يا «محمود» أنا حبيبتك (بيزاف) وحديسي يقول إنك ستنجح في عملك. السوريون يعملون بنشاط ومهارة كما أعرف، ونحن بالنهاية أشقاء ومن وطن واحد.

قال «محمود»: إنشاء الله سأكون عند حسن ظنك.

رد «جابي» بلهفة: كنبيغيك بيزاف.

غادر «محمود» المكان في تلك الليلة وهو حائرٌ في أمره يتتابه كثيرٌ من القلق والخوف، والندم.

أتعرف يا «زاك»: لا أدري يا صديقي كيف قبلت بشروط «جابي»، كنت أريد أن أطلب منه أن يعفني من تقديم الكحول، ولكنه لم يترك لي مجالاً لأتكلم، وأنا شعرت بالخجل، خاصة لأنني لا أملك خبرة.

زاك: اسمع يا «محمود»، لا تزال البطالة عالية جداً هنا، خاصة في هذه المدينة، ويجب أن تكون سعيداً بأن «جابي» قبل أن يوظفك عنده دون أوراق رسمية وإقامة. وأنت تعرف جيداً هذه مسؤولية

كبيرة ولا ننسى أنه يخالف القانون لأجلك، وهو طبعاً يتأمل أن تقوم بإنهاء مشكلة إقامتك بأسرع وقت ممكن.

محمود: ولكنني أشعر بأنني سأرتكب إثماً كبيراً ببيع الكحول وتقديمه...

زاك- مقاطعاً: أنت تبيعه فقط ولكن لا تحتسيه.

محمود: ولكن حسب معلوماتي الدينية حتى بيعه حرام، والمال الذي يأتي منه حرام ولا بركة فيه والذي يعمل به ينتهي بالجحيم.

زاك: الحرام هو القتل الذي يحصل في بلداننا وسفك الدماء والجوع والفقر، ولو أصررت على التفكير بهذه الطريقة ستبقى بلا عمل وستموت من الجوع.

وأردف «زاك»، وأنت تريد أن تعمل لتساعد أهلِكَ وبالتالي لتساعد نفسك أيضاً، وهذا عمل إنساني رائع. ويكفي أنك تحملت مشقة السفر وكدت تفقد حياتك من أجل الوصول إلى هنا. فلماذا أنت حزينٌ ومترددٌ الآن؟!

محمود: أنا حزينٌ لأن رزقي لن يكون حلالاً.

زاك: بالله عليك لا تقل هذا، مَنْ الذي غسل دماغك بهذه الأفكار البالية؟ هل أنت تسرق مثلاً أو تعتدي على ملكية أحد؟!..

لا طبعاً أنت تعمل بعرق جبينك وتتعب لتجني المال وترسله
 لأهلك الذين ينتظرونه بفارغ الصبر، وإلا سيموتون جوعاً وبرداً.
 انظر ما يحصل ببلداننا التي تدعي الدين والطهر. انظر إلى إبادة
 الشعوب وقتل أحلامها. أنت تسقي الناس خموراً لينسوا هموم
 هذه الحياة العاهرة. صدقني يا «محمود»، نحن جميعاً نعيش في
 حانة كبيرة، نتجرع نبيذ عذابها ونسكر كل يوم. حاول يا صديقي
 أن تكون راضياً عن نفسك وستشعر براحة كبرى. وحاول أن
 تعطي ضميرك إجازة صيفية يا رجل ودعنا نعمل في حانة الهايد
 بارك، فلو أنك بحثت في كل سوهو لن تجد مكاناً أفضل منها
 والأيام ستثبت لك هذا الكلام.

قال واسيني الأعرج: «لا أفعل شيئاً مدهشاً ولكن وسط هذه
 العزلة أحاول أن أجعل الحياة ممكنة التحمل».

نظر «محمود» إلى «زاك» نظرة استغراب وقال له: أنت تغيرت
 كثيراً يا زكريا وليس اسمك وحده الذي تغير، هل أصبحت إنساناً
 وجودياً مثل جان بول سارتر؟!

زاك- مبتسماً: لا يا «محمود» أنا أو من بالله جيداً، ولكن أعتقد
 الأخلاق والمعاملة أهم من التقيد بالعبادات العديدة والقوانين
 الدينية التي تجعل للإنسان حبلاً لتخنقه به.

محمود: أنا لا أوافقك الرأي، أعتقد أنَّ الحرب التي حصلت بسوريا عقابٌ لنا من السماء، لأننا ابتعدنا عن الدين الصحيح ومشينا وراء نزواتنا. هل يُعقل أن تؤمن بتلك الأوهام؟!

رد «ذاك» ساخرًا، لا تغضب مني يا صديقي، أنت تؤمن بقيم ومفاهيم لم تعد صالحة لهذا الزمن الحديث، هل تريدنا مثلاً، أن نعيش تحت إمارة إسلامية متممة، لا تواكب العصر والحضارة؟! نحن لا نريد أن نعيش تحت قوانين وشعائر قديمة لتعيدنا إلى الوراء مئات السنين،، وشيخاً بلحيةٍ طويلة يحمل العصا ليأمر النساء بتغطية وجوههن.

وأنا أعتقد الحروب والقتل في العالم سببها تعنت الأديان، ورجال الدين هذه الأيام يعملون من الدين سلعة لترويج عقائدهم، ويعملون على غسل أدمغة الشباب وزجهم في صفوف القتال ليتتهوا بارتكاب المجازر والموت، الذي يحزنني يا صديقي أنَّ رجال الدين يعظمون ذنوبنا ويصورون لنا الدين كأنه مقبرة في الدنيا وجحيم في الآخرة، ولا يتحدثون إلا عن عذاب القبر والموت وبأن الله شديد العقاب وينسون أنه غفور رحيم.

ساد صمْتُ باردٌ بعد هذا النقاش الطويل، وعاد كل منهما إلى عمله وهو يفكر بحديث الآخر.



جاءت «كريستين» إلى الحانة في عطلة الأسبوع، وكانت تريد أن ترى «محمود» وتتحدث إليه. كان عدد العاملين قليلاً ذلك اليوم، فجاء «محمود» وسألها ماذا تريد أن تشرب فطلبت كأساً من البيرة وسألته عن قائمة المقبلات المتوفرة في ذلك اليوم، فقدّمها لها دون أن ينظر إليها كثيراً ثم أحضر لها الشراب مع طبق من السلطة الشرقية بالجبن اليوناني.

كانت تأكل بهدوء وتحسني الشراب وهي تنظر إليه وتبتسم، أما «محمود» فكان يتحاشى النظر إليها ويحاول أن يركز بعمله.

لم تنزعج هي من ذلك فقد أعطاه «زاك» فكرة كاملة عنه. ولكنها كانت مصرة على مصادقته وقررت أن تنتظر قليلاً ليتعود على الجو الجديد الذي هو فيه.

كانت هي هذه المرة الأولى التي يصب فيها الكحول وكان مضطراً لذلك لأن الشاب المسؤول عن تقديم المشروبات كان غير موجود، وسيأتي بنهاية الأسبوع.

لم يكن «محمود» راضياً عن عمله في الحانة ولكن بدأ بالتعود عليه وعلى طبيعة الحياة في المدينة الجديدة. ورغم ما رآه من الحضارة

والبريق الذي يسحر الأبصار، والطبيعة الخضراء الساحرة لم يبهره شيء منها، بل كان يحنُّ إلى عالمه القديم بكل ما يحمل من تفاصيل صغيرة، سطح منزله الذي كانت تنيره النجوم الساهرة، وكرسيه الخشبي القديم وكوب الشاي الشفاف والإبريق الصغير المتسخ.

فقد بدأ يلسعه الحنين وبالرغم من نجاحه ونجاته من الغرق، وتمكنه من السيطرة على زورق حياته، كان يمرّ بحالة الفقد الكبير، فهو الآن في عالم بعيد كل البعد عن عاداته وتقاليده، عالم كان يراه خاليًا تمامًا من الدفء والتقارب. عالم تحكمه المادة والنفوذ. فأفراد الأسر هنا لا يلتقون إلا في أعياد الميلاد وأعياد الشكر، حيث يقدم أفراد العائلة الهدايا لبعضهم البعض.

كتب «محمود» في مذكرته ذات الحنين: «في بدء صقيع المنفى، أشجار حياتي تذبل، تسقط في أوراق غياب، سأكتب كل سطور العمر إياب. في بدء صقيع المنفى أشعر أن لا طعم لتلك القهوة، تلك النظرة، دون حكايات الأجاب».

لقد كانت أحلام «محمود» كلها عن قريته، ففي الحلم كان يردد:

لو كان لي وطنٌ لا رتديته

لو لم أكن على كرسي متحرك لمشيت

لو كنت طائرًا الحلقت بعيدًا.

فكان كثيرًا ما يصحو من النوم فيشعر بأنه يملك ساقين من خشب،
وقد فقد القدرة على المشي.

أما حلمه الثاني فكان يرى فيه أنه يطعم أباه خبزًا وحليبًا وكان
والده يسأله: «هل هذا حلالٌ يا «محمود»؟» فتوقظه حمائم حلمه
ليقول: «حلال يا أبي، اشرب وكُلْ والله حلال. لا تخف يا أبي
هذا من تعبي وكدي. هذا حلال وصافٍ»، فيردّ والده: «إن لم
يكن حلالاً فلا تضعه في فمي يا بني أرجوك».

كان كثيرًا ما يناجي ربه، من المجرم الحقيقي يا إلهي أنا بائع الخمر
أم الذين أحرقوا مدينتي، وقتلوا شعبها وجوعوا أطفالها؟!

في ذلك الزمن الفوضوي، كان صعبًا عليه ترتيب الأوراق وإعادة
ما بعثته يدُ آثمة.

فمن يعيد للسماء زرقتها بعد أن حقنها أحدهم بدخانٍ ونار؟ ومن
يعيد للصبح بهاءه بعد أن رحلت العصافير والأقمار؟ وكيف سيعيد
للقهوة نكهتها بعد أن سُكبت على الملح والدم؟ وكيف سيعيد
للقبرات مشيتها بعد أن مُنعت من التجوال في وضح النهار؟!

الفصل الثاني

تامبا، بداية/ ٢٠١٢ هروب «روزان» من بيت أهلها

بدأ «محمود» يرسل لأهله ما يكفيهم من المال، ويدخر مبلغًا لا بأس به من أجل أن ينتقل إلى شقة مع أحد العاملين في الحانة. فهو لا يريد أن يكون حاجزًا بين صديقه «زك» وعشيقته. التي لم يعد بإمكانها زيارة حبيبها والبقاء عنده في أيام الويك إند (أو أيام العطل).

كان يشعر بأن الأيام تمرُّ ببطءٍ شديد. والعمل في البار متعبٌ جدًّا، ويتطلب السهر والسرعة واتقان عدة مهارات. ولكن في ظلّ تلك الظروف المستحيلة لم يكن أمامه غير هذا العمل المرهق الذي تقبّله «محمود» على مضض من أجل رغبة الحياة.

تعرفَ على كثيرٍ من الأصدقاء في محيط عمله وكانوا جميعًا في غاية اللطف والروعة، خاصة «سام»، كان شابًا مصريًا يعمل في الحانة ليصرف على نفسه ويتابع دراسته في المعهد ليصبح مختصًا في تحاليل الدم المخبرية.

كان مظهره يختلف عن بقية الشباب، فقد كان يرتدي الملابس الضيقة والملونة. صبغ شعره بألوانٍ غريبة وساعدها عليهما بعض

الوشم ويميز وجهه حاجبان رفيعان يضيفان على وجهه ملامح أنثوية. وبالإضافة إلى أقراط أذنيه كان يعلّق برقبته قلادة فضية كان قد أهداها إليه صديقه الذي انفصل عنه، ومن ذلك الوقت بدأ يبحث عن شاب يشاركه شقته الصغيرة. وقد عرض على «محمود» السكن معه..

سأله «محمود» أين تسكن يا «سام»؟

أجابه: بصوته الناعم وهو يضع ابتسامة على وجهه: أسكن في منطقة إيبور سيتي ولست بعيداً عن «زاك». لأن هذه المنطقة رخيصة نسبياً وقريبة من المعهد الذي أدرس به.

هتف «محمود»: أنا أبحث عن غرفة ولكن بسعرٍ معقول.

«سام»: لديّ غرفة متوفرة الآن في شقتي وأنا أفتش عن شريك ليساعدني في دفع النفقات. فصديقي رحل إلى بيروت ولن يعود. صمت «محمود» لبرهة من الزمن، ثم أكد له أنه سيرد عليه في القريب العاجل.

فقد فهم من سياق الحديث بأن «سام» شاباً مثلياً ولم يكن متأكداً أنه سيوافق على المكوث معه في شقته. ففي قرارة نفسه لا يريد أن يضيف ذنباً آخر إلى جعبة ذنوبه بقبوله السكن مع مثلي أو (شاذ). كما كان يعتقد.

عاد «محمود» في تلك الأمسية إلى البيت ليجد «روزان» قد جاءت لزيارة حبيبها. فشعر بالارتباك والخجل، ودخل غرفته؛ لكي لا يزعج الحبيين.

كانت «روزان» فتاة جميلةً في مقتبل العشرين من عمرها، لها عينان عسلتان وشعرٌ بني طويلٌ. كان وجهها مترعًا بالشباب والجمال، كانت تملك قامة معتدلة ومازالت في بداية دراستها الجامعية، وتأخذ إعانة من الجامعة، ووالدها يساعدها ببقية مصروفها فهي البنت الوحيدة، كانت مدللة من والديها ولم تفكر بالعمل لأنها كانت أغلب الوقت مع «زاك»، فقد تعرفت عليه بالحانة وأحبت فيه روحه المرحية وتحرره، وحبه للحياة وكرمه معها، حيث كثيرًا ما كان يدعوها إلى العشاء في المطاعم العربية التي تعشقها.

كانت تجد بـ«زاك» رجل أحلامها الذي طالما بحثت عنه وتريد أن تتوَّج علاقتها معه بالزواج. فهي تحلم بالأسرة والأولاد، وهو يحبها جدًا ولا يمانع بالارتباط بها.

قالت له في ذلك اليوم: «لقد آن الأوانُ لأخبر أهلي عنك وبأنني أريد الارتباط بك، ولكن مشكلتي أن أمي يهودية متعصبة، وكما تعلم إن عرفت أصولك العربية وأنك مسلم فلن توافق، فأنا أعرف أمي جيدًا؛ امرأة متصلبة الرأي وصعبة التعامل.

ولكن والدي رجلٌ طيبٌ ويمارس الديانة المسيحية بإخلاص وحاول مراراً أن يقنع والدتي بالمذهب الكاثوليكي، لكنها رفضت بشدة، فهي متشددة جداً لدينها ولا أخفي عليك بأنها... وصمتت قليلاً،

بأنها ماذا؟، أردف «زاك». قولي «روزان» لا تخافي!

«روزان»: بصراحة هي تكره العرب والمسلمين.. وتنتعهم بـ«الإرهابيين» وبأنهم أعداء السامية، وتعتبرني أنا وأخي جاك يهوداً مثلها.

فصمت «زاك» وتردد قليلاً ثم قال: لن يكون الأمر سهلاً كما كنت أحسب! ولكنني كنت أظن بأن الإنسان حرٌّ هنا، ولا أحد يجبره على شيء. أقصد أي شخص يعيش في الولايات المتحدة الأمريكية (بلد الحرية) بإمكانه اختيار شريكه دون أي ضغطٍ من أي إنسان، وكما عرفت أنه لا توجد عادات وتقاليد لتقييد الفرد وتحرمه من ممارسة حريته الشخصية!

هتفت «روزان»: نعم هذا صحيح ولكن والدتي مازلت متعصبة لدينها جداً وتؤمن بالزواج المرتب بين العائلات اليهودية.

هتف «ذاك»: يا إلهي، هل يعقل هذا؟! عائلتك وعائلي يتبعون ذات التقاليد القديمة؟! بالإضافة إلى أنهم لا يأكلون لحم الخنزير، هل بإمكان والدك أن يقنعها بزواجنا؟ أو ربما أخيك جاك؟

حاولت «روزان» أن ترسم ابتسامة على شفتيها، ثم استطردت قائلة وهي تمسك يديه: «حبيبي، أنت تعرفني جيداً أنا لا أحب سلاسل الأديان، ولا أحب ارتداءها. صحيح أنني نشأت في بيت مسيحي - ويهودي ولكن لا أتقن أي ديانة منهما.

وأظنُّ أنَّ والدي سيقنعها بك فهو يحبني جداً حتى أكثر من نفسه ولن يرفض لي طلباً. ولكن أخي جاك لن يقبل بزواجي منك لأنه متطرف ويكره العرب والجنسيات الغربية الأخرى وهو منتسب لجماعة عنصرية تدعى (k k k) وتلك أفرادها يضطهدون الأمريكيان السود. ويفضلون من يملك البشرة البيضاء».

وضع «ذاك» يده على يدها وهتف قائلاً: أنتِ تعلمين كم أحبك يا «روزان» ولا يهمني اختلاف الدين بيني وبينك، لأنني ببساطة لا أمارس طقوسه وكما ترين أعمل بالبار، وأبيع جميع المشروبات الكحولية وأحتسيها بالمناسبات،

فأنا إنسان يؤمن بالأخلاق والمثل قبل كل شيء. وإذا أردتُ أن أتزوج فلا بد من الحب بيني وبين شريكتي وأنا لا أوّمن بالزواج المرتب، فهو لا يناسبني.

وأنا منذ التقيت بك شعرتُ بأنك قريبة مني كثيرًا وتعلقت بكِ على مدى الأيام. وأصبحتُ شيئًا لا أستطيع الاستغناء عنه. لقد أدمنتُ على حبك وعلى وجودك بجانبني.

وأنا سأنتظرك طوال العمر ولن اقبل أن ارتبط بفتاة أخرى سواك.

ابتسمت «روزان»، قائلة لن أنتظر أكثر من ذلك،

كم أتوق إلى اللحظة التي أصبح فيها زوجتك، لأنجب لك توأمين مثلك تمامًا، لهما لون عينيك الخضراوين ولون شعرك، سيكونان أجمل طفلين بالعالم.

ضحك «زاك» وربت على كتفها، مرددًا: مهلاً مهلاً أيتها الحالمة، دعينا نتمتع بحياتنا قليلاً ثم نفكر بالإنجاب لاحقاً،

«روزان»: لا لا، لن أنتظر. أريد طفلاً منك له رائحتك تمامًا لأقبله طول النهار. أنا أحب الأسرة والأطفال «زاك»،! افهمني.

حسنًا روز حبيبتي، أنتِ خططي وأنا علي التنفيذ.

عادت «روزان» إلى منزلها بعد منتصف الليل، كان والدها جالسًا يقرأ في كتابه المفضل (الإنجيل). وأمامه كوبٌ من القهوة، اقتربت منه ابنته وقبلته من وجنتيه الخمريتين، ابتسم، مهلاً، قولي ماذا تريدين يا حلوتي؟

والذي الحبيب، أجابته «روزان» مبتسمة: لقد وجدت الشاب الذي سأكمل معه بقية حياتي، أنت تعرف أنني كنت أرى شاباً منذ فترة يا أبي، ولم أخف عليك شيئاً، ونشأ بيني وبينه علاقة رائعة، أثبت لي كم هو شابٌ رائعٌ وشهمٌ بكل معنى الكلمة.

آه يا أبي كم أحببته، ستلتقي به أنت أيضاً وتحكم بنفسك، سينال إعجابك جداً، فهو غاية باللطف واللباقة.

التفت دافيد إلى ابنته، وترك كتابه جانباً، وقد بدت على وجهه علامات الدهشة والتعجب بأن واحد، قائلًا: بهذه السرعة أيتها الشقية؟ كيف ومتى؟ وهل تمكن من كسب قلبك واستطاع أن يوقعك بحبه؟ وهل يعرف عنك كل شيء؟

أجابته «روزان»: نعم يا أبي، يعرف عني وعن أسرتي كل شيء.

ويريد أن يقابلك أنت وأمي، لتتعرف عليه ويحكي لكما كل شيء، وكم هو يحبني.

من أين هذا الشاب؟ أضاف الأب سائلًا.

هو عربي الجنسية ولكنه مسلم ويعمل بالبار ويكسب كثيرًا من المال ويتقن الطبخ اللذيذ الذي أحبه، فلن أعاني من مشقة تحضير الطعام، سيساعدني كثيرًا.

رد الأب بشيء من الاستغراب، هل تعتقدين بأن والدتك ستبارك هذا الارتباط؟ فأنتِ تعلمين رأيها مسبقاً، فأنا أتخيل ردة فعلها في هذه اللحظة. لا أعتقد أن هناك أملٌ حتى ولو بسيطاً، لنيل موافقتها!

كان دافيد والد «روزان» رجلاً في منتصف السبعين من العمر، طويل القامة، له أنفٌ طويلٌ منحوتٌ. وشفاه أوروبية رقيقة لونها قرمزي. كان هادئ الطبع، حكيماً في تصرفاته، أنيق المظهر، يحيط به الوقار وقوة الحضور. يحترم الناس كلهم بغض النظر عن دياناتهم أو جنسياتهم، يعمل بالكنيسة مديراً لشؤونها المالية، ومنسقاً للفعاليات التي تحصل فيها منذ زمن بعيد، ولكنه تقاعد بعد تقدمه بالسن والشعور بالتعب، ففضل الجلوس بالمنزل ليقرأ كتبه المفضلة. كان يصطحب ابنته عندما كانت طفلة صغيرة إلى القداس وفي طريق العودة إلى المنزل كان يشتري لها وجبتها المفضلة من «ماكدونالدز». كانت قطعاً من الدجاج والبطاطا المقلية مصحوبة بلعبة صغيرة.

كانت تحب سماع الأناشيد الدينية وترجع مغتبطة وقد أكلت وجبتها المفضلة. وتعود إلى المنزل لتلعب بدمياتها الصغيرة فقد كانت تحب أن تلعب دور الأم فتضحك عليها أمها وتقول: تريدن أن تصبحي أمّاً؟ لو تعرفين كم هي شاقة هذه المهمة يا ابنتي.

كانت تأخذها إلى المطبخ لتخبز الفطير في عيد رأس السنة اليهودية (روش هاشناه) فتسعد بذلك كثيرًا. أما الآن فهي شابة يانعة تريد الزواج ممن تحب.

سألها والدها في تلك الليلة، هل أنت متأكدة من أنه يحبك يا ابنتي.. أم أنه يطمع بالجنسية الأمريكية مثلاً؟

لا يا أبي «زاك» لديه الإقامة هنا، فقد حصل عليها عن طريق عمله في الحانة، أردفت «روزان».

«دافيد»: وهل عرف مثلاً أنك شقية ومجنونة وعنيدة وكسولة أيضاً؟ ووضعت على بطاقة الائتمان التي منحتها لك، خمسة آلاف دولار، ومازلت أقوم بتسديدها؟

ضحكت «روزان» ثم أردفت: «كان ذلك من سنتين، وكنت طائشة جداً يا أبي، أما الآن وبعد أن التقيت بـ(زاك)، أيقنت أن الحب قد يغيّر الإنسان للأفضل ويجعله نادماً على ما اقترف من أخطاء وأنا اليوم أشعر بأنني وُلدت من جديد، أشعر لأول مرة بأن قلبي يدق لشاب مَلَك كل حياتي وزَرَعَ فيها بذور الفرح والمحبة، وجعل لكل لحظة أعيشها معنى وطعمًا.

الحب يا والدي، كالولادة والموت، لا يأتي إلا مرة واحدة. وأنا لن أتنازل عن فتى أحلامي الذي وجدته، أشعر كأنني صنعتها كما أحب».

أنا لن أقف بوجه سعادتك يا ابتتي، هتف الأب، وأنا سعيد جداً
لأنك تعيشين هذا المشاعر الرائعة التي قد لا تتكرر أبداً إلا مع
الذين نحبهم بجذ ويفتحون أبواب قلوبنا.

إذا كان صبوراً وسيتحمل دلالك وطيشك، هنيئاً له بك.

وأضاف ضاحكاً: «ليتحمل إذا كانت هذه رغبته».

ابتسمت «روزان» وحضنت والدها وقبلته.

صرخت فرحة: «أنت موافق إذا دافيد أيها الرجل الطيب، كم أنا
أحبك، أحبك جداً فوق التصور».

دمعت عينا الأب الحنون وقال: «لقد كبرت أيتها الشقية بسرعة
وسيخطفك مني ذلك الشاب المحظوظ، ولكن المشكلة الآن
كيف سنخبر والدتك؟ فأنت تعرفين موقفها جيداً من المسلمين،

لا أعتقد أنها ستقبل، خاصةً بعد ما فقدت ابنة عمها في ١١ أيلول،
منذ أعوام في نيويورك. لا أعرف كيف ستلقين هذه القنبلة الموقوتة
أمامها. أنا من جهتي سأختبئ في غرفتي، وعندما تنتهي المعركة
بينكما سأظهر لأنظف الأرض من الدماء»، (وقهقهه ساخرًا).

دخلت راشيل الغرفة، كانت امرأة طويلة القامة، زحفت بعض

الخصل البيضاء إلى شعرها الكثيف الأسود فأعطتها وقاراً
وجمالاً مع شعاع عينيها الزرقاوين.

كان يبدو من تقاسيم وجهها صلابة الموقف، والرأي المتعنت
والشخصية القوية المسيطرة.

قالت: «ما الذي يحصل هنا»؟

دافيد متلعثماً: «لا شيء، اطمئني الأمور بخير، كل مافي الأمر
ابتتنا كبرت وتريد الزواج من الشاب الذي أحبته».

سألت راشيل ابتتها بوجه خالٍ تماماً من الابتسامة أو المزاح وكأن
قلبها بلغها برسالة مسبقة حتى قبل أن تبوح لها ابتتها بأي شيء.
بأن هناك أمراً ما سيثير غضبها.

من هذا الشاب الذي تريد الزواج منه؟

ترددت «روزان» بالإجابة وجمدت الحروف على شفيتها لبرهة
قصيرة، ثم نطقت بلهجة الدفاع عن حبيبها، «هو عربي الأصل
ويعمل في البار الذي أتردد عليه».

ما الديانة التي يعتنقها هذا الشاب؟ سألت راشيل والشرر يتطاير
من عينيها.

هو مسلم، ولكنه لا يمارس أي شعائر دينية، أجابت «روزان» هو أفضل من يصنع المشروبات الكحولية في البار، هو مثلي تمامًا لا تهمه هذه الأمور.

أليس هذا رائعًا؟!

ارتعدت الأم وانتفضت من مكانها وكأنها رأت نمرًا يريد افتراسها، وقالت:

«عربي ومسلم؟! يعني إرهابي. لماذا لا تقولي إرهابي من البداية؟! هل فقدت عقلك أيتها الحمقاء؟! أقسم لو علمت جدتك أو جدك بهذا الأمر وهما في قبرهما لا ارتعدا من الغضب! أو لو علم أخوك جاك لذهب إلى الحانة وحطمها فوق رأس (راكب الجمل) هذا الذي تريد الزواج منه. هل نسيت أنك يهودية؟! قولي كيف استطعت أن تسمحي لنفسك أن تفكري مجرد التفكير أن ترتبطي بعدو لك ولأهلك؟! لا لن أسمح بأن يتم هذا الزواج مهما حصل.

لم ينفذ الرجال بعد من أمريكا ولا من إسرائيل».

ولكن هؤلاء الشباب، يا أمي الذين تتحدثين عنهم لا يؤمنون بالزواج، وهم يريدون امرأة ليل ليستمتعوا بها ثم يرموها بعد

ذلك في سلة المهملات، (أجابت «روزان»). وأنا أريد الاقتران
بمَن أحب لكي أُنبي معه أسرة.

أسرة أيتها المتمردة مع شاب يعتنق ديانة تكره المرأة ولا تعترف
بحقوقها كإنسانة! (أردفت راشيل) وأنا متأكدة أنه يكره اليهود!

هتفت «روزان»: أرجوكِ يا أمي، لا تحكمي عليه، قبل أن تريه!
هو لا يكره أحداً. صدقيني أرجوك. زاك شابٌ متحضرٌ ويؤمن
بالحضارة الغربية، هو لا يمارس الطقوس الدينية ولا يحبها.

صرخت راشيل: لايهمني كل هذا. يكفي أنه عربي ويكره
الساميين، مثل بقية العرب.

صمتت «روزان» وغرقت عيناها بالدموع، وأيقنت أن أمها لن
تقبل بـ«زاك» زوجاً لها مهما حصل، ولن تغير موقفها فهي تعتبر
كل العرب إرهابيين.

لم تكثرث راشيل بدموع ابنتها وتابعت توبيخها بصوتها العالي،

اسمعي هل تقبلين أن ترتدي الثوب الأسود الذي سيلفك به
من رأسك إلى إخمص قدمك؟! أنا أعلم من الآن ماذا سيفعله
هذا العربي المتخلف معك: سيحبسك بالمنزل ويمنعك حتى
من زيارة أهلِكَ ويأخذ أولادك إلى المسجد. هذا ما يفعله كل

عربي مع زوجة أمريكية وسيجبرك على اعتناق دينه الغريب. الذي يحرض على الكره والقتل والإرهاب، وتصبحين خادمته المطيعة بلا مقابل.

هتفت «روزان» بصوت عالٍ: أنا أحبه يا أمي، أحبه ولا أستطيع العيش بدونه، لن أتخيل جسدي ملكاً لرجل غيره، أنا أعرفه منذ عامين وكنت أمارس معه الحب. أنا وهو روحان بجسد لا يمكن لأحد أن يفرقنا، وأنا لم أخبركم عنه حتى تأكدت أنني أحبه ومقتنعة به تمامًا. وكلانا لا يمارس أي نوع من الدين، فهو شابٌ خلوقٌ ولا يؤذي أحدًا.

ركضت «روزان» إلى غرفتها وقد علمت تمامًا أنه لا أمل يلوح بالأفق لإقناع أمها المتمزمة والمتشبسة برأيها كالرهبان.

أخذت راشيل تؤنب زوجها بغضب: «أنت السبب بضياح ابنتي الوحيدة بسبب فرط دلالك وتشجيعك لها على معصيتي وعدم سماع نصائحي. تريد أن تقترن بنادل في بار وإرهابي أيضًا، يا للعار، والفضيحة التي ستلحقنا بها، سأذهب غدًا في الصباح الباكر إلى المعبد (السانيجوك) لأدعو لها بالهداية وأنت يا دافيد حاول أن تمنعها بكل قوتك من ارتكاب هذا التصرف الأحمق، فلو تزوجت هذا الشاب سأنسى أن لي ابنة كان اسمها روزان».



كانت «روزان» متعبة جداً في تلك الليلة الكئيبة. شعرت بالحزن واليأس يتسرب إلى قلبها، ولكن لم تفكر للحظة واحدة أن تتخلى عن «زاك» مهما كانت النتيجة، ولذا قررت الهروب لبيت حبيبها في الصباح الباكر. فلديها مفتاح الشقة.

كفكت دموعها التي أحرقت خديها، وأخذت نفساً طويلاً لتسترجع توازنها وبدأت تجمع أغراضها المهمة بسرعة وبهدوء تام. ظلت ساهرة طيلة تلك الليلة تخاطب النجوم

تارةً وتارة ترسل رسائل هاتفية لحبيبها لتخبره بأنها ستهرب من البيت وتأتي لشقته فهي لن تستطيع البقاء فيه بعد أن رفضت والدتها زواجها منه. فطمأنها بأنه يحبها وهو بانتظارها.

وعند بزوغ أول خيط للفجر استقلت سيارتها وذهبت لبيت عشيقها «زاك».

صحت راشيل في الصباح الباكر وذهبت لتوقظ ابنتها من النوم وتعيد إقناعها بترك هذا الشاب الذي أصرّت عليه. ولكن لم تجدها في سريرها.

خرجت من الغرفة غاضبة وأطرافها ترتعد، وأخذت تنادي بصوت عالٍ على ابنها جاك:

«قم من نومك أيها السكير، الأحمق. أختك الوحيدة هربت من البيت وستتزوج مسلمًا، إرهابيًا، ولو حصل هذا سأتبرأ منها إلى الأبد، سأعتبرها في عداد الأموات».

صحا جاك من نومه وقفز مذعورًا وصرخ كالشور الهائج:

«روزان هربت؟! سأقتلها وأقتله ذلك الإرهابي العاهر،

لن يهدأ لي بالٍ حتى أحضرها من شعرها إلى هنا، تلك الماجنة، وسأخبر الرباي ليتدخل لو احتاج الأمر. هي لا تعلم أنَّ زواج اليهودية من المسلم أمرٌ باطلٌ ولا يمكن أن يتم».

غضب دافيد من زوجته لأنها أبلغت جاك بالأمر

وقال معاتبًا لها: «لماذا أخبرتي جاك بالموضوع؟ وطلبتني منه التدخل؟ أنت تعلمين كم هو عصبي وعنصري! يجب أن تتحملي النتائج الآن، لا أعتقد ستمضي هذه الأيام على خير».

كان دافيد خائفًا جدًا من أحداث الأيام المقبلة وكأن قلبه حدثه بشيء ما سوف يحدث. (You mother fucker) يا ابن العاهرة

!!!!!! (You son of the bitch) متى ستأخذ جملك وترحل

من هنا؟!!

هكذا صرخ جاك وهو يدلف مسرعًا إلى الحانة، ويده مسدسه الذي ملأه بالطلقات النارية قبل خروجه، أين أختي «روزان»؟! انطق وإلا هُشمت رأسك بفوهة هذا السلاح.

كان جاك شابًا ضخيم الجسم، يملأ معظم جلده الوشم ويرتدي يديه الأساور الحديدية. ويعمل في إحدى الحانات كرجل أمن لفض النزاعات التي يحدثها السكارى أحيانًا. حيث يخاف منه الجميع لضخامته.

كان يرتدي قبعة صغيرة على رأسه (yamaka) ويربط شعره إلى الخلف، كان له حاجبان كثيفان وعينان يملأهما الغضب والوعيد.

رآه «زاك» بعد أن سمع صوته الثاقب الذي زلزل الحانة واقترب الجميع من «زاك» خوفًا عليه.

أجابه «زاك»: ماذا تريد أيها العنصري؟ ولماذا تصرخ هكذا كالمجانين؟، اخرج من هنا قبل أن أطلب لك الشرطة.

لن أخرج من هنا، يا راكب الجمل، حتى تعود أختي معي إلى المنزل. أنت عربي إرهابي وأختي يهودية، لا يمكن أن ترتبط بها.

تدخل رجل الأمن وكان أسمر اللون، وحاول أن يفك الصراع الذي تحوّل إلى هجوم بالأيدي وأخذ كل واحد منهما يكيل اللكمات والسباب للآخر.

كان جاك يحاول دفعه وهو ينعته قائلاً: ابعد أيها العبد الأسود وإلا قتلتك، ثم استل سلاحه فجأة فانطلقت رصاصة منه لتجرح يد «زك» وتستقر رصاصة أخرى بفخذ رجل الأمن (مكسيم).

علا الصراخ والخوف في البار وجاءت الشرطة لتعتقل جاك وتأخذ المصابين إلى المستشفى القريب، وخلت الحانة من الزبائن إلا من العاملين فيها.

كان «محمود» قلقاً جداً على صديقه، وقد ذهب إلى البيت ليخبر «روزان» بالأمر ويبدأ نقل أغراضه إلى شقة «سام» بعد تلك الأحداث.

وبدأ «محمود» يسأل نفسه، مستغرباً ما الذي يحصل حوله. أهذه بلد الحرية والعدالة والأمن؟! أهذه بلد الديمقراطية؟! يا إلهي ما الذي يحصل هنا؟! وكأنني أشاهد فيلم رعب لم أشاهده من قبل وجهاً لوجه، دون شاشة سينمائية.

قرر «محمود» أن يخبر «سام» بأنه يريد أن يشاركه الشقة فلم يعد لديه خيار، فالبقاء بشقة «زاك» أصبح مستحيلاً الآن. بدأ بجمع حاجاته التي لم تكن بالكثيرة، وكان يللمم معها كل الذكريات الماضية، وجاء «سام» ليساعده ويأخذه إلى شقته الصغيرة في إيبور سيتي.

كانت الشقة نظيفة جداً ومرتبة، فيها غرفتان وحمامان منفصلان، وغرفة طعام ومطبخ، وهناك طاولة صغيرة وضع عليها صورة عائلته كلها.

سأله «محمود»: هل هذه صورة عائلتك يا سام؟

أجاب: «نعم». ولكن يسكنون بعيداً عن سكني ولم أرهم منذ ثلاث سنوات مضت.

رد «محمود» مستغرباً: ولماذا لا تزورهم.

أجاب سام: هذه قصة طويلة، هل تحب سماعها؟

هتف «محمود»: نعم لو لم يكن لديك مانع.

نهض «سام» إلى المطبخ قائلاً: دعني أحضر شيئاً نأكله فأنا جائع وأظن أنت كذلك.

جلس الصديقان حول الطاولة الصغيرة وبدأ «سام» بسرد قصته و«محمود» يسمع باهتمام شديد، فقد اشتاق للوطن وللقصص العائلية الدافئة. وبينما كان يأكل «محمود» طعام العشاء الذي حضره له، حيث وضع شطائر من لحم التركي والجبن وصنع كوين من الشاي، وجلس وهو يرسم ابتسامة على وجهه وقال: معلش اعذرني، هذا العشاء حضرته على السريع، فأنا لا أجد الطهي مثل «زاك» فأنا لست من هواة بالطبخ، أما هو فيتقن جميع الأطباق.

أجابه «محمود»: لا عليك يا صديقي، هذا الطعام يكفي ويسد الحاجة، أنا سأعد لك بعض الأطباق التي تعلمتها من أمي فهي ماهرة بالطهي كثيرًا.

هتف سام: ألا تريد أن أحكي لك قصتي؟

رد «محمود» بحماس: نعم بكل سرور.

وضع «سام» فنجان الشاي الذي احتساه على الطاولة ثم قال:

أنا اسمي عبد السلام ومن أسرة مصرية محافظة. تحديدًا من الصعيد. لي أخٌ يصغرني بعشر سنوات وأختٌ واحدة تدعى مرجانة. كانت تحلم بأن تعيش بحرية في بلاد العم «سام» مثل

صديقاتها. ولكن والدي أجبرها على وضع الحجاب وَمَنَعَهَا من الخروج من المنزل إلا برفقة أحد. وعندما بلغت السابعة عشرة من عمرها لم تعد تحتل القضبان الحديدية التي وضعها بها وتحكّمه بحياتها، فقد كانت تريد أن تعيش مثل أي فتاة يافعة في أمريكا، تذهب إلى المدرسة وتزور صديقاتها، ولذا هربت من البيت، ولم أسمع عنها شيئاً منذ أكثر من ثلاث سنوات.

هاجرنا من مصر منذ زمنٍ طويل، حيث أراد والدي أن يستثمر بعض المال بمحل صغير، ويلتحق بمسجد هنا ليعمل دعوة للإسلام ويدرس التجويد والقرآن أثناء فراغه.

كان رجلاً متعصباً جداً، قاسي الطباع، وظالماً، لا يعرف وجهه الابتسامة. مع أنني سمعت أن دين الإسلام يدعو للمحبة والابتسامة والخلق الحسن.

أجاب «محمود»: «هذا صحيح فقد قال الرسول، صلى الله عليه وسلم، إنما بُعثت لأتمم فيكم مكارم الأخلاق».

هتف سام: للأسف لم يطبق والدي ما كان يدعو إليه الدين الصحيح من حسن المعاملة ولين الكلام، ولذا لم نكن نحب طريقته القاسية ولا وجهه العابس دوماً. وأصبحنا نكره الدين

والنعصب، ونحاول أن نتأقلم مع وضعنا الصعب في المنزل وقد عانت أمي معه طيلة حياتها، وكثيرًا ما كنت أسمعها بالليل تبكي من أجل عودة أختي بسلام. وقد كان والدي يضع اللوم على والدتي لأنها لم تعرف أن تربينا جيدًا وأفسدت أخلاقنا.

بعد فرار أختي بقليل كنت أنا قد اقتربت من العشرين من عمري، اكتشف والدي أنني مثلي. دخل غرفتي فجأة ورآني عاريًا تمامًا مع صديقي في سريري، فطردني من المنزل.

ومنع أمي من استقبالي في البيت أو حتى الحديث عني. وهددها بالطلاق. لو عرف أنها خالفت أوامره أو استقبلتني بالبيت.

وهكذا وجدت نفسي وحيدًا أجابه عواصف الحياة وصعابها، وبحث عن عمل لأعيل نفسي فلم أجد سوى الحانة. كان «جابي» صاحب الحانة صديقًا قديمًا لوالدي تعرّف عليه عن طريق الجالية العربية، ولكن عندما اشترى الحانة قطع والدي كل الصلات معه واتهمه بالكفر.

كنت دائمًا أبحث عن ذكريات جميلة لي مع عائلتي فلا أجد، لا أتذكر سوى أن أبي كان إنسانًا غاضبًا، يشتمني أنا وأمي وأخوتي دون مبرر. ولم أره طيلة هذه السنين بيتسم أبدًا. وكل الذي أتذكره

أنه كان كثير الذهاب إلى المسجد ويلومني لأنني لا أذهب معه إلى الصلاة؛ لأنني في ذلك الوقت كنت قد بدأت أكره الدين بسببه.

وعندما أصبحت بلا مأوى، التجأت لـ«جابي» فأعطاني بعض المال لاستأجر شقة وطلب مني أن أعمل في الحانة لأحضر الوجبات السريعة في المطبخ. وتعلمت كيف أقدم المشروبات بأنواعها. حسب الطلب والحاجة والعمل المسند إلي.

كم كان «جابي» كريماً معي، فلولاه لأصبحت متشرداً، وأنا لن أنسى فضله أبداً.

ثم دارت عجلة الزمان بسرعة وبدأت أفكر بمستقبلي، فانتسبت لأحد المعاهد القريبة في إييور سيتي لأواصل تعليمي وأجد عملاً أفضل من عملي هذا بعد انتهاء الدراسة وحصولي على وثيقة التخرج.

سكت «محمود» وأصابه شيء من الذهول وقال: كم هي حزينة هذه القصة، أتمنى أن تعود العلاقة جيدة بينك وبين أهلك وأن يجمعك القدر بأختك في يوم من الأيام.

لا أظن ذلك سيحدث قريباً، أردف سام، فالأمر أصعب وأعقد من ذلك.

«محمود»: المشكل يا صديقي عندما تجتمع العادات والتقاليد البالية مع مفهوم خاطئ للدين وطقوسه، تصبح لدينا خلطة سامة تفتك بأفراد الأسرة وتهوي بهم إلى قعر التخلف والعذاب والجهل، فمشكلة والدك أنه لا يطبق الدين ولكن يطبق عادات ومفاهيم قديمة اكتسبها من مجتمع لا يزال يسود فيه الجهل والأمية.

وماذا عنك يا «محمود»؟ سأله سام، ما الذي جاء بك للعمل في سوهو؟

صمت «محمود» قليلاً ثم أردف يقول: أنت سمعت بالحرب القائمة في سوريا منذ أكثر من سنة تقريباً؟ والشعب الذي تشرذ في عدة مناطق من هذا العالم. أنا أصبحت لاجئاً أيضاً وأجبرتُ على العمل في الحانة لأنني لا أحمل أوراقاً رسمية للإقامة هنا ولا مؤهلاً علمياً أيضاً، وبدأت أتعلم اللغة الإنجليزية.

وهل تنوي البقاء لفترة طويلة في هذه الحانة؟ سأله سام.

ردّ «محمود» بحزم: لا أعتقد، سأفتش عن عمل ثانٍ عندما تسنح الظروف، ولكنني الآن بحاجة ماسة للعمل وأريد أن أرسل المال لأهلي الذين ينتظرون وصوله بفارغ الصبر. فالحياة أصبحت صعبة جداً بسبب الحرب وتوقف العمل أحياناً لانعدام الأمن،

ووالدي بدأ الكبر ينخر في عظامه ولا يقوى على الوقوف لساعات طويلة ليصطاد بضع سمكات ليطعم أولاده، حتى الأسماك بدأت بالهروب من البحر بسبب الرعب والخوف الذي يخيم على المدينة والقذائف التي تنزل عشوائياً كل يوم.

هتف سام: ولكن ما الذي يمنعك أن تبقى في الحانة مع حصولك على بقشيش مربح جداً، بالإضافة لمرتبك الشهري؟

صمت «محمود» قليلاً لبرهة من الزمن، ثم تنهد قائلاً: أنا من أسرة محافظة يا صديقي وأهلي سيمقتونني لو علموا أن النقود التي سأرسلها لهم من المال الحرام. الحانة ليست مكاني مع احترامي لك ولكن كما شرحت لك ظروفي.

نظر إليه «سام» نظرة عميقة، ثم ربت على كتفه، احترم مبادئك يا «محمود» لا تكثرث، الحياة هذه تضعك أحياناً بمكان لا تنتمي إليه، لترى مدى قدرتك على تحمل أثقالها فإما أن تتحمل وإما ترمي ذلك الحمل من يدك وتمشي إلى مكان آخر. ونحن أحياناً نُجبر أن نخوض تجارب وأحداثاً لم نرتب لها في يومٍ من الأيام.

قال جبران خليل جبران: أولادكم ليسوا بأولادكم، إنهم أبناء أشواق الحياة وبناتها وأنتم تستطيعون أن تعطوا أولادكم محبتكم ولكنكم لا تستطيعون أن تلقنهم أفكاركم.

الفصل الثالث

كريستين ومحمود

ذهب الجميع لزيارة «زاك» في المستشفى.. «روزان» وسام وبقيّة الأصدقاء؛ للاطمئنان عليه. كان ملقى على سريريه، مخدرًا، ساعده الأيمن ملفوفًا بشاش أبيض ووجهه بدا شاحبًا كالموت، وقد وُضع على وجهه جهازٌ للتنفس. وكانت إحدى الممرضات تقوم بقياس ضغطه ونبضه كل فترة وجيزة.

كان «محمود» قلقًا جدًّا على صديقه «زاك»، وسأل نفسه: ماذا لو خطفه الموت على يد أحد العنصريين؟ مَنْ سيتولى رعاية أهله؟ عندما دخل الطبيب إلى الغرفة أخبر أصدقاءه بأنَّ جرحه سطحيًّا لا يتطلب المكوث طويلًا هناك.

أما رجل الأمن الذي يعمل بالحانة فقد كان جرحه عميقًا ويحتاج بضعة أسابيع ليتماثل للشفاء. عندما يحاول أن يفتح عينيه، كان لا يزال يرى شبح جاك أمامه وهو يُطلق عليه الرصاص وينعته قاتلاً: ابعد من هنا أيها العبد الأسود وإلا قتلتك.

كانت «روزان» حزينه جداً لما حدث لحبيبتها، واعتذرت له بعد أيام عما حصل من أخيها جاك. وأكدت له أنها لن تتخلى عنه مهما حصل.

وقالت: حبي لك يا «زاك» كشجرة وارفة جذورها في الأرض وأغصانها تمتد إلى السماء بلا نهاية. تعانق السحاب، لا أحد بإمكانه اقتلاعها مهما كان قوياً.

ابتسم «زاك» وحضنها وأضاف قائلاً حبي لك مثل المطر للأرض، فأنت الماء الذي يسقي أرضي اليابسة! هل تتخيلين لو انقطعت المياه ليوم واحد، ماذا سيحصل؟!

أجابت: لن ينقطع المطر أبداً وأنا معك للأبد. أنا أو من بأن الحب هو مطر الحياة.

عاد الحبيب إلى منزلهما وقرر «زاك» أن يدعو الجميع إلى حفلة شواء في بيته للاحتفال بزواجه من «روزان» وبشفائه ونجاته من الإصابة التي تعرض لها.

قال «زاك» لـ «روزان»: كم كنت أتمنى لو كانت عائلتك موجودة معنا لنحتفل معاً، ونشارك الفرح.

أجابت «روزان»: لن يقبلوا الدعوة فأمي الآن غاضبة وحزينة من أجل جاك لأنه دخل السجن ولن يخرج إلا بعد فترة طويلة. ولو عرفت أننا تزوجنا ستفقد صوابها. وستعتبر زواجنا باطلاً لأن اليهوديات في إسرائيل يمنع عليهن الزواج من الشباب العرب، خاصة المسلمين، ولا يتقبلن هذه الفكرة أبداً. وكثيراً ما يعيد الرباي في القدس، الفتاة اليهودية المتزوجة من عربي إلى أهلها لو تزوجت دون علمهم.

كان الجميع متحمساً لحفلة العشاء، وقد شارك كل منهم في تحضير المائدة الرائعة، فكانت هناك المقبلات واللحوم المشوية والحمص والكثير من الحلويات الشرقية كالبقلاوة التي تعشقها كل من «روزان» و«كريستين»، والتقى «محمود» بـ«كريستين» لأول مرة خارج الحانة. كان ينظر إليها وكأنه يراها لأول مرة، قال لنفسه يالها من أنثى فاتنة.

أما هي فجلست بقربه وأخذت تتجاذب معه أطراف الحديث، واتفق الاثنان أن يلتقيا في عطلة الأسبوع ليشربا القهوة معاً، فقد نشبت شرارة الحب الأولى في قلب كل منهما. وسهرا معاً إلى مطلع الفجر وكان الجميع يشرب نخب ذلك اليوم الجميل إلا «محمود» كان يحتسي العصير.

سألته «كريستين»: ألم تحتس الكحول في حياتك ولا مرة واحدة؟ أجابها لا. فهو محرّم علينا. ومن يشربه لا يدخل الجنة. ولا يحتسي من خمرها.

هتفت «كريستين» مستغربة، هل هناك خمر في الجنة؟

أجاب «محمود»: نعم، ولكنه مختلف اللون والطعم. ليس كخمر الدنيا هذه.

غادر الأصدقاء منزل «زاك» و«روزان» وتمنوا لهما زواجاً سعيداً.

كانت «كريستين» تقول لنفسها: متى سأعيش أنا و«محمود» بيت واحد؟ أنا معجبة به لدرجة الجنون، أنا لا أريد الزواج، أريد أن أحب فقط.

كم أنت محظوظة يا «روزان». أنت تعيشين الآن مع الشخص الذي أحبيته.

وهل هناك شيء أجمل من الحب؟

أنا أعتقد أن الحب هو أجمل قدر، تتعثر به قلوبنا في دروب الحياة ونحن نحيا لأجله.



محمود وكريستين

التقت «كريستين» بـ«محمود» بعد انتظار، في أحد المقاهي، كان قد مضى على قدومه أكثر من شهرين، وقد اكتسب كثيراً من الكلمات وبدأ يجيد المحادثة ويشعر بشيء من الاطمئنان بالحديث باللغة الإنجليزية.

حاولت «كريستين» أن تتحدث ببطء وأحبت أن تسبر أغواره وتفهمه بلغة العيون أنها عاشقة حتى الثمالة، ومتميمة به وتنتظر منه أن يبحر بسفينة عشقها حين يحين الوقت.

قالت له: أنا من أسرة متوسطة الدخل، والدي تركنا منذ زمن بعيد. كانت أمي تعمل في أحد المحلات التجارية لتنفق على البيت. ولكن كان دخلها لا يكفيها ولذا بدأت تأخذ إعانات من الحكومة الأمريكية. ولا أخفي عليك أمي لا تحب المسلمين. وقد زاد كرهها لهم بعد أحداث ١١ أيلول، خاصة عندما فقدت أختها في نيويورك. ومن يومها تدعو كل العرب بـ«الإرهابيين».

علق «محمود» على كلامها: ولكن أليس في هذا الموقف نوعٌ من التعصب وعدم الإنصاف برأيك؟

هتفت «كريستين»: نعم ولكن بعض الناس يُكوّن رأيه من الدعايات الكاذبة، وأنا أعرف أنّ العرب أناسٌ محافظون وكرماء، وكانت لهم أمجادٌ في العصور الوسطى وساهموا ببناء الحضارة الإنسانية وكل الاكتشافات القديمة.

وهنا أضاف «محمود»: لاتنسى الحروب التي حدثت في الشرق الأوسط مؤخرًا ونشوء الجماعات الإرهابية مثل «ISIS» في بعض المدن، والجرائم التي ارتكبوها، رسّخ لديها هذه الفكرة.

وهنا أضافت «كريستين» أصبحت أُمّي تعتقد أنّ العرب يؤمنون بالعنف والإرهاب، مع أنني قرأت الكثير عن دينكم وأنه يدعو للسلام والحب والرحمة.

أنا يا «محمود» لا أقتنع بالأديان كلها لأنني لم أرَ لحد الآن دينًا واحدًا منهم قدر على تحرير العالم من براثن الكره والقتل وسفك الدماء، بل على العكس أنا أعتقد أنّ الدين هو سبب تعاسة البشرية. ولا أنكر أنّ الإرهاب ليس له جنسية ولا دين.

نحن شعب نحب السلام والحياة. ونعشق الرفاهية والحرية ونحترم الثقافات الأخرى. بكل اختلافاتها. الشعب الأمريكي، شعبٌ مسالمٌ، وبالإجمال لا يمارس الدين كثيرًا وأنا هنا أتحدث

عن الشباب الفتي الذي لا يؤمن بأي طقوس أحياناً ولا يمارسها. فالدين هنا أصبح لكبار السن فقط. كما أنهم لا يحبون الحرب التي تنتهي بالموت والدمار. ففي أغلب الأحيان يخوض شبابنا، حرباً خاسرة لا يخرجون منها إلا بفقد أعضائهم، قل لي بربك؟ ماذا جئنا من حرب العراق وأفغانستان؟ سوى الدمار وتشريد الشعوب؟ وليس قتل المجاهدين كما يدعون. الذي يقلقني يا صديقي بأن أُمي تقول: الطريقة الوحيدة لتجنب الجحيم هو أن تكون كاثوليكيًّا، وأكد الدين الإسلامي يقول: الإسلام هو الطريق الوحيد للجنة.

تعرف، أحياناً يضحكني هذا الأمر! وأسأل نفسي ماذا لو كانت لنا أخلاقٌ حسنة جميعنا هل نحتاج إلى الدين ليربطنا بحاله؟! أجاب «محمود»: قال الله تعالى في القرآن الكريم:

«يا أيها الذين آمنوا إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم».

سمعت «كريستين» الآية وفهمت معناها من «محمود»، وأردفت تقول: ما أجمل معاني هذه الآية، وكنت أتمنى لو يقرأها كل إنسان ويعمل بها، بالفعل إنَّ أفضل البشر هو الإنسان الذي يحترم كل الناس ويحب أن يتعامل معهم بلطف ويخاف الرب. أنا لم

أكن يوماً من هواة الدين ولكنني أحترم كل الأجناس البشرية وما يحملون من مفاهيم وقيم وأديان مختلفة، ثم قالت بتملل:

كنت صغيرة جداً عندما كانت أمي تصطحبني إلى الكنيسة لأحضر الصلاة والقداس في يوم الأحد. ولكن لم يبقَ في ذاكرتي منها إلا الأناشيد الدينية الجميلة. وعندما بدأت أكبر قليلاً، اشتدت الخلافات بين أمي وأبي بسبب تعصبها للدين وتحيزها للمذهب الكاثوليكي، كانت تحاول أن تقنعه بالذهاب معها إلى تلك الصلوات ولكنه رفض بشدة، فقد كانت أمور الدين لا تهمة أبداً. وبعدها بفترة تعلق قلبه بحب امرأة أخرى، كانت تشاركه أفكاره واهتماماته. فعلمت والدتي بذلك، وجابته بالامر مما أدى لانفصالهما. وحرمتُ أنا من حنان الأبوة وبعدها أصبحت لا أحب الدين بجميع مذاهبه. ولكن أشعر بأنني قريبة من الآلهة عندما أكون على رأس جبلٍ عالٍ.

نصت «محمود» إليها وبدأ موج الحب يرمي برذاذه على جسده بقوة حتى بلله من رأسه إلى قدمه!

سألها فجأة: هل أحببت من قبل؟

فارتبكت وقالت: لا، لم أجد الإنسان الذي أسلمه مفاتيح قلبي، فابتسم وقال لها: أنتِ أثنى رائعة جداً، ويتمنى أفضل شاب الارتباط بك!

فقالت له وقد أطلقت عصفور حبها: أنت الذي تستحقني يا «محمود».

لم تستطع أن تخفي مشاعرها أكثر من ذلك، وقد ذهل «محمود» من جرأتها.

هتف «محمود» بفرح: أنت إنسانة صريحة ونقية القلب وأنا معجبٌ بك أيضًا.

ولكن كما تعلمين يا عزيزتي: أنا شابٌ عربيٌّ ومسلمٌ لا أستطيع أن أشرب الخمرَ ولا أن أمارسَ الحبَّ دون ارتباط شرعي.

أفهم من كلامك، انك لم تقبل فتاة طيلة حياتك؟ ولم تقع بالحب؟ ولم تمارسه؟

ردّ «محمود» لا.

صرخت «كريستين»: يا إلهي، وكيف تصرف طاقتك ورغبتك الجنسية؟ دينكم وعاداتكم صعبة للغاية، لا أحد بإمكانه فعل ذلك إلا إذا كان قديسًا.

رد «محمود» مبتسمًا: نعم ديننا صعب بلا شك، ولكن لم يمنعي من أن أنظر أحيانًا إلى الفتيات الجميلات، وكنت أتمنى أن تكون لي زوجة مثلما تخيلتها ذات يوم، ثم استطرذ:

كنت أحلم خلال فترة مراهقتي بأثنى شقراء لها نفس ملامحك!
وكم مشيت أنا وهي على شاطئ الحلم ويدي تداعب شمس
شعرها.

نظرت إليه «كريستين» نظرة إعجاب وحب وأردفت تقول: عندما
كنت مراهقة ال شيء الوحيد الذي فعلته دون أن أخبر أُمي هو
أنني ثقتب صرتي ووضعت عليها حلقة صغيرة كما تفعل كل
المراهقات في أمريكا وعندما بلغت الثامنة عشرة من عمري
وضعت وشماً صغيراً على قدمي. لم يكن لدي أصدقاء كثيرون،
فقد أحببت عدة مرات ولكن لم يكن حباً صادقاً وكان سرعان ما
ينتهي. بصراحة كانت علاقات فاشلة.

قاطعها «محمود»: قائلاً لا أريد أن أعرف عنها شيئاً أرجوك، فهذا
مضى وهو شيء يخصك!

هل تعرف يا «محمود»، أنا أحب فيك صراحتك وفكرك الراقى
وعدم الحكم على الناس بتسرع، وتقبلك لثقافتى بما فيها من
عيوب، فأنا أعرف تماماً كم نختلف، ومع ذلك لم تمنع بعلاقتنا
ولم تنتقدني بسببها.

ابتسم «محمود» ونظر إلى بحر عينيها بجراحة ثم قال: لا أحد خالياً
من العيوب، ولا أقول عن ثقافتنا إنها كاملة ومعصومة من الأخطاء،

الكمال لله وحده. كل مافي الأمر أنَّ ديننا يدعو إلى الحفاظ على المبادئ والمثل كما وضعها القرآن والسُّنَّة النبوية، وبصراحة قوانيننا صعبة، فالدين لدينا هو أسلوب حياة متكامل وستكتشفين هذا مع الأيام، ولكنَّ هناك أمرٌ مهمٌ يجب أن تعرفيه، هناك عادات وتقاليد قد يوهمك بعض الناس بأنها من الدين ولكن هي لا تمت للدين بصلة، ومن هنا بدأ ديننا يتشوه ويتَّهم بمفاهيم خاطئة جداً.

غرقت «كريستين» في بحر كلماته العميق وشعرت معه بالراحة والأمان. وقرر الاثنان أن يلتقيا في عطلة كل أسبوع للتعرف أكثر على بعضهما.



ذهب «محمود» إلى بيته وهو يفكر بـ«كريستين»، وكان معجباً بها وبأفكارها، فصادقته معها أشعرته بالأمان وملأت قلبه الفارغ بالدفع. ولم يعلم أن الحب سيطرق بابه بهذه السرعة.

كثرت المكالمات والرسائل الهاتفية وتوطدت العلاقات بينهما أكثر وأكثر.

وكم كانت «كريستين» تتمنى أن يقبِّلها «محمود» أو يحضنها ولكن كانت تمنعه قيود الدين التي ما زال يرتديها بيديه.

فكيف ينسى «محمود» أنه ابن رجل متدين يؤم المسجد وأُم تتضرع إلى الله صبحاً وليلاً؟ ولا تترك القرآن بعد كل فرض تقوم به.

ولكن بدأ يشعر بأنه يتحرر من حبل الدين الذي يلف على رقبته، وكان يسأل نفسه أحياناً هل كان يخشى الله فعلاً؟ أم أنه كان يخاف أن يخلع عباءة الدين أم يخشى أن يكسر كأس التقاليد التي مازال يحتسيها.. أسئلة كانت تدور في خلده ولم يجد لها جواباً.

«دع الحب يفعل بك مايشاء، دعه يحرقك تماماً، دعه يحيلك إلى رماد، فمن روح هذا التراب تنبت زهرة».. مولانا جلال الدين الرومي.



لقد أصبح غياب «كريستين» يلفت الانتباه، حيث كانت تلتقي بـ«محمود» في أيام العطل. بدل أن تقضي هذا الوقت مع والدتها، وكما أن مكالماتها الهاتفية الطويلة كانت تبعث الشك والريبة بقلب والدتها فهي تعرف مدى تحيزها للعرب وصادقتها بـ«زك» و«روزان».

سألتها لها ذات أمسية: هل أنتِ على علاقة بأحدٍ يا «كريستين»؟ أشعر بأن رياح العشق قد فتحت باب قلبك.

لا يوجد شيء جدّي يا أمي إلى الآن، أجابتها الابنة.

هتفت الأم: سأكون سعيدة لو وجدت شخصًا تحببنيه ويبادلك هو مشاعر الحب الصادقة، ولكن لا تنسي أن تتناولني حبوب منع الحمل!

فظروفك لا تسمح بإنجاب طفل وأنت ما زلت طالبة ولا تملكين المال ولا الوقت الكافي لرعاية طفل صغير. أرجوك كوني واعيةً ومهتمةً بمستقبلك يا ابنتي.

ارتعدت «كريستين» وخافت أن تقول لها الحقيقة، فقد كانت تعرف رأي أمها مسبقًا بهذا الموضوع، ولا سيما الذي تحبه قد جاء من بلد الحرب، حيث يكثر القتل والعصابات المسلحة. ولذا قررت أن تخفي الحقيقة عن أمها، وتمهد لها بالتدريج وتعرفها على «محمود» في ظروف مناسبة. ولا سيما أنها كانت تخاف على والدتها من الصدمة والمرض.

لقد أصبح «محمود» كل شيء في حياة «كريستين»، فهي تفكر به في الليل والنهار.

وتحلم باليوم القريب الذي سيجمعها به. وقد شعرت بأنّ القدر وضعه في طريقها.

فكل الصداقات التي مرت بها وعلاقات الحب الفاشلة، كانت تُخيفها من الخوض في علاقة جديدة، ولكن «محمود» كان يختلف، لأنها شعرت بأنه صادقٌ وجديٌّ في علاقته معها. وجعلها هروب والدها من البيت وإهماله لها، تفتش عن شاب له مبادئ يدور حول قبلة عشقتها كما يدور المسلمون حول قبيلتهم.

بعد مضي ثلاثة أشهرٍ على قدوم «محمود» إلى بلاد العم «سام» وتعرفه على «كريستين» وحبها لها الذي خفف عنه غربته، وجد نفسه غير قادر على الابتعاد عنها.

وكان يسأل نفسه: هل ستقبل لو طلبتها للزواج؟

لأنه لا يستطيع أن يعمل معها علاقة عابرة أو يرتكب إثماً بالسكن معها دون ارتباط.

التقى بها في أحد أيام العطل وأخبرها بأنه يحبها ويريد الزواج منها.

اغتبطت «كريستين» ورقص قلبها من الفرح، فقد كانت تنتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر وهتفت تقول: ولكن يا «محمود» نحن لا نعرف بعضنا إلا من وقت قريب. أنا لدي فكرة، ما رأيك نسكن في شقةٍ واحدة ونتعرف أكثر على بعضنا البعض وبعدها نقرر إذا

كنا سنصلح أن نكون زوجين. وهل من الممكن أن نقضي معاً بقية العمر؟ فكما تعرف، الزواج ليس مأذوناً وشاهدين ووثيقة نحفظ بها مع بقية الملفات، هو رباطٌ مقدسٌ وانسجام روح مع روح وأفكار مع أفكار ورغبة شريك بشريكته جنسياً وعاطفياً، أما في حضارتكم أظن الأمر يختلف كما قرأت، وفي أغلب الأحيان يكون الزواج عندكم مرتباً، والفتاة لا يمكنها إنشاء أية علاقة قبل الزواج، وتزوج شخصاً غريباً دون أن تعرف عنه أي شيء أو حتى تتحدث إليه!

أنا أحبك يا «محمود» وأود أن نسكن معاً في أقرب وقت.

أجاب «محمود»: لو أنت مصرة أن نبقي مع بعضنا عن قريب، يجب أن نعمل زواجاً إسلامياً في المسجد على الأقل، لكي لا أرتكب المعصية!

وافقت «كريستين» على الفكرة مع أنها كانت تعتقد بأن الحب يفقد جوهره إذا ارتبط بقدسية الزواج ولكن لم يكن هناك حلٌّ بالنسبة لها سوى أن تقتنع برأي «محمود» لكي لا يشعر بالإثم، ولذا ذهب الاثنان إلى المسجد للزواج. ومن ثم بدأت البحث عن شقة صغيرة للسكن فيها ولكن بسعر معتدل. وكانت سعيدة جداً لأنها ستعيش عن قريب مع من تحب.

وعندما أخبر «محمود» صديقه «زاك» بقرار الزواج.

زاك: «روزان» ستطير من الفرح لو علمت بذلك الخبر الجميل.
وأخيراً أيها القديس الجميل ستدخل قفص الزوجية!



رجع «زاك» إلى الحانة بعد غياب أيام عنها. كان «محمود» يقوم بمهامه طيلة فترة غيابه، على أحسن وجه، وأصبح ملماً بأمور كثيرة لم يكن يعرفها من قبل، فقد أتقن صنع الكوكتيلات والمشروبات الكحولية بأكملها، وكان لا يزال يخفي طبيعة عمله عن أهله لكي لا يغضب أحدٌ منه، فهو يعلم مسبقاً رأيهم بهذا العمل ولن يرضوا أن يأخذوا نقوده التي يرسلها إليهم.

ولكن «محمود» كان يعد نفسه بأنه سيجد عملاً جديداً لا يتعامل فيه مع النبيذ والسكرارى، فقد كان بحالة من النزاع الداخلي وتأنيب الضمير، وكان يفكر كيف ستقنع «كريستين» والدتها به وهي امرأة عنصرية ولن توافق لابتتها بأن ترتبط بعربي ومسلم، فقد فشلت «روزان» بإقناع أهلها بحبيبها العربي.

كان يسأل نفسه: هل من الممكن أن تغيّر «كريستين» رأيها لو

أصرت أمها على الرفض من فكرة الزواج؟، خاصةً أنها ابتتها الوحيدة وستعمل المستحيل على عدم خسارتها؟

وماذا عن أهلي؟ هل سيغضبون عند سماع هذا الخبر؟

فالأهل يتحكمون بمصير أبنائهم أحياناً ويعملون على رسم أحلامهم منذ الصغر وكأنهم جزءٌ من ممتلكاتهم!

ولكن كما تبين لي أنّ «كريستين» عنيدة والأغلب أنها ستتمسك بقرارها، أما أنا فقلبي اتخذ قراره ولن يتراجع عنه مهما حصل، فأنا أعشق هذه الفتاة، أصابني سهم عشقها من أول مرة ونفذ إلى آخر جدار فيه!

يا إلهي كل شيء فيها يثيرني حتى الجنون. أنتظر بلهفة كبيرة موعد لقائنا تحت سقف واحد.



كانت «راشيل» لا تزال غاضبة من ابتتها وغير راضية بارتباطها بـ«زاك»، وهي تفكر كل يوم منذ سُجن ابنها جاك، كيف ستعيد ابتتها «روزان» إلى المنزل؟

قالت لزوجها «دافيد» ذات صباح: آه لو أعرف ماذا قال ذلك المشعوذ لابنتي وجعلها تفقد صوابها وتترك بيتها وأهلها من أجله؟ ماذا يضمن لي أنه ليس إرهابيًا من «داعش» وجاء إلى هنا من أجل التدمير ووضع المتفجرات؟!

أجاب «دافيد»: كفي يا امرأة عن ظلم الناس، واقبلي بالأمر الواقع. أنا أشعر بأنّ ابنتنا «روزان» تحب «زاك» وستكون في أوج السعادة معه، ولدي إحساسٌ بأنه سيكون زوجًا رائعًا وأبًا مثاليًا، كما تحدثت عنه تلك الشقية. لقد أقنعتني به، وبما أنه يعمل بالحانة، فهو لا يمارس الدين وبعيدٌ عن التطرّف، فلا تخافي منه، وأنا أفضل أن يكون شخصًا طيبًا ممتلئًا بالحب من أن يكون قديسًا وممتلئًا بالكره، آه يا «راشيل» لو أستطيع أن أحكم هذا العالم المترنح يومًا واحدًا لجعلته مسيحيًا! يحب السلام والأمن، ويبارك المسيح الذي صُلب من أجل خطيئتنا.

السلام والأمن! أيها العجوز! قالت راشيل: ساخرة: قل لي كيف؟ والعرب لا يريدون السلام معنا وهم ينشرون الإرهاب بالعالم ويحرضون على قتل من لا يعتنق دينهم ويكرهون الساميين؟!

اسمعي يا راشيل، الإرهاب ليس له دين ولا جنسية ولا لون!

ولا تنسي أن العرب ظلموا بانتزاع أرضهم منهم وكان اليهود سبباً
بتشريدهم.

انتفضت «راشيل» فجأة وجيوش الغضب ثارت في عينيها
الفيروزيتين، قائلة: فلسطين هي أرض الميعاد وقد وعد الله تبيه
يعقوب بها وهي من حقنا، ولا تنس نحن شعب الله المختار (هاعم
هنفحار) وصحيح نحن أخذنا جزءاً من فلسطين فبنيناها وجعلناها
متحضرة، أما هم، فانظر إلى الخراب والتخلف الذي يعيشون فيه
لحد الآن.

هتف «دافيد»: ولكن يا «راشيل» هناك كثير من اليهود كانوا ضد
إنشاء دولة يهودية في فلسطين مثل بنيامين فيردمان، وقد اهتم
بإثبات حق الفلسطينيين في أرضهم.

أجابت «راشيل» غاضبة: أنا لا يهمني رأي هؤلاء المتطرفين،
وكل ما يعنيني الآن رجوع ابنتي من بيت ذلك العربي الإرهابي،
ولن يهدأ لي بال حتى أرجعها لبيتها هنا.

تثاءب «دافيد» وهو يشعر باليأس من زوجته وأردف قائلاً: يبدو
أن الجدال معك عقيم يا امرأة، لا أظن «روزان» ستخلى عن
حبيبها بهذه السهولة، كما تتخيلين، فأنت تعلمين كم هي عنيدة

وجادة بأخذ قراراتها، نحن لا نملك مفاتيح قلوبنا فلو ملكناها
لأغلقتها لنبعد عن الألم، ترجلي عن حصانك الجامح واهدئي
وادعي لها بالسعادة، ولا تخسري ابنتك الوحيدة يا امرأة، فهي
تبحث عن الحب والزواج من زمن بعيد، ويجب أن تفرحي لها
بأنها وجدته أخيراً مع شاب أحبه وأحبها.

«أصعب معركة في الحياة، عندما يدفعك الناس أن
تكون شخصاً آخر»

شكبير

بدأت «كريستين» تمهّد لأمها بأنها تود الانتقال من المنزل إلى
شقة صغيرة، قريبة من جامعها، وبأنها ستزورها في أيام العطل،
ولكن قررت إخفاء خبر ارتباطها ب«محمود».

قالت لها أمها: أنت الآن في سنّ الرشد، ويمكنك الاعتماد على
نفسك، وأظنّ أن حريتك الشخصية من حقك الطبيعي يا ابنتي.

وجدت «كريستين» بعد بحثٍ طويل سكناً مناسباً قرب جامعها.
ذهبت إلى الحانة وهي تقفز فرحاً: لقد وجدتها يا «محمود» هل
أنت مستعد أن تنتقل معي إلى عشنا الصغير خلال أيام قصيرة؟
سنوقّع العقد وننام بشقتنا ولكن لن أخبر أُمي الآن عن أي شيء،

حتى نستقر ونرتب كل شيء كما اتفقنا، ذهب الحبيبان إلى السوق لشراء أثاث بسيط، ليبدأ مشوار جهما، الذي أينعت ثماره بسرعة، بالرغم من كل العوائق والقيود التي واجهت كل منهما.

كانت الشقة صغيرة ولكن كانت نظيفة ولها إطلالة جميلة على بركة السباحة المشتركة، وكان الأثاث عبارة عن سرير، وطاولة وكرسيين وضعها «محمود» في المطبخ، وبعض أدوات الطبخ البسيطة، وبقية الأجهزة الكهربائية كانت في الشقة، وبدأ بترتيب وتجهيز المكان الذي سيقومان به، كان «محمود» سعيداً جداً بأنه سيعيش مع الأنثى التي أحبها تحت سقف واحد، وكان يخطف بعض النظرات إليها ويتأمل انحناءات جسدها المتناسق وشعرها الذهبي الذي انسكب على كتفيها كشعاع الشمس، فبدأت حرارة جسده ترتفع ويشعر بتوتر واضح بكل أطراف جسده؟ هل يبوح لها بأنه يرغب بمضاجعتها الآن؟ هل يصارحها بأن جسده أصبح كالبركان وعلى وشك أن ينفجر؟ أسئلة كانت تكتسح عقله المتعب وقد ألغيت معها كل القوانين والمبادئ التي نشأ عليها ولم يبق الآن سوى رغبته المجنونة التي تلح عليه بأن يحضن حبيبته ليملأها بماء حبه المتأجج ويزرع جسدها قبالات محمومة كان قد خبأها منذ عشرين عاماً وأكثر.

كريستين: كل شيء أصبح جاهزاً الآن، قلبي يمتلئ بالفرح والشوق. وضعت ذراعيها حول عنقه وقبلته بجنون، قبلة هزّت كيانه.

وقف «محمود» أمامها مذهولاً وكأنه تحوّل إلى عمود إنارة متوهج، وقال لنفسه يا إلهي هل قرأت أفكارى؟ هل شعرت بنيران لهفتي إليها؟ ماذا لو حضنتها الآن وجعلتها تخلع كل ما ترتدي؟ ماذا لو صفعنتني بكفها على وجهي واتهمتني بالكذب والنفاق، وبأنني أدعي العفة والفضيلة وعضوي الذكري الآن يتحكم بي ويلغي كل الذي آمنت به على مدى السنين؟! يا إلهي ماذا أفعل وأنا أغرق في نهر الرغبة من رأسي لإخمص قدمي؟!

نظرت «كريستين» إلى «محمود» بدلال وهي ترسم ابتسامة ساحرة على وجهها الجميل، وسألته؟ هل أنت بخير (Are you ok)؟

ثم أردفت تقول سأذهب إلى غرفتي لتبديل ملابسى وأعود إليك. الطقس حارٌّ جداً اليوم ولم أعد أطيق هذه الملابس، فالعرق يبلل جسدي من شدة الحرارة اليوم. لم يخطئ من سمى هذه الولاية (The sun shine State) أو ولاية الشمس، فهي تشرق هنا في كل الفصول، لتزيد من حرارة أجسادنا.

ابتسم «محمود» وقال: أنتِ محقة أشعر بحرارة جسدي المرتفعة!

ذهبت إلى غرفة النوم وتركت باب الغرفة مفتوحاً قليلاً، وأخذت حماماً سريعاً بالماء البارد، ورشت قليلاً من العطر على جسدها ثم جففت نفسها ولكن مازال شعرها وجسدها ندياً تقطر منه المياه، أوقدت شمعة برائحة اللافندر في غرفة النوم ووضعت موسيقى هادئة، بينما كان «محمود» واقفاً يتلصص من الخارج، شعر برغبة جامحة لمعاشرتها، وعندما خرجت من غرفتها كانت ترتدي قميصاً شفافاً فوق ملابسها الداخلية، وقد وضعت بعض المكياج الخفيف ورفعت شعرها إلى الخلف بربطة مطاطية، كانت تبدو كالتفاحة الشهية وما زال يبللها القليل من الماء، أما هو فقد رآها كحورية تخرج من البحر، مكتوب على جسدها كل قصائد الحب والجمال، تتلأأ مثل ماسة بيضاء نادرة، تبيست دماؤه في جسده وشعر برغبة شديدة بالعطش.

قال متلعثماً أنا عطشان جداً، لم أشعر بهذا العطش من قبل!

ضحكت بمكرٍ جميل، وقالت: تعالِ سأرويك من نهر أنوثتي!

قال وهو يرتجف: لو شربت منه لن أشعر بالعطش للأبد!

نادته فاقترب منها، شعر بالخجل والارتباك قليلاً ولكن حرائق
اللهفة والشوق كانت أكبر بكثير من ارتبائه، كان كل ما في جسده
يرتجف وسيفه تصّلب إلى حدٍّ لم يعد بإمكانه إخفاؤه،

نظرت إلى عينيه نظرة أوقعت قلبه بين قدميه، وأخذت تمرر
أطراف أناملها على وجهه ثم على جسده، فثارت فيه جيوش من
القشعريرة، وجنون الشهوة!

للمرة الأولى تقبله امرأة ويرتشف رحيق الحب من شفتيها،

هتفت «كريستين»: تعال حبيبي، أنا أموت شوقاً لهذه اللحظة،

لم أعد أحتمل الانتظار!

قادته إلى غرفة النوم وبدأت تحضنه بكامل قوتها وتدخل أناملها
بين خصلات شعره السوداء الكثيفة وتطبع قبلات ملتهبة على
عنقه، ثم أردفت تقول:

الليلة سيكتمل القمر ويكتمل عشقي لك، أيها الفارس العربي
الأصيل.

نظر إلى عينيه وراح «محمود» يتأمل جسدها ثم يلمس بأصابعه
شفتيها ثم وجهها قبل وجنتيها، وبدأ يلمس كل قطعة من جسدها،

أخذت هي تداعب صدره العاري الذي كانت تكسوه بعض الشعيرات، بعد أن نزعت عنه قميصه، كانت تثيره كثيراً بحركاته الأنثوية، خاصة عندما وضعت لسانها على شفثيه وفمه.

بدأ يشعر بحمى الرغبة تغمره من رأسه إلى قدمه، وبدت له حبيبته كشجرةٍ وارفَةٍ، محمّلةٌ بالفاكهة اليانعة، لا يعرف من أين يبدأ القطاف!

وتحت ضغط كل هذه المفاتن التي حاصرته بها خلع عباءة الدين، أما هي فقد ارتدت ثوب أنوثتها المضيء، فبدت كالنجمة في ليلٍ منير، تنشر الضياء في أرجاء المكان،

وكأن الأرض بدأت تتزلزل من تحته، فكَّ أضرار قميصها الشفاف وأزال كل الذي ترتديه، ويداه ترتجفان من هول اللقاء الأول، لأول مرة في حياته يرى ثديين عاجيين وكأنهما تمثالان من الرخام الأبيض، قَرَبَ شفاهه من حلمتيهما المنتصبتين ولثمهما برفق وراح يعصّ برقة كل واحدة على حدة، وكأنها قطعة من الحلوى بين أصابعه، ثم أخذ يداعب كل أجزاء جسدها بعد أن داعب ثدييها. كان ثغرها مكتنزاً كأنه عنقود من العنب الشهي، قام بلثم شفثيها الورديتين وبدأ يحتسي منها خمر العشق المعق، كانت ترتجف بين يديه وتدعوه بأن يقترب أكثر، وبدأت أنفاسها

ودقات قلبها تتسارع حاولت أن تلمسه بأناملها الناعمة فوجدته متصلاً جداً وكل ما في جسده أصبح كقطعة من الجمر، قبلت شفاهه وابتلعت شيئاً من رضابه، وهمست في أذنه: آه كم أنت شهوي، قبلني بقوة واحتويني بين ذراعيك، فثارت شهوته أكثر فراح يقبل جسدها الناعم بنهم وشوق ويشم عطر جسدها الذي ملأه بالجنون!

ارتعدت أطرافه، وتسارعت دقات قلبه، لم يشعر بهذا الشعور من قبل، فهذه تجربته الأولى في الحب وممارسة الجنس، مع أثنى أحبها ويتوق إلى وصالها. كان قد طال عطشه لينهل شربةً من نهر الحب الذي انتظره من زمن بعيد، عانقها وشعر كأنه يذوب بين يديها كقطعة من الشوكولاتة الساخنة. لم يكن يعلم أن الحب ممتعٌ لهذه الدرجة!

ها هي تسقط بين يديه كحمامةٍ جريحة وتتلاشى كقطعة ثلج سقطت على بقعة أرضٍ ساخنة، فاقتحم كهفها بكل قواه وأصبح يحلق في عالم آخر.

أما هي فصرخت من النشوة بعد أن هزت رياح الحب. كل ما في جسدها وكيانها كان يرتجف وكأنها صارت ضلعاً من أضلاع المتوترة. نسي معها كل الحواجز والقوانين وتقطعت منه سلاسل

الدين الذي كان يلفه عندما جاء إلى بلاد العم سام! تشابكت الأصابع، والتصقت الشفاه بعسل الحب، وامتزج عرقه بسوائل جسدها وعطرها. التحم الجسدان واحترقت الأنفاس علت تأوهات الحبيبة، وكلما أنهى شوطاً غرامياً معها مكللاً بالنشوة، دعتَه إلى شوطٍ آخر، حتى خارج قواه، وتمدد على السرير مقطوع الأنفاس، أخذ يداعب شعرها، ثم طبع قبلة على جبينها: كان يجب أن نتنظر، ولكن الشيطان أغواني وأنا ضعفت أمام مفاتنك!

يالكَ من أنثى رائعة الجمال، كل شيء فيكَ كان يثيرني حدّ الدهشة، هل كنتِ راضية عن هذا اللقاء؟ أقصد استمتعت وبلغتِ ذروة السعادة؟

ردت عليه بهمسٍ مثير: أجل لأبعد الحدود، ولكنك كنت عنيفاً وكأنك لم،،، ()، ثم أطلقت ضحكة ناعمة.

سألها وهو يتصبب عرقاً: أكملني وكأنني ماذا لم أعرف طعم الحب؟ أنتِ الآنثى الأولى التي أضاجعها في حياتي. أنا لم ألمس أنثى من قبل!

كان واضحاً هذا، فقد كدت تلتهمني، كجائع لم يرَ الطعام في حياته، أجابته «كريستين» لا يهم حبيبي، المهم أننا أصبحنا جسداً

واحدًا الآن، ولكن لو تزوجنا بالمسجد على الأقل، كان أفضل،
ولكن قدر الله وما شاء فعل.

أشعر بذنب كبير ويلزمه سنة من الاستغفار! (هتف محمود). كل شيء حصل فجأة. غدًا سنذهب للمسجد حبيبي لا تقلق. أنت لم ترتكب إثماً. هذا هو الحب، ولقد احتسيت الآن الكأس الأولى منه، أجابته «كريستين»، مازال هناك الكثير، سترتوي من مطر عشقي وأرتوي منك، أنا وأنت الآن أجمل عاشقين في سوهو.. هل تعرف؟ أنا لم أذوق طعم الغرام الحقيقي إلا معك!

انتفض غاضبًا وقال: أنت لي الآن ولا أريد أن أسمع شيئاً عن علاقاتك، ولن أحاسبك عليها. أنا أغار عليك من نفسي أرجوك تفهميني!

أنا أحبك «محمود»، ولن أدع أحداً يلمسني غيرك،

أنا أذوب عشقاً برائحتك وأنفاسك، أنت عشقي الأول والأخير.



ذهب «محمود» إلى الحانة في اليوم التالي وهو يشعر بتأنيب الضمير، ونظر إلى المرأة فوجد وجهه مشروحاً وقد مسحت

منه تمامًا سحابة الإيمان التي كانت ترافقه، فقد أصبح بداخله روحان، روحٌ تبحث عن الحب والمتعة، وروحٌ مازالت مجرورة بسلاسل الأديان تخاف أن تخلع ثوب الراهب الهارب من دور العبادة.

همس بأذن «ذاك»: لقد ارتكبت الخطيئة البارحة مع «كريستين» بشقتنا الجديدة وأنا غاضبٌ من نفسي، الآن لا أعرف ماذا أفعل؟ لقد ضعفت أمام مفاتها! فأنا لم أمارس،،،

قاطع «ذاك»، ثم قفز «ذاك» من مكانه: وأطلق ضحكة عالية، ثم أضاف: مبروك، مبروك أيها العاشق!

وأخيرًا خلعت ثوب الرهبان، وتذوقت شهد النساء، ومع مَنْ.. مع أجمل فتيات إييور سيتي! التي يتمناها كل شاب. أقسم بالله أنك محظوظ!

كفى بالله عليك وكفالك سخرية، أنا حزينٌ وأنت تبرر إثمي، ماذا لو علم والداي بالأمر؟ كيف سيكون موقفني منهما؟ سيكرهاني ويمقتاني إلى يوم الدين.

أجابه «ذاك» مدافعًا: لا لا لم تفعل شيئًا محرّمًا، خفف عنك يا رجل أنت فقدت عذريتك فقط مع المرأة التي تنوي الزواج منها،

ولم تتضاجع ابنة ليل من البنات المتسكعات في سوهو،

أنت قديسٌ يا صديقي، والله قديسٌ بالنسبة لبقية الشباب الذين يمارسون الجنس كل يوم مع أثنى مختلفة وأحياناً يكون لديهم زوجات في المنزل. نحن لا نملك السيطرة على نهر الرغبة الذي يجري بدمائنا، والجنس يا «محمود» حاجة بيولوجية وضعها الله بجسدك وأنت تحتاج إليها مهما تجاهلتها كما تحتاج للخبز والماء. أسألني أنا مثلاً مع كم فتاة مارست الحب؟!

لم أعد أذكرهن، كنّ من جنسيات مختلفة، وبصراحة هن اللواتي دعوني لممارسة الحب! النساء هنا ساخنات ويعتبرن الجنس مهمّاً وجزءاً من حياتهن! مثل الطعام والشراب،

ولا يوجد هنا دين أو سمعة ولا تقاليد لتربطك بقيودها يا صديقي. كل إنسان يفعل الذي يناسبه دون أن ينتقده أحد. بلادنا معقدة. كل شيء يحتاج لوقت طويل وشروط، وتوقيع مئة ورقة وورقة... إلخ، وعندما يحين الوقت لخوض التجربة نكون قد فقدنا الرغبة أصلاً من الأساس.

أجاب محمود: ولكنك الآن تزوجت يا صديقي، فحذارٍ من الخيانة!

ابتسم «زاك» قائلاً: أنا أحب «روزان» ولن أقرب من فتاة أخرى أبداً. انتهت فترة مراهقتي يا صاحبي، وحببتي تروي كل عطشي للحب والنساء، هي فتاة ذكية وتعرف كيف تذيب أشواقي على جسدها الرائع، أما أنت يا «محمود»، فلم تلمس امرأة بحياتك قبل «كريستين» وربما هذا ما جعلها تقع في شباكك لأنك شاب تختلف عن الشباب الذين سمعت عنهم،

أرجوك لا تجلد نفسك باللوم والندم، بنهاية المطاف أنت بشر والبشر يخطئون كل يوم وهذه سُنَّة الحياة، ولا تنسَ أنَّ الحب هو وقود القلب ولولاه لتوقفت ساعة الحياة عن العمل! ولولا حبي لـ «روزان» وحبها لي لسكن في قلبي الصقيع وانتهيت من زمان متجمداً في ثلج الغربة هذه، لا تظن يا «محمود» أنني أسعد رجل بالعالم، ففي قلبي أحزان مدينة وأنت تعرف هذا جيداً! أظن بعد تجربتك الرائعة البارحة ستكون أيضاً بارعاً في صنع الموهيتو (Mojito).

هتف «محمود»: لا أعرف كيف أصنعه؟

هل يعقل هذا يا صديقي؟ هل يوجد نادٍ في العالم لا يعرف كيف يصنع هذا الكوكتيل الرائع؟!

اسمع يا أيها العاشق سأعطيك الطريقة على السريع، أضف الفودكا إلى قليل من العسل، ثم أضف club soda ثم أخرج

من الثلاجة بعض عروق النعناع وزينها بها مع حلقات الليمون الأخضر. الوصفة سهلة جداً ولذيذة جداً، أنصحك بأن تجربها واحتفظ بكأس لي حين عودتي لأحتسيها.

سأل «محمود»: إلى أين أنت ذاهب؟

سأذهب للمنزل لأن «روزان» مريضة قليلاً. أرجوك أن تقوم بمهمات صنع الكوكتيل والمارغاريتا لهذا اليوم، والموهيتو! أقسم بالله أصبحت تتقنها أكثر مني.

نظر إليه «محمود» نظرة صامتة وهو يعاتب نفسه ما الذي يحصل لي؟ برب السماء البارحة كنت أمارس الجنس واليوم سأصنع المشروبات للسكرارى!

لا لا، يجب أن أخرج من هذه الحانة الملعونة قبل أن تدمرني. وصل «زاك» إلى منزله فوجد «روزان» مرتمية على سريرها وشاحبة جداً وتتأبها حالات من الغثيان المفاجئ.

الفصل الرابع

زواج محمود وكريستين.. وظهور مرجانة أخت سام

حمل «زاك» «روزان» وأخذها إلى غرفة الطوارئ، فتبين أنها حاملٌ في الشهر الثاني، وتعاني من فقر الدم بسبب النقص في الراحة والغذاء وعندما علم «زاك» طار من شدة الفرح، ثم طلب منها أن ترتاح وتعتني بتناول غذائها وعلاجها ريثما تستعيد قوتها وتتخلص من أعياء الحمل، كما فرح الجميع لـ «روزان» لأنها كانت تحلم ببيت وعائلة، وأن تعيش مع «زاك» تحت سقف واحد، وكل الذي حصل معها كأن يد القدر رتبته، وجمعتها بحبيها وهي الآن على وشك أن تصبح أمًّا من شخصٍ أحبه وأحبها.

«كريستين» كانت سعيدة جدًا لصديقتها «روزان» وأصبحت تزورها وتساعدُها أحيانًا بتحضير الطعام وترتيب المنزل، أما «روزان» فلم تكن خائفة من غضب أمها لأنها متيقنة بأنها ستنسى كل شيء في هذا العالم عندما تنظر في عين حفيدها أو حفيدتها، وستحضر لهم هدايا الميلاد وكعك الهانوكا، وسيتولى

الوقت إزالة كل أشواك الخلافات بينهما، ولذا قررت أن تخفي خبر حملها عن أمها حتى تضع مولودها بسلام وبدأت تعتني بنوعية غذائها وتناول قسطاً من الراحة كل يوم لتحظى بمولودٍ معافى وجميل، كما أنها امتنعت عن تناول الكحول كما طلب منها «زاك». أصبحت «روزان» قليلة المجيء إلى الحانة، وإلى الجامعة أيضاً لأنها كانت تشعر بالتعب طيلة الوقت، ولذا رأت أن تؤجل دراستها قليلاً حتى تضع حملها الأول الذي كان يتعبها كثيراً، فقد كانت تشعر بالنعاس طيلة الوقت وقلة النشاط وتشعر بأنها تحمل شيئاً ثقيلاً في أحشائها.

كان «زاك» متفهماً لحالتها، يحمل لها الطعام من الحانة كل يوم ويساعدها كثيراً بتنظيف المنزل وشراء الأشياء اللازمة له.

أصبحت «كريستين» قليلة القدوم إلى الحانة أيضاً، وقد كانت تعيش أجمل أيامها مع «محمود»، فقد تبدد خوفها من المجتمع الذكوري الذي جاء منه، ولكن كانت تنزعج قليلاً من غيرته عليها وتدخله في اختيار ملابسها، ومع ذلك كانت تستمع له ولا تغضب من آرائه، فهو بالنهاية رجل شرقي لم يخلع عباءة الدين والتقاليد التي جاء بها، وله عاداته التي ورثها من أهله ولا يمكن أن يخرج من جلده مهما فعل، لاحظت «كيم» بأن ابنتها «كريستين» تغيرت

كثيرًا عليها، وقد أصبحت ملابسها محتشمة نوعًا ما ولم تعد تتناول الكحول كما كانت في السابق.

قالت لها ذات يوم وهي تنظر إلى عينيها الزرقاوين، أنتِ تغيرتِ كثيرًا يا ابنتي! هل من الممكن أن أعرف من هذا الذي يقاسمك الشقة التي استأجرتها مؤخرًا؟ وقد نجح بقلب حياتك رأسًا على عقب؟

ولماذا ترتدين هذه الملابس الطويلة وكأنك قديسة؟ أين ملابسك القصيرة وكنزاتك القطنية المناسبة لهذا الجو الحار! ولماذا أنتِ شاحبة هكذا ولا يوجد أي أثر للمكياج على وجهك؟ لا لا الأمر لا يطمئن أبدًا، هل أنتِ مكشّبة يا ابنتي؟

أين «كريستين» ابنتي التي أعرفها التي كانت تملأ الدنيا جنونًا وجمالًا وفرحًا؟!

نظرت الابنة إلى أمها نظرة تمتلئ بالخوف والاستغراب، ثم قررت مواجهتها بالأمر، فقد مضى على علاقتها بـ«محمود» أكثر من خمسة أشهر ولم تعد لديها القدرة على إخفاء الحقيقة عن أمها أكثر من ذلك، ففي عينيها تخبئ قصص كثيرة أصبح من الصعب إخفاؤها، ولذا أجابتها بصراحة بعد أن مسحت مياه

الخوف من وجهها ونظرت إليها وجهًا لوجه، فقد حان الوقت لتخلع القناع الذي ترتديه منذ فترة: أنا يا أمي تزوجت من الشاب الذي أحبيته!

انتفضت الأم مذهولة: وكيف يحصل هذا الأمر وتخفيه عني أيتها الابنة المستهترّة؟! ومن هذا الذي قمتِ بالزواج منه ولم تدعيني أفرح باليوم الذي انتظرته طوال عمري ولم أحضر فرحك؟! وكيف تتزوجين بهذه السرعة قبل أن تتعرّفي جيدًا على شريك حياتك، هذا منتهى الجنون والتسرع!

أجابتها ابنتها: لم أتزوجه في المحكمة وإنما في المسجد. هو زواج إسلامي فقط، وسيكون الانفصال سهلاً جدًا لو اختلفنا ولم ننجح.

صرخت الأم: بصوتٍ هزَّ أرجاء الغرفة، ثم وقفت وعلى وجهها يبدو كل أنواع الغضب! والاستياء!

أنتِ تزوجتِ مسلمًا! يا للمصيبة الكبرى! هل أنا بكابوس الآن؟ قولِي من البداية إنكِ قررتِ الارتباط بعربي! ومتى التقيتِ براكب الجمل هذا؟!

هتفت «كريستين»: هو شاب سوري جاء إلى هذه المدينة منذ أشهر فقط.

صرخت الأم بأعلى صوتها، عربي؟ ومسلم؟ لماذا؟! ليتكِ قلتِ لي إنكِ تزوجتِ عبداً أسود، لونه أغمق من قميصكِ الذي ترتدينه الآن، لما منعت هذا الزواج! ولكنك باركته. على الأقل لا يعتنق ديانة القتل والإرهاب أفضل بمئة مرة من هذا الشاب الغريب الذي ربما جاء إلى هذه البلد ليخطط لعمل إرهابي في أمريكا، أنتِ تعرفين حق المعرفة أنَّ العرب يكرهون الشعب الأمريكي ويعدون كل واحد لا يعتنق دينهم كافراً، وأنتِ ببساطة ضربتِ بكل هذه الأمور عرض الحائط! ولم تفكري بها.

ردت «كريستين» بشجاعة: صحيح هو مسلم يا أمي ولكن هو متحضرٌ جدًّا، ويعمل بالحانة التي كنت أتردد عليها، وأنتِ تعممين رأيكِ العنصري على جميع المسلمين وتظلمينه!

ماذا تعنين بأنه متحضر أيتها الساذجة؟ أردفت الأم،

وهل يعرف المسلمون شيئاً عن الحضارة أو التمدن، إنهم بدو يركبون الجمال ويرتدون زيّاً غريباً لا يشبهنا أبداً، كل الذي يفلحون به التخريب والنزاع في ما بينهم، وتدمير بعضهم البعض، وكل حادثة تحدث الآن في أي بقعة من العالم، يكون للعرب يد فيها! والمرأة عندهم لا حق لها في الحياة، فهم يعدونها مخلوقاً ناقصاً ويحرم عليها كل شيء. أقسم بالمسيح أن قلبي كان

يحدثني بأن هناك شيئاً خطيراً يحدث من ورائي. أنتِ تعلمين أن رجال المسلمين يتزوجون ثلاث أو أربع نساء ولا يؤمنون بحرية المرأة، وأنا أعلم بأنه لن يهدأ له بال حتى يغير لك دينك ويجعلك مثله مسلمة أو إرهابية! لا أدري كيف ترتبطين برجل دينه قائم على الخزعبلات، ألم تفكري كيف سيعتق أولادك هذا الدين الغريب؟ وأنا قرأت كثيراً عن هذا الدين عندما كنت في الجامعة ووجدته ديناً لا يصلح للإنسانية ويدفع إلى قتل كل من لا يؤمن به! ويدعون المسيحيين وغيرهم بالكفار!

تفاجأت «كريستين» من كلام أمها وتحيرها العنصري ضد المسلمين متسائلة: وكيف تضمنين أن بقية الديانات صحيحة ومنزهة عن الخطأ؟ أليس من نقلها لنا بشرٌ مثلنا؟ وهل هم معصومون عن الخطأ والسهو؟!

صرخت «كيم» بنبرة عالية: يجب أن تعودى لدينك يا ابنتي وإلا ستخلد روحك بالجحيم. المسيح هو الحقيقة الوحيدة على هذه الأرض.

عن أي دين تتحدثين؟ أجابت «كريستين»، أنتِ تعلمين يا أمي أنا لا أمارس الديانة المسيحية ولا غيرها من الديانات، فأنا أرفض تلك السلاسل التي تربطنا بها الأديان، وأنا ديني هو ضميري

وأخلاقي فقط! وكثيرًا ما أشعر بأننا توارثنا الدين وراثته عن آبائنا وأجدادنا، والذي حصل أننا تعرضنا لغسل الأدمغة، وكل إنسان أخذ دينه وتقاليده من أسرته ولن يستطيع أن يخرج منها لأنها ثبتت في فكره منذ الصغر، وكما ترين البشر الآن يسفكون دماءهم بسبب الأديان! وبعد أن درست أغلبها وجدت أنها تدعو للقتل والبغضاء، ولم أقنع لحد الآن بأن الدين ضروري بحياتي لأكون سعيدة، بل على العكس أنا بمبادئي ربما أكون أفضل من قديس يعبد الله منذ ألف سنة.

نظرت «كيم» نظرة استغراب وغضب إلى ابنتها، وأكدت لها أن الإنجيل هو الحقيقة الوحيدة في هذه الحياة وإن لم تؤمن بالمسيح فلن تنعم روحها بالجنة، وأنا أفضل أن تبقي كما أنتِ على أن تعتنقي ديانة هذا الشاب العربي.

لا تقلقي من زوجي يا أمي فهو شاب مثالي، وليس متزمتًا ويؤمن بجميع الديانات، وأنا متأكدة حين تتعرفين على «محمود» سيعجبك جدًّا وستغيرين رأيك به، فهو إنسان مثقف ومتحرر ولن يجبرني على شيء لست مقتنعة به، هو إنسان رائع يساعد أهله ولا يكره أحدًا، ويعتقد بأن الدين ينبع من النفس ولا يمكن فرضه على أحد.

كيم: كلهم يتظاهرون في البدء بأنهم لطفاء ولن يجبروا زوجاتهم على شيء، ولكن بعد ذلك سيجعلك مسلمة أنتِ وأولادك، فهم يعتقدون بأن دينهم هو الدين الصحيح، أتمنى أن تراجع نفسك يا ابنتي وتفكري بجد أن تنهي هذه النزوة العابرة، فزواجك من هذا الشاب خطأ كبير ولا يمكن الاستمرار به، وأنا لست راضية أبداً بهذا الأمر، أنا لن أتخيل أو أقبل أن يكون أحفادي مسلمين! ويجب أن تعرفي يا ابنتي أن هناك فرقاً كبيراً بين أن تصاحبي شخصاً وتقضي معه وقتاً لطيفاً، أو تتزوجي، فعند الزواج يجب أن يكون الشخص مناسباً من جميع الجهات، أي يتحدث لغتك وله نفس أفكارك ودينك وثقافتك.

نظرت «كريستين» إلى أمها بتأمل، ثم قالت بعصبية: وأين الحب الذي هو أساس العلاقة الزوجية؟ كيف سأنام مع شخص لا أحبه؟!

ردت الأم بغضب: ومن قال لك لا تحبي؟ يجب أن تعشقي الشخص المناسب لك وليس هذا الشاب الذي أنتقيته من بين الملايين! والذي لا يجمعك به أي شيء؟

قلبي لم يخفق بشدة وبصدق إلا له، أحبيته من النظرة الأولى (هتفت كريستين).

امتلائت عينا الأم بالدموع وهمست لابنتها: سأذهب غداً للكنيسة وأدعو لك، لست راضية أبداً عن هذا الزواج غير المتكافئ. حاولت «كريستين» أن تهدئ من روع أمها وتطمئنهن بأن كل شيء سيكون على ما يرام ولا داعي للخوف والغضب. شعرت بأنها ألقت الحمل الكبير الذي كانت تحمله على ظهرها، فهي لا تحب أن تخفي هذا الأمر عن أمها أكثر من ذلك، والأيام القادمة ستتولى إزالة الجليد بين أمها وحبیبها الذي اختارته زوجاً لها، ثم ساد صمت رهيب في الغرفة لم يبدده سوى اتصال «محمود» الذي قلق على زوجته لأنها تأخرت.



كان «محمود» سعيداً بإعلام «كريستين» والدتها بخبر زواجها وارتباطها بشاب عربي ومسلم، وهي تعرف تماماً بأنها لن تتخلى عن ابنتها الوحيدة ولا يمكنها الاستغناء عنها،

وكما أنَّ «محمود» كان يفعل المستحيل لإسعادها،

وكان يعتقد أنَّ كل الذين قابلهم في الحانة كانوا أناساً رائعين،

عملوا على مساعدته وفتحوا له بيوتهم وقلوبهم خلال الأشهر القليلة التي مرّت، كما أنه استطاع أن يحقق أشياء كثيرة، تعلم

اللغة بسرعة فائقة، ووجد عملاً يدرُّ عليه المال ليساعد أهله في الوطن، ووجد شريكة حياته التي أحبها وأحبته بجنون،

الشيء الوحيد الذي كان يقلقه هو عمله بالحانة وتقديمه الكحول، فقد طلب من صديقه «زاك» أن يساعده بإيجاد عمل في أحد المحلات العربية.

وأردف قائلاً: يخيل إلي أحياناً بأنني سأموت هنا، وأشعر بأنني أموت موتاً بطيئاً! والمال الذي أجنه مالٌ حرامٌ لا بركة فيه واللحم الذي يكسو جسدي منه، ستلتهمه النيران يوم القيامة.

ضحك «زاك»، وأضاف: هل تعتقد بأن الإله سيعاقبك لأنك تساعد أهلِكَ الذين يعانون من الحرب والجوع، من مال حرام كما تدعي؟ لا أظن هذا صحيحاً أبداً. لقد تحدثنا في هذا الموضوع كثيراً، وأنا أرى أن المذنبين الحقيقيين هم الذين يدمرون الأرض ويقتلون الأبرياء بدم بارد، والسياسيين العهرة المختبئين وراء الكواليس الذي يعطون الأوامر بالتدمير.

قَطَّب «محمود» جبينه، وأجاب آه كم اشتقت لمدينتي.

كان قلقاً على نفسه ويخاف أن يصبح مثل «زاك» لا يعتقد بمبادئ الدين كثيراً ولا يقيم لها وزناً.

رمقه «زاك» بنظرة صامئة وردد: اسمع يا «محمود»، لو تركت العمل في الحانة وذهبت لمكان آخر ستتقاضى مرتباً ضعيفاً وأقل من مرتبك الحالي بكثير، وربما لا تستطيع العودة إلى هنا مرة ثانية، كما تعلم البطالة هنا لا تزال عالية جداً والذين يتمنون مكانك كثيرون جداً. هذه الحانة يا صديقي، لا تحب الضعيف، تحب الأقوياء فقط. تسقيهم كأساً من نبيذها ليشعروا بالسعادة وينسوا متاعب الحياة الجسم لتمنحهم القوة والصبر، ولذا يجب أن تحتسي فيها كأساً مرة ولو كل شهر. اشرب نخب هذه الحياة الكاذبة التي لا تعطينا أي شيء بسهولة إلا إذا أمسكنا بهدفنا فيها بالنواجذ، عندها فقط تستسلم لنا وتكف عن المراوغة.

أجاب «محمود»: لا أريد احتساء الخمر، وسأتحمل نتائج خروجي من هنا. أرجوك ساعدني لكي أجد عملاً خارج هذا البار، مللت من معاقرة الخمر ورؤية المتسكعين المخمورين في سوهو.

ردّ «زاك»: حسنًا يا صديقي، يجب أن نخبر «جابي» بأنك تريد ترك العمل هنا، ليضع إعلاناً ويحضر موظفاً غيرك.

شعر «محمود» بالراحة وابتسم قائلاً: سأفتقدك وأفتقد كل الأصدقاء الذين أحببتهم في هذا المكان، وسأتي لزيارتكم بين

الحين والآخر، ونحن ستفتقدك يا «محمود»، أما أنا فلن أجد أفضل من هذا المكان لأعمل به، فلو تركت هذه الحانة سأموت من الجوع.

اتصل «زاك» بأصدقائه الذين يملكون المخازن العربية بالمنطقة ليسأل عن عمل مناسب لصديقه، فوجدهم يحتاجون موظفًا ليعمل بنقل البضائع وترتيبها في الأمكنة المخصصة، ومن ثم بيعها للزبائن.

خلال أيام قليلة وضع «جابي» إعلانًا في الجريدة لإحضار موظف جديد يأخذ مكان «محمود».



(ظهور مرجانة أخت سام)

بدأ «محمود» عمله الجديد في أحد المحلات العربية، القريبة، وكان سعيدًا بأنه ترك العمل بالكحول وبيعه، وكان عمله الجديد بيع المنتجات غير المتوفرة في المحلات الأمريكية كالخبز العربي والمعلبات واللحوم الحلال والزيت، حيث يأتي العرب لشراء ما يحتاجونه أيضًا من البقالة والخضار المثلجة، وبعض

الفطائر الجاهزة كالزعر والجبين واللحم، وكان يأمل أن يكون مرتبه كافياً ليغطي مصروفه الشخصي ولإرسال النقود لأهله.

مضى بضعة أيام على وضع الإعلان من أجل العمل في الحانة ولكن كل المتقدمين كانوا يبحثون عن عمل جزئي فقط، ولذا لم يأخذ مكان «محمود» أحد، إلى أن جاءت إلى الحانة شابة في بداية العقد الثاني من عمرها، فتاة جميلة، حنطية البشرة، لها عينان ساحرتان وقوام ممشوق جميل، ينسدل شعرها الأسود على كتفيها، كانت بحاجة ماسة إلى العمل.

قابلها «جابي» صاحب الحانة وتفاعلاً عندما عرف أنها من أصول مصرية، وأنها أخت «سام» الذي كان يبحث عنها منذ أكثر من ثلاث سنوات.

أين كنت كل هذه السنوات يا ابنتي؟ هتف «جابي».

لقد أخبرني أخوك عنك الكثير!

فأجابت: هذه قصة طويلة، فقد تركت المنزل عندما كنت في الثامنة عشرة من عمري، فقد كان والدي رجلاً متسلطاً جداً وكنت أشعر بأنه يكرهني ويسئ معاملتي، وكانت أُمي تعاني أيضاً من سلطته المستبدة وسوء معاملته، ولكن لم يكن بإمكانها فعل أي شيء، إلى

أن جاء يوم وهربت من المنزل وسكنت مع إحدى الصديقات ثم بدأت أبحث عن عمل، فعملت في أحد البارات، أقدم المشروبات في النهار ثم أقوم بالرقص الشرقي في المساء، وبعد مضي عام على هروبي تزوجت شاباً يعمل في الجيش الأمريكي، وقد تم فرزه إلى العراق عندما سقطت بغداد، واحتل الجيش الأمريكي الأراضي العراقية وبدأ بتدميرها، وبقيت أنا وزوجي على اتصال إلى أن أخبرني أحد المسؤولين بأنه قضى نجه عندما انفجرت قنبلة مؤقتة بالقرب من الحافلة التي كان فيها، بعدها اسودت الدنيا بعيني وأصبحت وحيدة وعلي أن أنفق على نفسي، وكما علمت أن والدي يبحث عني ليقتلني ويطهر سمعته التي لوثتها.

تأثر «جابي» بقصة «مرجانة» المحزنة وربت على كتفها قائلاً: كنتُ أعرف والدك جيداً قبل أن اشتري الحانة وعندما كنت أزورك في البيت، كنت أنت لا تزالين طفلة والدك عبدالرحيم صعبٌ جداً وقاسي القلب لا يعرف الرحمة، ولقد انقطعت صلتني به بعد أن اشتريت هذا المكان.

سألها «جابي»: ما الذي تستطيعين عمله.

فأخبرته بأنها تجيد صنع الأطباق الشرقية وكذلك الوجبات الأمريكية السريعة، ولديها خبرة بالرقص الشرقي، ثم عرفت بأن أخاها يعمل في الحانة فطارت من الفرحة.

كان «سام» بإجازة مرضية وبقي لديه بضعة أيام ليعود للعمل، ولم تكن «مرجانة» تتوقع أبداً أن تجد أخاها يعمل في نفس المكان وكأن السماء استجابت دعاءها لتجمعها به بعد هذه السنوات.



ذهبت «مرجانة» مع «زاك» و«محمود» في يوم العطلة لرؤية سام، قرعوا جرس الباب ففتح لهم. كان يبدو متعباً، رأى أخته فأمعن النظر بها طويلاً، وقف مذهولاً من هول المفاجأة فما زالت تحمل نفس الملامح وذات الابتسامة الساحرة والشعر الأسود الطويل. عندما رآته للمرة الأولى ابتسمت فظهرت غماسة خدها فعرفها على الفور، صرخ بصوتٍ عالٍ «مرجانة»!

أجابته أخته: نعم أنا «مرجانة»، كم اشتقت إليك كثيراً، يا أخي الحبيب، كم دعوت السماء وأرسلت رسائل مبللة بالدموع ليجمعني القدر بك، وعانقته طويلاً ودموع الفرح تنزل من عينيها كال مطر، وأخيراً وبعد انتظارٍ قاتل، استجاب الله دعائي لأنني دعوت من قلبي بإخلاص.

سألها «سام» بلهفة: أين كنتِ طيلة هذه السنوات؟

أجابت: تنقلت في أماكن كثيرة، ثم عملت في أحد المطاعم العربية في الداون تاون إلى أن وقع الإعلان الذي وضعه «جابي» في الجريدة بيدي، فقدمت إلى الحانة وقابلته وقد أعطاني العمل هناك.

هتف سام: وأين تسكنين الآن؟

أجابت: في إيبر سيتي.

هل يعقل هذا؟! كنت في إيبر سيتي طول هذه الفترة ولم أرك؟!
أضاف «سام» مندهشاً!

كان «زاك» و«محمود» ينصتان بهدوء لحديث «مرجانة» وسام وقد فرحا كثيراً لهما، فقد جمعهما القدر بعد سنوات من الفراق، وقد أكل الجميع طعام العشاء بشهية بعد حدوث هذا الخبر السار.

طلب «سام» من أخته أن تسكن معه في شقته لأنه يسكن وحده وهو بحاجة لها وستملأ عليه حياته، وقد كان مسروراً لأنه لن يشعر بالوحدة بعد الآن.

بدأت «مرجانة» عملها في الحانة فقد أخذت مكان «محمود»، وكانت طاهية مبدعة أعجب الزبائن بأطباقها جداً، الأمر الذي

ساهم بزيادة رواد الحانة من أجل تذوق الطعام اللذيذ، ففي تلك المنطقة جالية عربية كبيرة يأتي أفرادها لتذوق المأكولات والحلويات العربية وللإستماع للموسيقى العربية ومشاهدة الرقص الشرقي.



كانت «مرجانة» سعيدة بعملها بالحانة وسكنها الجديد مع أخيها، فقد عادت الابتسامة إلى وجهها من جديد، وأصبحت تذهب إلى العمل معه وترافقه إلى المنزل في المساء، ومع أنها أصبحت تشعر بالأمان وتبدد خوفها من الوحدة ومجابهة الحياة لوحدها، كانت تشعر بحنين عارم لأمها ولأخيها الصغير «يوسف»، وقد روادتها فكرة زيارتها كثيراً، فأعربت ما في قلبها لأخيها سام، حيث رفض هذه الفكرة بشدة؛ لأن ذلك يعرّض حياتها للخطر، خاصة أن والدها ما زال يبحث عنها ليقتلها ويثأر لعاره الذي لوثته بعد هروبها.

لم يمنع تحذير «سام» أخته «مرجانة» من الذهاب لرؤية أمها وأخيها، فقد كانت فتاة عنيدة وجريئة ولا تخاف من أحد، فقد قررت الذهاب للبيت الذي عاشت فيه طفولة بائسة وتجرجعت

فيه طعم القهر والحرمان، فانتظرت خروج والدها للصلاة حيث يستمع لخطبة الجمعة ويمكث بعدها وقتاً طويلاً في المسجد، وراحت تفرع باب المنزل بعد غياب ثلاث سنوات ونصف، فتح لها الباب أخوها الصغير فلم يعرفها، قبلته وسألته عن أمه، فأجابها: هي في المطبخ، تعد طعام الغداء لأبي.

عندما رأتها الأم وقع الإناء من يدها وانتفضت خائفة، حيث كان خوفها من زوجها أكبر من فرحتها برؤية ابنتها، حيث كان اللقاء مبلاً بالدموع والذكريات الأليمة.

قالت الأم لابنتها: الحمد لله أني رأيتك قبل أن أرحل عن هذه الحياة، أشكر الله كثيراً لأنه منّ عليّ وكحلّ عيني برؤيتك، ثم استطردت: أنا خائفة عليك من والدك، لو رآك هنا سيقْتَلِكِ.

هتفت «مرجانة»: لا تخافي يا أمي أنا أتيت لأراك وأطمئن عليك ولن أبقى هنا كثيراً، كل الذي أطلبه منك أن تكوني مطمئنة، ولا تقلقي عليّ.

أنا بخير وأعيش مع أخي «عبد السلام»، وأنا أعمل الآن في حانة «جابي» صديق والدي، وسعيدة بأنني وجدت أخي وأعيش معه الآن.

كانت الأم متوترة جداً وخائفة من قدوم زوجها في أي لحظة، فهو مصمم على غسل عاره وقتل ابنته التي هربت من قبضته الحديدية.

غادرت «مرجانة» بيت أمها بعد أن أعطتها مبلغاً من المال لتشتري لها ولأخيها الصغير ما تحتاجه، وتركت لها رقم هاتفها للاتصال بها كلما سنحت الفرصة أو عندما يكون والدها بعيداً عن المنزل، وكان قلبها مكسوراً، فهي لن تستطيع زيارة أمها إلا بالخفاء، وتذكرت أيامها الأولى حين تركت البيت وكم عانت في حياتها بسبب قساوة والدها وبخله، وتعصبه الأعمى.

كان «سام» قلقاً جداً على «مرجانة»، ويدعو بأن ترجع أخته بالسلامة من تلك الزيارة. كم تمنى أن يذهب لرؤية والدته ولكن كان الخوف من والده يمنعه، وكان لديه شعورٌ غريبٌ ينتابه بين الحين والحين بأن والده سيظهر في وجهه ليتقم في يومٍ من الأيام، فقد رآه بالحلم أكثر من مرة واستيقظ مذعوراً،

ولكن كان يكذب إحساسه قائلاً: والدي لا يتحدث مع «جابي» ولا يأتي للحانة فكيف سيعرف مكاني أنا وأختي؟!!

ثم يعود ويسأل نفسه: ماذا لو رآنا أحد العرب الذين يأتون إلى الحانة وقام بإخباره، فبعض الشباب لا يفلحون إلا بالوشاية ونشر

قصص الناس وأسرارهم في الجالية العربية! سأسلم امري لله، ولكن لو أتى إلى الحانة سأحاول التحدث إليه وسأمنعه من إيذاء أختي «مرجانة»، فهي لم ترتكب أي جرم أو خطيئة بحق أحد، كل ما في الأمر أنَّها أرادت أن تكون حرة في بيت لا يؤمن بالحرية.

الفصل الخامس

ولادة روزان وزيارة أهلها لها

قررت «كريستين» أن تعمل حفلة عشاء في منزلها وتدعو إليها كل الأصدقاء؛ لتحفل بزواجها من حبيبها «محمود»، فجاءت «روزان» وكان قد بدا عليها التعب وثقل الحركة وقد تكور بطنها أمامها وأصبحت تمشي ببطء، أما «زاك» فكان سعيداً جداً لأن زوجته كانت حامل بتوأمين، حيث بدأ هو وزوجته بانتقاء اسميهما، وجاء «سام» وأخته «مرجانة» واحتفلوا جميعهم في جو من المرح والسعادة.

سأل «زاك» صديقه «محمود»: أخبرنا كيف هو العمل الجديد؟

أجاب «محمود»: لا بأس به، ولكن لم أقاضِ مرتبي بعد ولا أعرف بالضبط كم سيكون؟

هتف «زاك»: لا تتأمل أن يكون كثيراً لأنهم لا يدفعون كثيراً للموظفين الجدد كما أعرف.

صمت «محمود» وقد بدت على وجهه عدم علامات الرضا من عمله الجديد.

كان الجميع سعداء لـ«محمود» و«كريستين» وباركوا لهما بسكنهما الجديد، وكانت «كريستين» قد حضّرت المأكولات الشرقية التي يحبها الجميع مثل التبولة والمعجنات والفلافل بمساعدة «محمود»، كما حضّرا أطباقاً من الحلويات الشرقية اللذيذة، وبينما كان الأصدقاء يتسامرون ويضحكون، اتصلت «كيم» والدّة «كريستين» لتخبر ابنتها بأنّها متعبة جداً وتحتاج الذهاب للطبيب. هلع الجميع لأخذها إلى المستشفى وتبيّن بعد الكشف عليها وأخذ تحاليل الدم بأنّ لديها فشلاً كلوياً حاداً، وتحتاج إلى كلية بأسرع وقت.

تقدم «محمود» وزاك للتبرع ولكن زمرة الدم لم تلائم زمرة دمها.

جاء «سام» وعرض على «كريستين» المساعدة من أجل والدتها فرحبت بالفكرة، وبعد التحليل الذي خضع له، وجد الطبيب أنّ زمرة دمه هي الوحيدة التي تناسبها، كان الجميع مذهولاً من موقف «سام» وتضحيته وتقديمه قطعة من جسده لأُم صديقه، فقد كان «سام» صديقاً لـ«كريستين» منذ أيام المرحلة الابتدائية، وعندما كبر وأعلن مثليته وطُرد من المنزل ساعدته «كريستين» كثيراً مادياً ومعنوياً حتى وجد عملاً في الحانة، من أجل أن يعيش

نفسه، لذا شعر بأنّه جاء الوقت ليردّ إليها بعضاً من معروفها معه، عندما كان وحيداً بلا معين، ولكن كان على «كريستين» أن تسال أمها وتأخذ موافقتها، كانت تذكر تماماً أن أمها لا تحب «سام» وقد طردته من المنزل بعد أن عرفت أنه عربي ومثلي.

مضت ساعات طويلة في المستشفى و«كريستين» تنتظر والدتها أن تصحو لتخبرها بأن صديقها «سام» سوف يتبرع لها بكليته لتبقى على قيد الحياة، وحاولت أن تقنعها بأن مرور الوقت ليس لصالحها، وترجتها أن تقبل عرضه لأنّ حياتها ستكون في خطر لو تأخر نقل الكلية، ولم يكن هناك مجالٌ أو وقتٌ للرفض أو الخيارات، وما هي إلا ساعات وتمّ نقل الكلية من «سام» إلى «كيم»، وأصبح «سام» بكلية واحدة وقلب كبير يتسع لكل أصدقائه، وأيقنت والدته «كريستين» بأنّ الحكم على الناس من منظار ضيق هو حكم خاطئ، وكان عليها أن تسبر أغوار الحقيقة قبل أن تسيء الظن بذلك الشاب الذي ضحى بكليته من أجل إنقاذ حياتها.

كان «سام» سعيداً جداً لأنّه استطاع أن ينقذ والدته صديقه من الموت، وبين الوعي والغيوبة كانت تتحدث إليه «كريستين» وترت على يده، وكلمات الشكر كلها كانت عاجزة عن إيصال أي جزء من الامتنان الذي غمر قلبها.

ذهبت «كريستين» إلى منزل والدتها ومكثت معها بضعة أيام ريثما تتماثل للشفاء وتستعيد قوتها ونشاطها، ثم تحدثت الأم مع «سام» بالهاتف لشكره واعتذرت منه لما بدر منها من سوء معاملة له بالسابق وشكرت نبل أخلاقه.

أمضت «كريستين» مدة أسبوع كامل وهي تساعد والدتها بإعداد الطعام وتنظيف المنزل، الأمر الذي جعلها تشعر بالتعب المفاجئ، والغثيان وعندما ذهبت للطبيب، أخبرها بأن تلك الأعراض طبيعية لأنها حامل في الشهر الثاني، فكادت تطير من الفرح لأنها تريد طفلاً من الشاب الذي أحبته، ولكن قررت بأن لا تخبر والدتها بالأمر، وفضّلت أن تنتظر قليلاً لتقتنع والدتها بزواجها وبزوجها «محمود» الذي مازال يلقي الرفض منها، ولم تقتنع بأنه زوجاً مناسباً لها لأنه يعتقد دين الإسلام،

ولكن «كريستين» كان لديها الأمل بأن والدتها ستغيّر رأيها به وتتقبله عندما تتعرف عليه بعد مرور الأيام.

كانت سعيدة جداً بحملها ولو أنها لم تكن تخطط له، ولم ترصد له ميزانية مناسبة، ولكن قررت أن تأخذ معونته من الحكومة، حيث تُقدّم للأفراد الذين يتقاضون مرتباً ضعيفاً معونة غذائية قبل وبعد الحمل؛ وذلك لتضمن أن أفراد الشعب والمجتمع بصحة جيدة وبالتالي ليكون فرداً منتجاً في بلده.



فرح «محمود» كثيرًا بالمولود القادم، وطلب من الله أن يبعث له ابنة جميلة مثل «كريستين»، ولكنه كان قلقًا من عمله الجديد، وبدأ يسأل نفسه كيف سيتدبر أمر مصروفه العائلي، ويرسل لأهله المصروف المعتاد وهو يتقاضى مرتبًا هزيلًا لا يسد حاجياته؟!، فلم يكن يعلم أنه سيتقاضى نصف المرتب فقط الذي كان يتقاضاه بالحانة، غير البقشيش الذي كان يجمعه من السكارى قبل خروجهم وهم سعداء، فبدت تنتابه فكرة العودة إلى الحانة وبدأ يشعر بالحسرة لتخليه عن عمله القديم، ويتذكر كل كلمة قالها «زاك» له مما جعله يعض على أصابع القدم، ولذا لم يصرّح أمام زوجته بأنه يريد العمل مع «زاك» من جديد، فترك هذا الأمر للظروف.

اقترب عيد الميلاد ورأس السنة الجديدة وأصبحت الشوارع مزدحمة بالناس الذين يترددون إلى السوق ليشتروا هدايا الميلاد للأقرباء والأصدقاء، والحانة مكتظة بالزبائن أكثر من أي وقت مضى لأنّ الكثير من المسافرين والزائرين جاؤوا إلى المدينة للاحتفال بالأعياد مع أهلهم وأصدقائهم، وقد بدؤوا بحجز الأماكن بالحانة من أجل إحياء ليلة رأس السنة الجديدة، وأصبح الشباب يأتون

لتناول الأكلات اللذيذة والمتنوعة التي تجيدها «مرجانة»، واحتساء كأس من الخمر الفاخر، بالإضافة لأطباق المقبلات كورق العنب والفطائر المتنوعة، التي سرعان ما تنفذ لشدة القبول عليها.

وفي المساء كانت «مرجانة» تقدم عرضاً من الرقص الشرقي على صوت أم كلثوم تارة وعلى صوت المطربين الجدد تارة أخرى، حيث يأتي الشباب وبعض كبار السن ليتمتعوا برؤية جسدها الجميل وهي تلتوي كالأفعى وترقص حافية القدمين، وهي ترتدي ثوباً شفافاً يظهر منه نهداها البارزان ومفاتيح جسدها الجميل، وكان بعض المعجبين العرب يرمون بالدولارات تحت قدميها فتلتقطها بنهاية الحفلة الغنائية، ومنهم من كان يرمي برقم جواله على أمل اللقاء بها بعد الانتهاء من الرقص. كان الجميع يعمل خلال تلك الأيام ساعات طويلة لتغطية طلبات الزبائن وتقديم الخدمات على أفضل وجه، حيث يأتي صاحب الحانة فجأة ليطمئن على سير العمل وحضور الموظفين وأداء المهمات المسنودة إليهم بالوقت المطلوب.



عاد «سام» إلى العمل لتحضير المشروبات وتقديمها بعد أن تماثل للشفاء، ولكنه كان مقبوض القلب ويشعر بحزن غريب

لا يعرف له سبباً، فصورة والده بالحلم باتت لا تفارقه كل يوم، والشئ الوحيد الذي كان يفرحه رؤية أخته معه في البيت وفي العمل، كانت تفرح قلبه وتؤنس وحدته، ولكن كان خائفاً عليها من والده فهو يعرف كم هو ظالمٌ ومستبدٌ، وإن استدللَّ على مكانها لن يرحمها، وفي ليلة رأس السنة رآها أحد الشباب العرب من أصول مغربية، الذي يأتي للمسجد يوم الجمعة للصلاة ثم يذهب في أيام الأحاد للحانة ليشرب كأساً من الكحول مع صديقه، وقد دفعه الفضول عندما رآها لأول مرة، بأن يتقدم وينظر إليها من قريب، فتذكر ملامحها على الفور، التي لم تتغير كثيراً فأصابتها الدهشة والغضب، وثارَت به عروق النخوة والرجولة العربية، خاصة، عندما شاهدها ترتدي ثوباً شفافاً لا يستر مفاتها. كانت لا تزال صورة وجهها في مخيلته، وكأنه يراها من منظار الأمس، جسدها التحيل وابتسامتها الساحرة، المغربية، وشعرها الأسود الذي كان بلون الليل، مازال ينسدل على كتفيها، ويتحرك معها كفرس جامح، كلما ركضت ومشت على أطراف أصابعها حول نفسها لترقص على أنغام الموسيقى العربية، فتقفز معها قلوب المترعين بالخمرة والنشوة. تذكر أيام المراهقة وكيف كان مفتوناً بها ولم يلقَ منها إلا الصّدّ وعدم الرضا، فبدت تشب في قلبه حرائق الماضي ونزف جرح كبريائه من جديد، وتذكر كيف كان

والدها عبد الرحيم جاره في السكن، قد أمضى ثلاث سنوات وهو يبحث عنها ولكن بلا جدوى. قرر أن يُخبره بأن ابنته موجودة في المدينة وترقص في إحدى الحانات في سوهو، لعله يظهر أمامه بدور البطل الذي يضع بين يديه خيط الوصول إليها.



مضت الأيام مسرعة وعادت «كريستين» إلى منزلها وأصبحت تشعر بالتعب والخمول، وكانت قلقة على زوجها «محمود» فقد أصبحت تراه حزيناً وصامتاً في أغلب الأحيان وقلقاً من أجل نفقات المنزل ومساعدة أهله.

قال لها ذات يوم: لا أعرف كيف سأدبر أمري الآن، لقد اخترت الطريق الصحيح للرزق، ولكن كما ترين هو لا يطعم خبزاً، والسماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، هل تعتقدين أنه كلما صعب صراعنا في الحياة صار فوزنا بالجنة أمراً مضموناً أكثر؟

ضحكت «كريستين» ملء قلبها وقالت: لا أعتقد هذا يا حبيبي.

أنتِ تعرفني، أنا لا أو من بمثل هذه النظريات ولكن كل ما أعرف إذا كان لديك هدف في الحياة وسعيت لتحقيقه بكل ما أوتيت

من جهدٍ وعزيمةٍ سيتحقق ولو كان بعيد المنال، المهم أن تكون مقتنعا بكل ما تقوم به بغض النظر عن موافقة وقبول الأطراف الثانية في حياتك، كن ربان سفيتك وأبحر بها بثبات وسط العاصفة وستصل إلى شاطئ أحلامك مهما كان بعيدا.

هتف «محمود»: آه كم يريحني كلامك أيتها الأنثى الجريئة، كم أنا متعب!، وألقى برأسه في حجرها وتمدد على الكنبه التي تجلس عليها.

قبلته وراحت تداعب شعره، قائلة: لا تخف يا حبيبي أنا معك وسأقف بجانبك مهما حصل.

أخذ يدها وراح يقبل أصابع يدها إصبعًا إصبعًا.

همست بأذنه: أنا أعشقتك «محمود»، ومتأكدة بأنك ستجد عملاً عن قريب، أنا أثق بحدسي جيداً، ستكون في عملك الجديد قبل مولد ابنتنا.

أجابها بلهفة: هل عرفت أنها بنت؟!

قالت نعم، كم أنا سعيدة جداً، أنتظرها على أحر من الجمر!

كان «محمود» دائم الخوف بأن يخرج من معركة الحياة خاسراً ولم يبق معه سوى بطاقة رحيل ليذهب بها إلى أحد المنافى،

ومعه بضعة نقود نحاسية لا تكفيه لشراء بطاقة يانصيب خاسرة، كانت له أحلامٌ ذات وطن بأن يظلّ الياسمين معرّشاً على نافذ قلبه ولكن الحرب قلبت كل الموازين ووضعت في دوامة صعبة قرّر بأنّه لن يستسلم وسينحت الصخر ليحقق ما يريد، فهو يعلم الآن أنّ حفنة الدولارات التي يتقاضاها من المتجر العربي الذي يعمل به لا تكفي لتسديد الفواتير الشهرية المترتبة عليه، من إيجار الشقة ونفقات الطعام والتأمين الصحي، ويعلم جيداً أنّ المصروفات ستزيد كثيراً عندما تولد طفلته، كل تلك الأمور كانت كافية لتفجر بركاناً في رأسه، وتحرمه من لذة النوم كل يوم،

كان «محمود» في داخله نادماً لترك العمل في الحانة، وكثيراً ما كانت تتردد كلمات «زاك» في أذنه: «يا محمود الحانة هي المكان الوحيد الذي سيطعمك خبزاً كافياً، أرجوك لا تترك سوهو، ستتعب كثيراً وستعود نادماً إلى هنا بعد وقتٍ قصير».

قال «محمود» لنفسه: يا إلهي لقد كان «زاك» محقاً في كل كلامه وتوقعاته! ماذا أفعل الآن؟ وهل سيقبل «جابي» بعودتي لعملي؟ وإذا رفض ماذا أفعل وكيف سأعمل لأسرتي؟!

آه كم أنا متسرع! لقد تركت العمل الذي كان يدُرّ علي مالاً وفيراً وأنا الآن في أمس الحاجة إليه. آه كم أنا أحمق!

كانت «كريستين» تشعر به وتعرف جيداً في كل يوم يمضي أن القديس الذي في داخله مازال حياً يُرزق، وكان هذا يفرحها، فقد وجدت به نصفها المفقود، وبالرغم من أنها هي و«محمود» قطبان متناقضان فكرياً وعقائدياً وسلوكياً، كان يجمعهما حب عميق وصداقة شفافة، ولذا قررت أن تخبره بأنها تريد الزواج منه بالمحكمة لأنها تأكدت من حبها له وبأنه شاب طيب، سيكون قادراً على إسعادها هي وطفلها القادم، فقد مضى على علاقتها به أكثر من سنة ونصف وقد كانت تقول لنفسها سيفرح «محمود» كثيراً بهذا الخبر لأن زواجي منه بشكل رسمي سيسهل عليه أموراً كثيرة وسيجد عملاً أفضل أيضاً عندما يبدأ الدراسة ويحصل على اختصاص معين في المعهد أو الجامعة، فأنا لا أريده أن يبقى نادلاً في الحانة طيلة العمر.

جاء رأس السنة الجديدة وكان «زاك» متعباً لأن زوجته «روزان» كانت تتألم طوال الأيام الماضية، فهي على وشك الولادة، وقد أصبح لا يأخذ قسطاً كافياً من النوم، فقد اشتدت آلام المخاض ذات ليلة، فأخذها «زاك» مسرعاً إلى المستشفى وانتظر ساعات طويلة وهو يدعو لها أن تنتهي من آلامها بالسلامة.

دخلت «روزان» غرفة العمليات، وانتظر «زاك» في غرفة الانتظار على الكرسي، وقد غلبه التعب والنعاس. جاء الطبيب وأخبره

بأنَّ «روزان» بخير وقد وضعت بنتًا وولدًا ولكن كان لا بدّ من العملية القيصرية، فرح «زاك» كثيرًا برؤية الطفلين الجميلين، وقبل «روزان» وأخبرها بأنّه سيبقى معها ريثما ترتاح قليلاً من تعب الولادة، فقد أخذ إجازة من صاحب العمل، وبعد ثلاثة أيام قضتها بالمستشفى وتحسن حالتها قليلاً نقلها إلى البيت وكانت سعيدة جداً بأسرتها الجميلة، فقد تحقق حلمها بأنها أصبحت أمّاً لأجمل طفلين صغيرين.

سألها «زاك» إذا كانت تريد إخبار والدتها.

أجابت «روزان»: ستطير أُمي من الفرح لو رأت إيفا ويعقوب!

سأسميهما على اسمي جدي وجدتي فقد قضا نحبهما في القدس منذ سنتين فقط، عسى أن تُحلق روحهما الطاهرة في هذه الشقة المليئة بالحب، ثم أردفت تقول: أنا أعشقتك يا زاك، وأعشق هذين الطفلين لأنهما منك، وهما زهرة حبنا النقي الذي صمد أمام كل العوائق.

هتف «زاك»: وأنا أحبك يا «روزان» حباً ليس له حدود، ولا أستطيع تصور حياتي دونك أبداً.

اقتربت «روزان» من «زاك» واحتضنته ثم وضعت ساعديها حول عنقه وقبلته وهمست في أذنه: أعشق رائحتك يا «زاك»، أنت

أميري العربي الذي أتى وأخذني على فرسٍ عربيةٍ أصيلة. أنت الشاب الذي كنت أحلم به، وكأنني صنعتك لنفسِي.

ضحك «زاك»: وأنت الفتاة التي أحبها وتملك جسداً رائعاً يستحق التأمل طيلة الوقت.

أخذت «روزان» الهاتف وأخبرت والدتها بأن تقدم لرؤية حفيديها إيفا ويعقوب.

صرخت راشيل: أحفادي! أنت جادة يا «روزان»؟! هل وضعت توأمين؟

ردت «روزان»: أجل تعالي حالاً لتشعري بروحي والديكِ هنا في شقتي.

ابتسم «زاك»: ووقف قائلاً: سأصنع القهوة وسأضع بعض البقلاوة، احتفالاً بقدوم والدتك. أنا متأكد بأنها ستطير من الفرح عندما ترى هذين الطفلين الرائعين.

جاءت «راشيل» وهي تصطحب زوجها «دافيد» لأول مرة لبيت ابنتها، فقد نسيت كل الغضب والشجار، وهي تحمل الهدايا وسلة الشوكولاتة وتكاد لا تصدق أنها أصبحت جدة.

كان الجد «دافيد» سعيد جداً بأحفاده، قال لابنته: مبتسماً آه
أيتها الشقية، هكذا تحرميني من رؤيتك طيلة هذه الأشهر أيتها
المشاكسة والعنيدة؟!!

ما زلتِ كما أنتِ، الطفلة الصعبة المراس، جئت اليوم لأكحل
عيني برؤية هذين البرعمين اللذين ينموان على شجرتكِ الياقة
مازلت أذكر لون فستانكِ المفضل وحذاءك الأحمر الصغير
وقبعتك الوردية، مَنْ كان يجرؤ أن ينتقي ملابسك وانت حينها لم
تكملي الثلاث سنوات، وَمَنْ كان يجرؤ أن يلمس ألعابك؟

وأنت الآن الأنتى الجميلة التي أنجبت أجمل طفلين في العالم،

وأنا «دافيد» الجد المحفوظ!

حمل «دافيد» أحفاده، وعيناه تملؤهما دموع الفرح، ما أجمل
هذين لحفيدين، كأنتى أرى «روزان» تُولد من جديد اليوم!

لهما ذات العينان ولون الشعر الساحر. انظري ياراشيل إلى
هذه الشفاه الخمرية، أليست شفاه «روزان»؟! وتلك الغمازتان
الناعمتان، يا للروعة! لقد أخذنا جزءاً كبيراً من ملامحي أيضاً.
قطّبت «راشيل» جبينها ثم ردت عليه بسخرية: لا، لا أعتقد ذلك
أبداً، هذان التوأمان يشبهان جدتهما «راشيل» فقط.

ابتسم «دافيد» ثم قال: لا يهم هذا فأنا سعيدٌ جدًا اليوم، سأصلي وأشكر الله على عطاياه لي، أغمض عينيهِ ووضع كفيه المتلاصقين أمام قلبه وقال:

يا أيها الرب المقدس: لك شكري وامتناني، أشكرك بعدد رمال الأرض my lord Jesus، ما أروعك أيها الإله، لقد وهبتيني ابنة جميلة أنجبت لي فلذات كبدي (إيفا ويعقوب)، سأقوم بقراءة القصص لهما وتعليمهما مبادئ الإنجيل لينشرا السلام في هذا العالم الفاسد، سنذهب إلى الكنيسة كل أحد وأركض وراءما أينما ذهبنا كما كنتِ أنتِ تركضين يا «روزان».

انتفضت راشيل: مهلاً أيها العجوز: لا تنسِ «روزان» يهودية مثلي، وهذان الطفلان مثل أمهما تمامًا، ابتعد أنتِ عن هذا الأمر واترك لي شأن التعليم والدين سأتولى أمره.

كان «زاك» سعيداً بقدوم أهل زوجته لمنزله، ويحاول أن يظهر لهم المودة والترحيب من أجل زوجته التي يحبها، وكان يستمع إلى نزاعهما ويتسم قائلاً: هذان الطفلان لكما أنتما تفعلان بهما ما شئتما، وأنا لست جيداً مع الدين.

ابتسمت «روزان» وهتفت: كم أحبك يا «زاك» وأحب روحك الجميلة ولو كان الناس مثلك لعاش العالم بسلام، وأنا أجزم

بأنك لو حكمت هذا العالم لأنصفته، وجعلته سعيداً لا يشكو من المعاناة.



كانت «روزان» سعيدة جداً بأن أمها نسيت الخلافات القديمة التي بينهما وأصبحت تأتي مراراً لزيارة حفيديها وتحمل لهما الألعاب والملابس، وتفاجأت كثيراً حين رأت «زاك» شخصاً مختلفاً تماماً عن الصورة التي رسمتها له في مخيلتها، حيث وجدته شاباً لطيفاً، بشوش الوجه، يحب زوجته ويحترم أهلها جداً ويقوم بضيافتهم ويقوم بطهي الأكلات العربية لهم وأحياناً ويدعوهم بلمبيت عنده عندما يكون الوقت متأخراً في المساء، أما والد «روزان» فقد كان يعرف هذا منذ البداية عن «زاك» وبأنه شاب رائع، ولكنه كان يخشى أن يعلن رأيه أمام زوجته المتسلطة، ومع أن «راشيل» بدأت تشعر بالارتياح نوعاً ما تجاه «زاك» وتلاشى معظم خوفها منه، وتلاشت ملامح تلك الصورة القبيحة التي رسمتها له، كانت لا تزال قلقة من هذا الزواج وتخشى الآن على حفيديها أن يكبرا ويعتقنا الدين الإسلامي، مع أن والدهما يعمل نادلاً ولا يمارس طقوس المسلمين البتة، ولم يختار حتى اسمي ولدي، وترك مهمة الاختيار لـ «روزان»، فهو يؤمن بأن كل إنسان يقوده القدر إلى دينٍ

معين، والدين لا يفرض بالقوة على أحد، ولأنَّ الحروب في هذا العالم سببها ديني كان لا يحب الدين ولا يمارسه، وكان يعتقد لو لم يكن هناك اختلاف في الأديان لعاش أغلب الناس بأمن وسلام ولتخلصوا من كثير من المشاكل كالإرهاب والفقر والحروب، وبالرغم من فرح «زاك» بقدوم أهل زوجته عنده وقبولهما به ونسيان الخلافات القديمة التي نشبت في البداية ورفضهما العنيد له، إلا أنه كان لا يزال خائفًا من ردة فعل الأم في المستقبل، فوراء ابتسامتها وفرحها بحفيديها كان يشعر بأنها كانت تخفي شيئًا ما، لا يعرف ما هو، ثم يعود ويقنع نفسه بأنَّ الأمور تسير بخير ولا داعي للهواجس التي كان يخاف منها، وأنَّ كل ما يشعر به هو مجرد وهم وتخيلات. كان همه الوحيد أن تكون «روزان» سعيدة معه وأن يكون ولداه بخير، أما الأمور الباقية فلم يكن يعتقد بأنها مهمة كثيرًا.

كان غياب «زاك» عن الحانة لمدة أكثر من أسبوع أمرًا صعبًا على الموظفين، فقد أصبح العمل شاقًا، وازداد عدد الرواد وأصبح الجميع منهمكًا بتحضير الطعام والشراب وإرضاء الزبائن خاصة الجدد منهم.

انقضت ليلة الميلاد وعيد رأس السنة وأصبحت الحانة أقل ازدحامًا عن ذي قبل. بدأ العمال والموظفون بتنظيف المكان

ونقل الكراسي والطاولات الزائدة إلى المخزن لعدم حاجتها وبدؤوا بنقل شجرة الميلاد وفكّ حبال الأضواء الكهربائية التي تُزين المكان، وترتيبه ليعود كل شيء كما كان بالسابق، وتمّ نقل زجاجات الخمر الفارغة لمعمل التدوير، فقد استهلك الشاربون ما يقارب الألف زجاجة من الويسكي والفودكا والبيرة وغيرها، وبيعت مئات الشطائر من شاورما الدجاج واللحم ماعدا أطباق المقبلات التي صنعتها «مرجانة» وبعض العاملين الآخرين. كان الجميع سعيدًا بما جنته الحانة من أرباح طائلة في تلك الفترة، خاصة «جابي»، لذا قرر أن يزيد أجر عماله ففرحوا بهذا الخبر، حيث كان يتقاضى العامل عنده مرتبًا جيدًا لا يحلم أن يتقاضاه خارج ذلك المكان، في تلك الظروف الاقتصادية السيئة التي يمرُّ بها العالم بسبب الحروب!

فرح «زاك» بأن مرتبه أصبح كبيرًا وعينه «جابي» المدير العام للحانة، والمسؤول عن شؤون التوظيف، لما رأى منه من إخلاص لعمله، ومهارته في صنع الكوكتيلات التي يقدمها للشاربين، وكما كان «جابي» معجبًا بالأطباق التي يبتكرها كل فترة فتعجب الزبائن وتجعلهم يقبلون على مطعم الحانة لتناول العشاء وشراء الوجبات لمنزلهم.

عاد «زاك» إلى المنزل في إحدى الأمسيات وقد اشترى لـ «روزان» سواراً ذهبياً وباقة ورد كبيرة وأطباقاً لذيذة أحضرها معه من الحانة، كان يريد أن يحتفل معها بمناسبة ترقيته وحصوله على المنصب الجديد.

رأته «روزان» وهو يتسّم ويضع الأشياء على الطاولة، فقالت بصوتٍ يملؤه الفرح: شكراً لك حبيبي على هذه الورود! أخبرني بسرعة: ما سرُّ هذه الابتسامة الجميلة اليوم؟ وقدومك المبكر والمفاجئ؟

قال لها: أولاً أنتِ تستحقين ورود العالم كلها وأنا أحبك جداً لاتنسي هذا.

ثانياً: أنا لم أحضر لك هدية بعد ولادتك، ولقد اشتريتها اليوم من صائغ يهودي يجيد صياغة الذهب والألماس، هي قلادة تحمل حرفين ماسيين من اسمي واسمك!

ثالثاً: أريد أن احتفل بترقيتي في العمل، أصبحت المدير العام بحانة سوهو، وهذا يعني أن مرتبي قفز إلى الضعف! صرخت «روزان» من الفرح وقفزت لتعانق «زاك»، قائلة: يا إلهي كم أنا محظوظة! أنا سعيدة جداً جداً، كم سيفرح والدي بسماع هذا

الخبر الرائع، وهذان الطفلان هما الذان جلبا لنا الحظ والسعادة والرزق.

هتف «زاك»: نعم يا حبيبي، يعتقد الناس في بلدنا بأنَّ الطفل يأتي والله يرسل له رزقه من السماء، لست متأكداً ولكن هكذا سمعت، ويالها من حفنة كبيرة من المال وقد جاءت حقاً في الوقت المناسب، فأنا احتاجها فعلاً لتسديد فواتير المستشفى وشراء حاجيات كثيرة لهذين الصغيرين، كما أنني أخطط للانتقال لشقة أكبر، فهذه الشقة صغيرة جداً، فنحن نحتاج الآن ثلاث غرف نوم وليس لدينا سوى غرفتين فقط!

هتفت «روزان»: مازال هناك متسعٌ من الوقت، وهذا البيت لا بأس به الآن، أنا أقترح عليك أن ندخر بعض المال لنشتري بيتاً صغيراً وله حديقة جميلة ليلعب بها الأولاد في المستقبل.

يالها من فكرة رائعة، أردف «زاك»، كم تعجبني أفكارك أيتها الأم الرائعة.

ابتسمت «روزان» وقالت: المهم دعنا نحتفل الآن بكل هذه المناسبات السعيدة التي قررت أن تأتي كلها بوقت واحد، مجيء أجمل طفلين بالعالم وترقيتك، وقبول أهلي بزواجنا، يا

إلهي دعني أحضر كأسين من الشامبانيا، لنشرب نخب هذا اليوم
الجميل!

رائحة الطعام الذي تحمله جعلتني أتضور جوعاً، أعطني شطيرة
من لحم الشاورما من فضلك.

ضحك «زاك»: لقد أحضرت لك شطيرتين، لأنني أعرف أنَّ
واحدة لا تكفي.

أطلقت «روزان» ضحكة عالية وغرق الحبيبان بموجة من
الضحك الطويل.

الفصل السادس

انتقام عبد الرحيم من ابنته «مرجانة» وعودة «محمود» للحانة

بعد أن علم عبدالرحيم بمكان ابنته «مرجانة»، من الشاب المغربي الذي يتردد على الحانة، اشتعلت بدمائه نيران الغضب، وقرّر الذهاب إليها ليغسل عاره، كان رجلاً متمزماً، يبدو في نهاية العقد السادس من عمره، وتظهر على وجهه قساوة القلب وحدة الطباع، كان ممتلئ الجسم أسمر البشرة، متوسط القامة، له لحية يشوبها الشعر الأبيض، وعينان ثاقبتان، تنبآن عن غضب وحزن دفين، يحمل في يده مسواكاً، ينظف به أسنانه الصفراء، التي فقد بعضاً منها بسبب قلة الغذاء والاهتمام، تفوح منه رائحة عرقه النفاذة من مسافة بعيدة، لأنه لا يستحم إلا يوم الجمعة بقليل من الماء، فتبقى روائح جسده التنتة عالققة به،

وعندما وصل إلى الحانة، عرف أنها حانة صديقه القديم «جابي» الذي لم يعد يتحدث إليه منذ أن اشترى تلك الحانة، ولكنه قرّر عدم الدخول لأن المكان كان مكتظاً جداً بالرواد والسكران، كان

يرتدي بنطالاً أسود يصل عند كاحل قدمه وقميصاً طويلاً وواسعاً، وكان ينتعل حذاءً قديماً مكسوًّا بالغبار، مهترئ الحواف وباهت اللون. لم يهدى له بالٌ منذ هروب ابنته «مرجانة» وهو يفكر كيف سيصل إليها لينتقم لشرفه ويغسل عاره الذي لوثته بهروبها، حيث سببت له الإهانة والنظرة الدونية من الجالية المسلمة حوله، فبدأ يخطط للهجوم، عندما تكون الحانة غير مزدحمة بالزبائن، ليتسنى له الانفراد بها ومحاسبتها، وقد أشار إليه بعض الأصدقاء بأن يصفح عن ابنته ولا يؤذيها، لأنه لا يوجد إنسانٌ معصومٌ من الخطأ، ومنهم من أشار عليه بقتلها ليظهر سمعته وينفذ تلك الجريمة كما فعل الكثيرون من قبله، وقد كان خوف عبدالرحيم من كلام الناس والشائعات أكبر بكثير من خوفه من الله أو خوفه على ابنته.

صلى عبدالرحيم ركعتي استخارة قبل أن يذهب إلى الحانة، وكان يغمغم لنفسه لا أعرف ماذا فعلت تلك الفاجرة بنفسها؟

الشرف يعني لنا نحن المسلمين أن تكون البنت عذراء حتى تصل بيت زوجها، وإذا فقدت غشاء البكارة قبل ذلك أصبحت تستحق لقب «عاهرة» بجدارة.

لا بدّ من استعادة كرامتي وهويتي التي سلبتني إياها تلك المستهترّة (غضب الله عليها دنيا وآخرة)، لن يرتاح لي بالٌ أو أشعر بالراحة

قبل أن أراها ممددة أمامي، تغرق بدمائها، لتظهر من الفاحشة والرديلة.

شعر عبد الرحيم بأن ما سيقوم به صوابٌ وبأن الله راضٍ عنه تمامًا. كان قد جهّز مبلغًا من المال أعطاه لزوجته لتنفق منه أثناء غيابها، واستعد لتنفيذ المهمة التي كان يريد إنجازها منذ سنوات، ففي أحد أيام العطل الأسبوعية كانت «مرجانة» تحضّر الأطعمة للزبائن، وبعد أن انتهت جهّزت نفسها لأداء الرقصة الشرقية التي ستؤديها في المساء، حيث ينتظرها رواد الحانة بفارغ الصبر، كانت الموسيقى عالية، وكؤوس الخمر امتلأت، يحسبها الشاربون على أنغام الألحان الجميلة التي تقوم بعزفها فرقة موسيقية، كان أفرادها من جنسيات مختلفة، كانوا يتمتعون بالنظر إلى جسد «مرجانة» شبه العاري، ونهداها الجميلان كانا يثيران رغبة الشباب بشكل جنوني، خاصة عندما كانت تؤدي حركاتها وانحناءاتها بخفة وتدور بدلالٍ هنا وهناك. كانت تارة تستلقي على بطنها وتارة تنام على ظهرها لتسعد الجميع، كان المدخنون ينفثون دخان سجائرهم في الصالة المخصصة للتدخين والرقص، فتصعد أعمدة الدخان لتصعد معها غرائز الرجال وتنشب في أجسادهم غرائز الشهوة مما جعل هالة من الضباب تلف حول خصرها وقامتها لتختفي ملامحها، كان البعض لا يكفي بساعة

من العرض ويريد المزيد، وسط هتافات التشجيع والإعجاب،
مرددين «مرجانة»، «مرجانة» من أجل وصلة ثانية، وأخيراً رأى
الأب الغاضب ابنته وهي تنهي وصلتها، وقد وضعت شالاً رقيقاً،
لتغطي جسدها وهي تخرج من القاعة، تجمدت الدماء في عروقه،
خرج من عينيه الشرر، تصفد جبينه بالعرق وأردف قائلاً: تَبَّأ لك يا
«جابي» أيها الخنزير، لقد جعلت أولادي كالعبيد يعملون عندك،
سأقتلك وأقتلهم!.

قال الله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن
يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ»،
(سورة الحجرات)، ثم أردف قائلاً: ستلتهم جسدك النيران أنت
وأموالك الوسخة، ها هي «مرجانة» ابنتي العاهرة، ترقص عاريةً
للرجال وهم ينتشون برؤيتها، تَبَّأ لهم هؤلاء الوحوش، لو كنت
أستطيع لقتلتهم جميعاً وشربت من دمائهم الستنة.

انتظر عبدالرحيم لنتهي من رقصتها وبدأ الرواد بالخروج، فدخل
القاعة وركض نحوها كالوحش المفترس، يحمل سكيناً حادة،
ثم صرخ بوجهها

عليك اللعنة أيتها البنت الرخيصة، ليتني مت ولم أرك تبعين
جسدك من أجل حفنةٍ من الدولارات!

صرخت «مرجانة» بصوت عالٍ تطلب الإغاثة من أخيها وهي ترتجف من الرعب، فسمعها من وراء الستارة!

فجاء مسرعاً من خلف والده ليمنعه، مترجياً والده، قائلاً: أرجوك يا والدي لا تقتل «مرجانة»! أرجوك اتركها على قيد الحياة! اترك لي أختي الوحيدة، القتل حرام يا أبي.

أجابه عبد الرحيم: اخرس أيها العاهر، يا عديم الشرف والنخوة، أنت تعرف الحلال والحرام؟! لوّثت سمعتي أنت وأختك ودفنت كرامتي في التراب، الله برىء منك أنت وتلك العاهرة التي تبيع جسدها للذئاب الجائعة!

ليتك مت أيها المخنث ورحمتني من العار الذي سببته لي!، هتف سام: يا أبي أرجوك لا تدع الانتقام يغرقك بالدم والجريمة.

رد عليه الأب بغضب وكره، لا تقل أبي! اخرس أيها الفاجر! أنت لست ابني، ابني عبد السلام مات منذ ثلاث سنوات وليس لي أبناء بهذا الاسم.

كان «سام» يحاول دفع أبيه والسلاح الذي يحمله ليحمي أخته، فدخلت السكين في خاصرته، فوقع على الأرض وسط بركة من الدماء، مغمياً عليه.

لم يكن في الحانة سوى بضعة عاملين قاموا بطلب رجال الأمن الذين جاؤوا على عجل ليقْتادوا عبد الرحيم إلى السجن وسام إلى أقرب مستشفى بواسطة طائرة مروحية لخطورة حالته، كانت «مرجانة» ترافقه وتبكي بحرقة لما انتهى إليه سام.

قال الله تعالى: «مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا» (المائدة: ٣٢).

كان «سام» ينزف بشدة وقد كان يحتاج إلى نقل دم سريع وعندما علم «زاك» بالحادثة كان يعرف بأن «كيم» والدة «كريستين» هي المتبرع المناسب بالدم لأنه تبرع لها بكليته منذ فترة، وقد اعتقد بأنها لن تمانع بإعطائه دمًا منها.

جاءت «كريستين» هي وأمها إلى المستشفى وقد علم الجميع بتفاصيل القصة والهجوم الذي شنه والد «مرجانة» بالحنة، وما هي إلا دقائق وتم نقل دم لسام لتستقر حالته الصحية قليلاً.

أخذت «كيم» ابنتها «كريستين» إلى زاوية في المستشفى وهمست بأذنها: أعتقد الآن فهمت لماذا عارضتُ زواجك بشدة من راكب الجمل، هل يعقل أن أترك حفيدتي لتلقى هذا المصير؟!

آه يا ابنتي ماذا فعلت بنفسكِ؟

وأنتِ حامل الآن بطفلة وتريديني أن أتركها تتربى ببيت مسلم؟
 كم أتمنى أن تكوني اقتنعتِ بأنه من الخطر أن تولد أثنى في مجتمع
 شرقي، يمارس الإسلام! هل رأيتِ بأم عينكِ ماذا فعل هذا الرجل
 الذي يدعي الدين والطهر؟ كان يودُّ قتل ابنته لأنها عملت كراقصة؟
 أنا لا أستطيع أن أفهم ما الغلط في ذلك؟ العمل ليس عيباً؟ فهي
 لا تسرق أو تُمارس الفاحشة! إنها تؤدي عملها لتعيش. اسمعي
 يا ابنتي: أنا من هذه اللحظة سأبحث عن محام لأضم حفيدتي
 لي. هذه البنت التي لم ترَ النور بعد أخاف أن يكون بانتظارها أيام
 سوداء في بيت ستترى فيه تحت مظلة دين غريب، يؤمن بالقتل
 والانتقام، وقهر المرأة ومنعها من ممارسة حقها في الحياة. لا
 أريد أن تتكرر هذه المأساة أمامي وأنا أنظر مكتوفة اليدين. قولي
 بربك؟ ما الذي يضمن لي أن والدها «محمود» سيعاملها مثل أي
 أب أمريكي يؤمن بالحرية واختيار الشريك المناسب لها؟ هل
 سيدعها تخرج مع فتى أحلامها أو صديقها في المستقبل؟ لا،
 لا، لن أثق بأحد بعد الذي رأيته اليوم. سأذهب للكنيسة وأستشير
 أحد أصدقائي لينصحنني ما الذي يجب أن أفعله من أجل أن
 أحمي حفيدتي القادمة! بأي وسيلةٍ كانت.

بعد مرور بضعة أيام، كان وضع «سام» ما زال حرجاً لأن كليته الوحيدة كانت تنزف، بسبب الطعنة التي تلقاها من والده وهو يحاول أن ينقذ أخته من فم الموت، وقد أشار الطبيب على «مرجانة» بأنه يجب أن يرتاح لفترة طويلة حتى يسترد عافيته وما فقدته من الدماء.

أصبحت الحانة تعج بالرواد من جديد، وقد صار ضغط العمل كبيراً على «زاك» وبقية العاملين، وقد أيقنوا أن «سام» لن يعود للعمل في الوقت الحالي، فقد كان وضعه الصحي في تدهور مستمر، لذا بدأ «جايي» يفتش عن عامل جديد ليأخذ مكان سام.

كانت «مرجانة» لا تستطيع ترك عملها لأنها أصبحت المعيل الوحيد لأهلها، فوالدها بالسجن وأخوها «سام» بالمستشفى يصارع الموت من أجل البقاء، وكان عليها أن تترك الشقة التي كانت تعيش فيها لأنها لن تستطيع أن تغطي نفقاتها لوحدها، ولذا نقلت ممتلكاتها إلى بيت أهلها ولكنها لم تخبر والدتها بالذي حصل خوفاً عليها من الصدمة.

كانت تذهب للاطمئنان على «سام» كل يوم، ولكن كانت حالته سيئة جداً، وكلام الطبيب عنه لا يطمئن، حزن «مرجانة» لأجله وبكت بحرقة وصلت للسماء من أجل شفائه، فقد كان معيها

الوحيد في الحياة، وكانت تسأل نفسها كثيرًا: هل يصيب الله العبد بكثير من المصائب من أجل أن يغفر له ذنوبه؟ وماذا لو لم يشعر الإنسان بأن لديه ذنوبًا؟ فكيف سيتحمّل كل هذا الابتلاء من شتات الروح وفقد الألفة؟ ثم همست لنفسها: في البدء فقدت زوجي في العراق، والآن أبي في السجن، قد لا أراه ثانية، وأخي «سام» يصارع الموت. لا أعلم إذا كان للشيطان مآرب أخرى ليجعل حياتي من سيئ إلى أسوأ!

كان «زاك» يزور «سام» في المستشفى كلما سنحت له الظروف، وقد حزن لأجله كثيرًا، خاصة عندما علم من الطبيب بأن وضعه لا يسمح له بالعمل بسبب سوء صحته، ورأى أن يسأل «محمود» إذا كان يريد العودة إلى الحانة، فقد عرف أن مرتبه لا يكفيه أبدًا، ولا سيما أنه سيصبح أبًا عن قريب.

لم يمانع «محمود» بالعودة إلى الحانة من جديد، لأنها كانت له باب الرزق الوحيد المفتوح أمامه، وقد أغلقت جميع الأبواب الأخرى، وقد أصبح عليه دينٌ يجب أن يعيده لأصدقائه بسبب ضيق حالته المادية، وماهي إلا أيام وعاد «محمود» إلى الحانة من جديد، فقد كان يحتاج المال بشدة، فزوجته «كريستين» حامل، ووالده في سوريا مريض ويحتاج لعملية جراحية قد تتطلب المال

الكثير، ولذا فرح جداً عندما طلب منه «زاك» أن يعود للعمل، بأقرب وقت، فقد كان عدد الزبائن يزداد يوماً بعد يوم، ولكن «محمود» كان خائفاً من رفض «جابي» لعودته للعمل.

سأل «محمود» «زاك» في ذلك اليوم:

هل تعتقد بأن «جابي» سيمانع برجوعي للحانة؟

ردّ «زاك»: لا تقلق لقد أصبحت أنا مديراً للحانة وأنا المسؤول حالياً عن تعيين العمال هنا.

هتف «محمود»: هل هذا صحيح أم أنت تمزح؟

أردف «زاك»: طبعاً صحيح، وسأزيد مرتبك أيضاً إلى الضعف حسب طلب «جابي» مني الآن! لأن الحانة تدرّ أموالاً كثيرة بسبب إتقان العاملين بصنع الوجبات والمشروبات، ولذا أحبّ أن يكافئهم، هو رجلٌ كريّمٌ وطيبٌ ولا يأكل تعب أحد للأمانة، ولقد قرر أن يفتح حانة جديدة في إيور سيتي، في مقبل العام المقبل.

قفز «محمود» من الفرحة: سأبلغ «كريستين» بهذه الأخبار السارة، ستطير من الفرحة.

لم يعد «محمود» يفكر كثيراً بوبال الذنب الذي يرتكبه بعمله، فقد شعر بأنَّ القدر هو الذي يقود له سفينة حياته منذ وصوله إلى بلد المنفى، وقد كان يؤمن بأنَّ الله سيغفر له ذنوبه وكثيراً ما كان يردد «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» (الزمر)، كما أنَّ حبل المسؤولية الذي كان يلفُّ حول رقبته لم يترك له خياراً آخر، فقد كان يريد أن يؤثث غرفة لمولودته الجديدة ويستعد لنفقات كثيرة بانتظاره، فزوجته لم تعد تعمل فهي على وشك الولادة، حتى عملها التطوعي الذي كانت تقوم به من مساعدة المرضى واللاجئين أصبح يتعبها، ولذا كانت تقضي وقتها بين زيارة أمها وصديقتها «روزان»، فقد كانت تحب أن ترى طفليها وتتحيل طفلتها القادمة قد وُلدت وبدأت تجري وراء إيفا ويعقوب،

قالت لـ«روزان» ذات يوم: سيكبر أولادنا، وسيصبحون أصدقاء رائعين، مثلنا.



في أحد أيام الخريف الباردة، كان الهواء يعصف بالأشجار والأوراق تتساقط على الأرض، حيث يعلو صوت الريح على صوت حفيفها الذي يدغدغ ذاكرة النسيان، عاد «زاك» إلى بيته،

حيث كان متعباً وترافقه سحابة من الهم والخوف لم يكن يعرف سببه، وعندما دخل البيت كان مظلمًا ويكتسحه هدوء تام، لم يجد أحداً فيه، فاستغرب، حاول الاتصال بزوجته «روزان» فلم يلقَ ردًّا، فاتصل بوالدها ليسأل عنها فقد بدأ الشك والانشغال يتعب تفكيره، فـ «روزان» عادة لا تخرج مع الأولاد لوحدها، وبعد عدة محاولات من الاتصال على هاتف زوجته.

رد «دافيد» قائلاً: لا تفرع يا بني!

«روزان» هنا جاءت لزيارتنا، تعال واحتس معنا كوباً من القهوة.

كان «زاك» قد بدأ يقلق جداً ونزل مسرعاً ليعلم ما حدث، فقد استغرب لأن «روزان» لم ترد على هاتفها، وعندما دخل بيت أهل زوجته وجد «روزان» صامتة ودموعها تملأ عينيها.

هتف «زاك» بصوت عالٍ: ما الذي حدث؟ وأين إيفا ويعقوب؟ هل هما بخير؟

هدئ من روعك يا «زاك»، لا تخف الجميع بخير!

رد «دافيد»، والد «روزان»، كل الأمر أن «راشيل» زوجتي أخذت الأولاد وذهبت بهم مدينة (سان بيت) وسترجع بعد يومين! لدينا بيت صغير هناك يطل على الشاطئ.

صرخ «ذاك»: هل خطفت الأولاد؟ أرجوك أخبرني؟ لأعرف ما الذي حصل بالضبط؟

أجاب «دافيد»: «راشيل» تريد أن تضغط عليك لتترك «روزان» لأنك مسلم و«روزان» يهودية كما هي تعتقد، مع أن ابنتي مثلك لا تمارس أي نوع من الديانات، ولا تؤمن بالرسول، وإنما تؤمن بوجود آلهة عظيمة خلقت هذا الكون وما عليه.

أردف «ذاك»: سأضطر أن أبلغ الشرطة لتحضر أولادي في الصباح الباكر! أنا آسف يا مستر «دافيد»، ولكن زوجتك أخذت طفلين رضيعين بحاجة لرعاية والدتهما، ولم تسألني أو تسأل ابنتها على الأقل قبل أن تذهب!

رد «دافيد» بهدوء: اهدأ يا بني أنا أعرف «راشيل» جيداً، هي جبانة، وستعود غداً وسترى أن حدسي لا يخطئ.

أجاب «ذاك»: أنا باقٍ هنا لن أتحرك حتى أسترجع الأولاد.

دافيد: اجلس يا بني ولا تخف! هذا بيتك الثاني، كنت أنتظر مثل هذا اليوم لنجلس ونتحدث ونحتسي القهوة معاً، ولكن من دون غياب أطفالك، اسمعني يا بني: أنا رجل اعتنق المسيحية ولكنني لا أمقت أحداً لأنني أو من بالتسامح وقبول الآخرين بغضّ

النظر عن معتقداتهم وأصولهم، أعرف أنك إنسانٌ رائعٌ وتحب ابنتي وهي تحبك، وأنتم الاثنان زوجان رائعان، أشعر بأن الإله صنعكما من كتلة طين واحدة بإتقان وتليقان أن تكونا معاً، ولكن «راشيل» متعصبة وعنيدة ولا يزال لديها أملٌ بأن تترك ابنتها وتقوم هي برعاية حفيديها، وأخذهما إلى المعبد اليهودي، فهي تظن بأنك ذات يوم ستعود لدينك الذي تهمله الآن! وستضغط على «روزان» والولدين لجعلهم مسلمين مثلك.

ولا أخفي عليك قصة «مرجانة»، ووالدها الذي كان يريد قتلها، التي ذاع خبرها بالمدينة، زرعت الرعب في قلبها وجعلتها تظن بأن المسلمين جميعهم يؤمنون بعدم حرية المرأة، وينظرون إليها نظرة دونية وليس لها حقوق مثل الرجل، كما تعتقد، وبأنها كائنٌ قد يلحق العار بالأسرة المسلمة، لو أنها حاولت أن تصادق شاباً أو تنشئ معه علاقة حتى صداقة بريئة. صدقني هذا الموضوع قلب كيان «راشيل» رأساً على عقب، فبعد أن وافقت واطمأنت لك رجعت وخافت من زواجك بابنتها، وخافت على حفيديها وما يحمله المستقبل لهما. هكذا تفكر راشيل! لقد أتعبتني طيلة هذه السنين.

هتف «زاك» بصوتٍ عالٍ: ولكن هذه الأفكار والعادات أصبحت قديمة وأنا لا أؤمن بها.

أنا معك يا بني وأعرف أنك إنسانٌ متحضرٌ وستعامل ابنتك إيفا بالحسنى واللطف، وليس لديّ أدنى شك بذلك، فأنا أثق بحدسي كثيرًا، وأثق بك كثيرًا أيضًا، لقد استطعت أن أكوّن عنك فكرة عميقة من خلال الفترة القصيرة التي عرفتك بها ومن خلال حديث ابنتي «روزان» عنك، ولو كنت غير ذلك لما حصل بينك وبين «روزان» أي علاقة أو نوع من الإعجاب، سأرسل لراشيل رسالة حادة اللهجة، وسأجعلها تأتي غدًا وسترى وعدي سيكون لك حقيقياً، سأجعلها تعود بسرعة البرق هي والولدان اليوم، فلا داعي للقلق يا بني.

أرسل «دافيد» رسالة هاتفية لزوجته وشرح لها وضع ابنتها السيئ وغضب «زاك» منها، وهددها بأن «زاك» مُصرٌّ على أن يحتفظ بـ«روزان» وبولديه، فضحكت وقالت: حسناً سأتي في الصباح. لقد سبب لي هذان الطفلان وجعاً برأسِي، وأنا لا أحتمل بكاء الأطفال، تبّاً لي ولتلك الفكرة التي قمت بها.

ضحك الجميع وابتسمت «روزان» وحضنت «زاك» وعادت لبيتها قائلة: إن كنت أنا يهودية وأنت مسلم كما يعتقد أهلنا فنحن لا نمارس الدين وإنما نمارس الحب والتفاهم فقط.



عادت «راشيل» مع الطفلين واعتذرت لابتنتها عن تصرفها الأرعن، وقد رأت أن «روزان» لن تتخلى عن حبيبها وزوجها «زاك»، فهي دونه كسمكة دون ماء، كما أنها اقتنعت تمامًا بأن «زاك» لن يتخلى عن زوجته مهما حصل من الظروف، فكل الذي تستطيع عمله، أن تذهب وتزور حفيديها كلما شعرت بالشوق لهم، وكانت تنتظر عودة ابتنتها للجامعة لتقوم هي بتربيتهم وتلقيتهما الدين اليهودي، أما زوجها فكان يرى أنها يجب أن تترك لحفيديها حرية الاختيار، فقد كان يعتقد أحياناً أن الإله هو الذي يختار الدين المناسب لكل إنسان على هذه الأرض، فيما أن يتقبله ويرضاه شمعة لتتبر له قلبه ودربه أو يفتش عن دين يناسبه، فقد قال لها ذات يوم: لماذا تحمّلين نفسك هذا الهم والشقاء، دعي حفيدك للزمن فهو كفيلٌ بالاختيار لهما بعد أن يختبرا الحياة وما فيها من قيم ومعرفة وأديان، فأنتِ تعلمين ياراشيل أنني أنا نفسي تغيرت كثيراً عن ما كنت عليه بالسابق.

أجابت «راشيل» بنبرة حادة: هذه مشكلتك وإن أصبحت لا تؤمن بالأديان مثل ابتنتك «روزان»، أما بالنسبة لي فالدين اليهودي هو الحقيقة الوحيدة في هذه الأرض. أجاب «دافيد»: مهلاً الأمر

ليس كما تظنين ولكن عندما كنت شاباً كنت أعتقد بأنه لن يرضى عني الإله حتى أكون راهباً ويجب أن لا أسأل عن أي شيء في الكنيسة وأعتقدت بأن الإله سيقيني بالجحيم إذا ارتكبت حماقة، وحضرت علومًا دينية غير الكاثوليكية، ودخول الجنة لم يكن مهمًا مثل البقاء خارج الجحيم، وعندما كنت صغيراً كنت أشعر بالنفور من أي كنيسة ثانية غير كاثوليكية.

وأخشى أن يدفعني الشيطان للذهاب إلى غير الديانة التي أمارسها، حتى مجرد التفكير بالهامبرغر يوم الجمعة أو الهروب من اليوم المقدس كان ذنباً بالنسبة لي، أما الآن يا راشيل، أصبحت أؤمن بأن الله صديقنا وإذا كان كذلك هو صديق كل الناس لماذا لا نكون كلنا أصدقاء ونختلف على اسمه؟ إذا كان جهوفاً، الله، عيسى، بوذا... إلخ، ولكن بعض الناس الذين يعتقدون أنفسهم مؤمنين لا يسمحون للذين لا يؤمنون به أن يكون صديقاً، مع أن الله خلقهم جميعاً، لأن الذين يتاجرون بهذا المفهوم، يريدون أن يمنعوا هذا من أن يحصل.

سمعت «راشيل» واستغربت قائلة: هل أفهم منك الآن أنك ترى دور العبادة كلها مثل بعضها حتى التي يلقتون بها الأفراد القتل والإرهاب؟

أجاب «دافيد»: للأسف هذا يحصل أحياناً إذا أسىء استخدام الدين وفهمه حين يقوم رجاله بتخدير الشعوب البسيطة، بتفسيراتهم المغلوطة وفتاواهم المدمرة، وتحويل الشباب إلى إرهابيين ليقتلوا أنفسهم ويدمروا بلادهم، بحجة الحصول على جنان الخلد والحوريات، بينما أولاد تلك الطبقات الثرية يقيمون في الغرب ويدرسون فيه! ولذلك قال كارل ماركس: جملته الشهيرة، الدين هو أفيون الشعوب!

وأرى أن هذا ينطبق للذي يحصل في الشرق الأوسط، كثيراً، خاصة سوريا، فالدين إذا أُسْتُغِل بشكل لا يهدف مقاصده السامية، فهو أفيون للشعوب الفقيرة الجاهل.

وهل أفهم من كلامك أنك لم تعد منحازاً ومتعصباً للكاثوليكية التي كنت لا ترى شيئاً سواها؟!!

«دافيد»: لا لم أعد متحيزاً لأي دين يراشيل، والسبب هو أنني أصبحت أرى النزاع والقتل في هذا العالم بسبب اختلاف الأديان، وهذا يؤلمني ويجعلني أتمنى لو لم يكن هذا الاختلاف والصراع موجوداً لأنه يسبب قتل الأبرياء ونشر البؤس والفقر في تلك البلدان الخاضعة للحروب، فالآن يا «راشيل» أصحاب المذاهب المختلفة الذين يتبعون ديناً واحداً يتناحرون كما يحصل في الشرق الأوسط.

وفي الحقيقة يا «راشيل»، في ذلك الوقت، أي في عهد كارل ماركس، كان الدين قد ارتضى الأسلوب القمعي أسلوبًا له، وارتضى أن يحجر التحصيل العلمي على ثلة ممن يتسبون للدين المسيحي الكاثوليكي فحسب، ولا أنكر أن الدين المسيحي في عهد هذا المفكر كان في أسوأ حالاته على الإطلاق، ولذا كان رجال السياسة يمارسون القمع والاستبداد تحت مظلة الدين.

«راشيل»: لا أريد أن أسمع عن ذلك أرجوك، أنا الآن مشكلتي فقط أن أربي حفيدي على الدين اليهودي، لا أريد أن تكون لهما أي علاقة بما يدعونه بالشرعية الإسلامية المتطرفة، لا أريد أن يعتنقوا تلك الأفكار الغريبة ويتحولوا إلى إرهابيين.

هتف «دافيد»: لا تخافي عليهم، فوالدهما «زاك»، لا يمارس الإسلام، وابتك يهودية ولكنها لا تحب الأديان!

انفضت «راشيل»: لا بد أن تعود لدينها ذات يوم، وأنا لم أعد ضد زوجها «زاك»، ولكن الحقيقة أن أرض العرب دائمة الصراع والاقتتال، والمسلمون لا يحبون السلام. الخراب يسيط أجنته هناك! أليس هذا غريبًا؟ ويدعو لطرح الأسئلة؟!

أجاب «دافيد»: اسمعي يا «راشيل» كوني موضوعية واحكمي بعقلانية. الحرب سببها دائمًا واحدٌ إما الاستعمار الخارجي أو

الظلم والاضطهاد الذي يمارسه الحاكم المستبد ضد شعبه، وهذا أمر لا يخفى على أحد والبلدان العربية تعاني منه، وأنا أرى أسوأ أنواع الحروب هي التي تموّل من دماء شعوبها المحتلة، وهذا نعيشه أيضًا للأسف ويدفع ثمنه الأبرياء.

أردفت راشيل: أضف الجهل والتخلف والدين الذي يدعو للقتل والانتقام!

ابتسم «دافيد» وقال: سأكتفي اليوم بهذا القدر من السهر، أشعر بالنعاس يداعب جفني، تصبحين على خير أيتها الجدة الجميلة.

اقترب موعد ولادة «كريستين»، حيث مضت أشهر حملها بسرعة، كانت متشوقة لرؤية مولودها الأول، وكانت تعرف أنها ستضع بنتًا، وسألت «محمود» ذات يوم: أي لون من العينين ستحمل ابنتنا؟

أجاب «محمود»: أريدها أن تحمل لون عينيك الجميلتين يا «كريستين»، عندما أمعن بلونهما الأزرق أتذكر بحر مدينتي، وأشعر بأنني أغرق بهما إلى أبعد عمق، ولكن أنت الآن وطني وبحري ومدينتي!

هتفت «كريستين»: وأنت كل حياتي، فأنا لا أستطيع أن أتخيل العيش دونك ولا لحظة واحدة، وكم أحب لون عينيك الأسود الرائع.

ابتسم «محمود»: وأضاف: أنا أشكر الله كثيرًا الذي جمعني بك،
وكم أتمنى أن نحيا حياة سعيدة أنا وأنتِ وابتتنا.

تنهَّدت «كريستين» ثم أردفت تقول: أنا كل الذي أطلبه من
هذه الدنيا أن تعيش طفلتي بيننا وسط جو من الحب والألفة،
أنا لا يهمني الثراء والترف، في كثير من الأحيان المال وحده لا
يجلب السعادة، وقد تملك مالا وفيرا ومع ذلك، قد تكون أتعس
الناس على وجه الأرض، وكما يُقال: قد تكون غنياً وتعيش فقيراً،
وقد تكون فقيراً وتعيش غنياً!

اقترب «محمود» من «كريستين» وحضنها وقبَّلها وهمس في
أذنها: كم يزداد حبي لك يوماً بعد يوم، أشعر وكأنك تقرئين
سطور قلبي وفكري.

ابتسمت «كريستين» قائلة وأنا كذلك يا «محمود»، أشعر بأنك
قريبٌ مني جداً، وليلى ابتتنا ستكون ثمرة الحب وستعيش بهناء
ولن تعاني من حرمان الأب كما عانيت أنا بطفولتي، وأرجو أن
يكفيننا مرتبك التي تتقاضاه الآن مع المساعدات التي قدمت
عليها، فهي ستساعدنا كثيراً، وعندما ترى أُمي أننا سعداء جميعاً
ستكف عن إزعاجها لنا وسيتلاشى خوفها من المستقبل، وستعلم
أن حفيدتها تملك أفضل أب في الدنيا.

هتف «محمود»: أتمنى ذلك يا حبيبتي، ثم سألها متى سنبدأ بتجهيز غرفة طفلتنا القادمة، لم يبق الكثير من الوقت؟

أجابت «كريستين» بفرح: في عطلة الأسبوع القادم، سوف اشتري لها سريرًا مستعملًا استعمالاً خفيفًا من عند إحدى صديقاتي، أما الملابس فسأشتريها من التنزيلات، حيث لا أريد أن أصرف المال الذي ندخره. المعيشة في هذه البلد تتطلب الكثير من الالتزامات المالية، والحياة هنا غالية جدًا، وربما نحتاج مالا في المستقبل من أجل طفلتنا ولا تنس أن الفواتير كثيرة جدًا في هذا البلد، صحيح الإنسان يعيش برفاهية هنا ولكن كما تلاحظ ندفع كثيرًا من الضرائب مقابل تلك الخدمات الموجودة، أنا حاليًا مطمئنة أنك ستبدأ عملك من جديد في الحانة وستكسب الكثير في موسم الأعياد، وسنستطيع تدبير كل شيء، لا تقلق أنا سأرتب أمورنا، وستكون بخير كلها.

ابتسم «محمود»، وطبع قبلة على خد «كريستين»، وقال: كم أنا سعيد لأنك شريكة حياتي، سأعمل ليلاً ونهارًا من أجل سعادتك أنت وطفلتنا الصغيرة.

ابتسمت «كريستين» وأنا أحبك لأنك كل حياتي.

الفصل السابع

ميلاد ليلي ٢٠١٣.. ومحاولة الجدة «كيم» أخذ حفيدتها

جاء «محمود» من عمله متعباً في إحدى الليالي ليجد «كريستين» تتألم من وجع المخاض، فأسرع بنقلها للمستشفى، وبعد مرور يوم كامل عانت فيه من الألم و«محمود» يرافقها ويخفف عنها، وضعت طفلتها الجميلة وسمتها ليلي.

كانت تشبهها كثيراً، كانت لها بشرة ناصعة البياض وشعر أشقر وعينان مثل لون البحر، عندما رأتها «كريستين» نسيت كل ألمها وساعات الانتظار المشحونة بالوجع والخوف، أما «محمود» فقد كان في غاية السعادة ويرمق ابنته بعينين مبهورتين.

قال لها: كم تشبهك كثيراً، ما أجمل عينيها الفيروزيتين، وشعرها الذهبي كم يشبه شعاع الشمس! أنا اليوم أسعد إنسان بالعالم!

كبر بأذنها وحنكها بالتمر، ولكن «كريستين» منعتة من حلاقة شعرها، فاكتفى بقص خصلة صغيرة ووضعها في جيبه..

عرفت والدّة «كريستين» «كيم» بولادة ليلي ففرحت وجاءت لرؤيتها في أحد الصباحات في المنزل وقد اشترت لها الهدايا والألعاب. حملتها وقبلتها ثم هفتت تقول: الحمد لله لها نفس ملامحك ولون بشرتك يا ابنتي.

أجابتها ابنتها: كنت أتمنى لو أنها كانت تشبه «محمود» ولكن، قاطعتها أمها وقالت: «محمود»، «محمود»! لا أدري ماذا أعجبك براكب الجمل هذا ولماذا تحببته؟ أنا لا أراه وسيماً أبداً! وتظهر على ملامح وجهه علامات الغضب والعصبية وحب السيطرة والتحكم أهذا ما أعجبك به؟!

انتنضت «كريستين» بحدة، أرجوك لا تتحدثي هكذا عن زوجي، فأنا أحبه وهو كل شيء بحياتي والآن أصبحنا أسرة رائعة.

ولكن يا ابنتي من الخطر أن تتربى هذه الطفلة في بيت مسلم! جدتها كاثوليكية وأنت مسيحية ولو أنك لا تمارسي الدين لا بد أن تعودى للدين في يوم من الأيام، وزوجك سوف يجبر ابنته على ممارسة هذا الدين الغريب، وسيحبسها بالبيت!

أجابت «كريستين»: هذا غير صحيح و«محمود» كما قلت لك ليس متعصباً أو ضيق الفكر، وأنا شرحت لك هذا من قبل، هو إنسانٌ منفتحٌ ولا يفرض رأيه على أحد أبداً.

قاطعتها «كيم»: هو فقط يتظاهر باللطف والتحضر، لأنه مغرم بك وبجمالك، ولكن صدقيني عندما تكبر هذه الطفلة سيجبرها على ارتداء الثوب الإسلامي الأسود من رأسها إلى أسفل قدميها، وسيمنعها من أن تصادق أحداً، وستصبح حياتها جحيماً، فهل تقبلين بهذا الجنون؟!

اسمعي ولا تكوني غبية وتدعيها تعيش مع رجل يحمل تقاليد غريبة، وجاء من مجتمع يعتبر فيه المرأة أداة تفريخ فقط! أرجوك أن تتصرفي قبل فوات الأوان. اطلبي الانفصال عنه وارجعي لجامعتك وأكملي علمك، وأنا سأتقاعد وأتولى العناية بها، وسأكون سعيدة بذلك، ويجب ألا تنسي ربما يحنُّ لبلده ويعود إليها وسيجبرك للذهاب معه أنت وهذه الطفلة للعيش فيها! فما هو موقفك؟ هل بإمكانك أن تتركي بلدك التي نشأت بها وأن تعيشي ببلد بعيد كل البعد عن حضارتك؟ ولن أسمح بذلك أن يحدث أبداً طالما أنا على قيد الحياة، لا يمكن أن أتصور حفيدتي تعيش في تلك البلاد، ولو أنت مصممة على البقاء مع ذلك البدوي يجب أن تنازلي عن هذه الطفلة التي لا ذنب لها لكي تعيش مأساة «مرجانة» التي حصلت أمام أعيننا، وأنا سأرعاها وأربيها أفضل تربية، وستعتنق الديانة المسيحية الحقيقية مثل جدتها.

حاولت «كريستين» أن تتمالك أعصابها بشيء من الصبر، وأخبرت والدتها بأنها تحب «محمود» ولن تتخلى عنه أبداً فهو والد ابنتها الآن، وقررت عدم إخبار زوجها بشيء مما قالت والدتها، لكي لا يحزن.

ولكن «كيم» لم تقطع الأمل وغمغت لنفسها: «سأحاول أن انتزع حفيدتي من هنا مهما كلف الأمر، لن أتنازل عنها لهذا الشاب الذي جاء لهذا البلد ليأخذ ابنتي مني ويجعل حياة حفيدتي بائسة».

وبعد مضي أقل من أسبوع اتصلت بالكنيسة من أجل إحضار ليلي لتعمدها واشترت لها ثوباً أبيض ناصعاً وقبعة صغيرة بيضاء، فقد جاءت لعند ابنتها مرة ثانية وشربت القهوة معها وتظاهرت بالهدوء والرضا بالأمر الواقع، ثم استغلت غياب ابنتها وخطفت ليلي وذهبت بها بسيارتها، وعندما عادت «كريستين» إلى الغرفة ولم تجد ابنتها، ركضت حافية القدمين إلى خارج المنزل.

كان «محمود» عائداً فطمأنها وقال لقد أرسلت لي رسالة أنا شخصياً لتخبرني بأنها أخذت ليلي لتعمدها في الكنيسة التي تتعبد بها، ثم أردف يقول: أنا لن أتشاجر معها فهي بالنهاية والدتك وجدة ابنتي، سأدعها تفعل ما تشاء، فأنا ابنتي مسلمة حتى لو تعمّدت بكنائس العالم كلها، وأنا لن أقبل أبداً أن تكون

ابنتي مسيحية! ففي البلاد الطفل يتبع دين والده، هكذا تريننا وهكذا ننشئ أولادنا.

صمتت «كريستين»، ثم قالت: هذا ليس وقت المجادلة! ما الذي دهاك يا «محمود»؟ لأول مرة أراك هكذا، وكأنني غريبة أمامك وليس لي رأي بما يحصل هنا. اذهب واحضر لي ابنتي أرجوك. أريد أن أضعها، فالحليب يخرج من ثديي وستحدث فيما بعد عن هذه التفاصيل، وأنت تعلم أنني لا أحب الأديان كلها وهي بنظري سبب شقاء الإنسانية، والحروب في هذا العالم المترنح، ويجب أن تعلم أنا لا يهمني أي دين ابنتي ستعتق! أنا لن أدعوها إلى أي دين، فقط أريدها أن تكتشفه بنفسها.

أجاب «محمود» بغضب وعصبية واضحة: ولكن يا «كريستين» أنا يهمني جداً أي دين ابنتي ستعتق، ولن أدعوها تصبح نصرانية.

سألته «كريستين» باستغراب: وما الغلط بالدين المسيحي يا «محمود» أليست رسالة الأديان الثلاثة واحدة وجميعها تدعو للفضيلة أم أنك لا تؤمن إلا بالإسلام؟!

ردّ «محمود» بشيء من العصبية، كل الأديان يا حبيبتي جيدة وأنا لست ضدّ أي دين، أرجو أن تفهميني، ولكن ألا تظنين أن ما

فعلته أمك خطأ كبير؟! (أضاف محمود)، تخطف طفلة رضيعة من صدر أمها لتعمدها؟ أليس هذا إرهاباً؟!

استطردت «كريستين»: أرجوك لا تقل عن أمي إرهابية، كل مافي الأمر أنها فقدت صديقتها المقربة منها في تفجيرات الحادي عشر من أيلول ومن يومها، هي تكره المسلمين ومتحاملة عليهم.

ردّ «محمود» بغضب: الله أكبر، تكره كل المسلمين من أجل حفنة من البشر؟ قاموا بارتكاب تلك الجريمة!

يا حبيتي الإرهاب موجود في كل بلد وكل دين وعند كل الشعوب، وأنتِ كأميركية مثقفة تعرفين هذا جيداً، أرجو أن تتذكري ليس العرب من رمى القنبلة الذرية على اليابان وتسبب بقتل مئات الآلاف في هيروشيما وما زال الكثير يعاني من تلك الآثار! ولا تنسي أن العراق مات فيها الملايين بين قتل وتشرد وإبادة حضارة وعلماء! وليس العرب من ارتكب المحرقة اليهودية بل النازيون، هذا غيظ من فيض، وأنتم تضعون إرهاب العالم كله بالعرب، صحيح أنا لا أحمل سوى الثانوية كمؤهل علمي ولكنني قمت بدراسة كل التواريخ قبل أن آتي إلى هنا لكي أدافع عن تاريخي ومعتقداتي.

هتفت «كريستين»: «محمود»، كل الذي تقوله صحيح ولكنني متعبة الآن، أحضر لي ابنتي وسنحل بعدها كل العقبات، أنا أحبك وأنت تحبني بالرغم من كل شيء حصل في هذه الحياة من ألم، لأجل طفلتنا ليلي، هي ثمرة حبنا، ويجب أن ندعها تختار الدين الذي تريد اعتناقه.

حضر «محمود» «كريستين» وقال: أرجوك أن لا تصدقي كل مايقوله الآخرون عن العرب والإسلام، كوني عادلة في هذه الحياة التي تحوّل فيها معظم الناس إلى وحوش مفترسة، وأنا أحبك إلى الأبد.



أعادت «كيم» والدّة «كريستين» ليلي إلى أمها بعد أن عمدتها بالكنيسة، حيث كانت «كريستين» قلقة على رضيعتها، حضنتها وهمست بأذنها: آه يا ليلي كم أنت صغيرة لتكوني ضحية لصراع الأديان، أريدك أن تكوني مثلي تحمّلين قلباً نقيّاً، مليئاً بالحب يتقبل كل الناس بالرغم من اختلاف ألوانهم ودينهم، كوني كما تكوني، وأنا سأظلّ أحبك كثيراً أيتها الطفلة الوديدة.

حمل «محمود» طفله وكبّر بأذنها من جديد وقرأ فوق رأسها آية الكرسي والمعوذتين، ثم التفت لزوجته قائلاً: أنت تعلمين يا

«كريستين» كم أحبك وأحب ليلي أكثر من نفسي، وأنا منذ البدء،
 وحين ارتبطنا لم أفرض عليكِ كما يفعل الكثير من الشباب المسلم
 مع زوجاتهم اعتناق ديني، لأنني أوقن تمامًا بأن الدين لا يُفرض
 على البشر بالقوة، وأن الإيمان ينبع من النفس ويكون برضاها، ولكن
 كنتُ واضحًا أيضًا بأنه لو صار لدينا أولادٌ سيكونون مسلمين مثلي.

أجابت «كريستين»: نعم أعلم ذلك جيدًا ولا مانع لدي أن تعلمها
 دين الإسلام الصحيح الذي يقوم على المحبة والسلام، وأبعدها
 عن الكره والتعصب، وهذا سيبقينا عائلة مترابطة يسودها التفاهم
 والإخلاص.

هتف «محمود»: حسنًا سألقنها الدين الصحيح وأقوم بواجبي
 كأب مسلم، وعندما تكبر وتصبح بسن تسمح لها بالاختيار
 سأدعها تختار الدين الذي يضيء قلبها بنوره.

أتلج كلام «محمود» قلب «كريستين» وجعل خوفها يتلاشى
 وعرفت أنه سيكون زوجًا وأبًا متفهمًا لأسرته، وهي لن تتخلى
 عنه مهما حصل.

احتضنت «كريستين» «محمود» وقالت: أنا لن أدع أي شيء يفرقنا
 سوى الموت.



بدأت «كيم» والدّة «كريستين» بإقناع ابنتها للعودة إلى الجامعة، لترعى حفيدتها (ليلى) وتكحل عينها برؤيتها كل يوم، فقد كانت الجدة تريد أن تتقاعد وتتفرغ لتربيتها، ولكن «كريستين» لم تجبّد ترك رضيعتها حتى تكمل عامها الأول، لذا بدأت الجدة بإيجاد طريقة ثانية لتأخذ الطفلة من أمها بالرغم من التفاهم والحب الذي رآته بين «كريستين» و«محمود»، وقد كانت مستعدة لدفع ثروتها كلها من أجل أن تربح هذه القضية، فالأم تعتبر زواج ابنتها من ذلك الشاب العربي غير متكافئ ويجب أن ينتهي بسرعة.

ففي أحد الأيام ذهبت «كيم» إلى المحامي وقالت له: أرجوك ياسيدي ساعدني لأخلص حفيدتي من ذلك البيت العربي الذي يمارس فيه الدين الغريب، فزوج ابنتي يعتنق الديانة التي تعتبر الأثنى مخلوقاً ذليلاً ليست له قيمة أو حقوق، وأنا أخاف على حفيدتي من اعتناق تلك الأفكار وأخاف أن يجبرها والدها على اللباس الغريب وأن يسجنها في المنزل للحفاظ على عذريتها.

أنت يا سيدي: رجل قانون وتستطيع أن تنقذها قبل فوات الأوان.

المحامي: ولكن الأمر يا سيدتي ليس بهذه السهولة، لأن ابتك إنسانة متزنة وليس هناك ضدها أي قضية، فهي ليست مدمنة كحول أومخدرات، أو هي مثلاً تسيء معاملة طفلتها، وهي بكامل قواها العقلية والجسدية، تحت هذه الظروف فقط لك الحق بضمها إليك.

ولكن يا سيدي والدها جاء من بلد الحرب سوريا ولا أدري لماذا جاء إلى هنا! ما الذي يضمن أنه ليس من «داعش» أو من أي فرقة إرهابية ثانية؟!

المحامي: لا يمكننا أن نلصق التهم بالأشخاص هكذا لمجرد أن لهم ديناً مختلفاً، فهو يعمل، كما أسلفت وليس له أي سابقة تمنعه من أن يربي ابنته.

ولكنني يا سيدي أخاف من المستقبل ومن الذي سيحصل، ألم تسمع بقصة الراقصة المسلمة التي كانت ستقتل على يد والدها؛ لأنها عملت كراقصة في الحانة؟! وأخيها المثلي الذي طعنه والده بالحنة؟ هذه القصة تخبرك ما مدى خطورة وتعصب هذا الدين! فهو يدعو لقتل الأنثى لو فكرت بحريتها قليلاً، ويدعو لأشياء أخرى غريبة، لن يكفي الوقت لأشرحها، ماذا تريدني، أن أنتظر وأرى حفيدتي تكبر ليسجنها والدها بقوانينه التي تدعو لحجب المرأة ومنعها من ممارسة الحياة الطبيعية؟!

فمثلاً إن تحدثت مع شاب قد يقتلها لو فعلت ذلك!

ردّ المحامي بحزم: اسمعي يا سيدتي لن أستطيع أن أبني قضية على افتراضات ممكن أن تحصل بعد سنين من الآن، حفيدتك لا تزال رضيعة، ولا يوجد هناك شيء بإمكانني أن أعمله الآن ونصيحتي لك دعي ابنتك وشأنها فهي حرة بحياتها مادامت لم تؤذ أحداً. أمريكا بلد الحرية والاختيار وتعطي لكل فرد حقه ليمارسه، أرجو أن تضعي هذا بعين الاعتبار، ولا يمكن أن نقف بوجه أحد لا اعتناقه أي دين، وهناك من لا دين له، هذه البلد تحتوي كل الجنسيات والأديان ونحن كرجال قانون نحترمهم جميعاً ولا نقف ضد أحد منهم، وليس لدينا أي حق لناخذ طفلة من والديها لأنّ أحدهما يمارس ديناً معيناً، وربما عندما تكبر تختار الدين الذي يناسبها، فهي تعيش في بلاد العم سام (بلد الحريات).

سكتت «كيم» واستسلمت للواقع وأيقنت أنه من الصعب تحقيق ما تصبو إليه، وأنّ ابنتها وزوجها هما الراعيان الحقيقيان لحفيدتها (ليلي)، ولذا ليس بإمكانها فعل أي شيء سوى أن تقبل بذلك الوضع وتذهب لزيارتها فقط عندما تشعر بالشوق لها.

«البعض لا يتحملون وجهات النظر المختلفة التي تتناقض مع تلك التي يؤمنون بها، فيعيشون في حرب لا تنتهي في هذا الكون». (إيرل ليان).



بدأت «كريستين» تطمئن لأنَّ أمها فشلت في كسب حضانة الطفلة وبأنَّها هي الحاضنة القانونية لها، وأخذت تنتظر لتكمل عامها الأول لكي تعود للدراسة من جديد.

أما «محمود» فقد كان مهمومًا بسبب سوء الأوضاع في بلده، فالحرب لا تزال تستعر وضحايا الحرب بازدياد كل يوم، كما أنَّ والده المريض زادت حالته الصحية سوءًا، وقد أصبحت لديه أسرة تتطلب منه المال والوقت والرعاية، ففي إحدى الأمسيات بعد أن صنع عددًا من أصناف النبيذ في الحانة أخذ كأسًا واحتساها، فقد كان شديد التوتر يفكر بأشياء كثيرة ولا يعرف ماذا يفعل؟

عاد إلى البيت متعبًا واثملاً فعرفت «كريستين» أنَّه شرب الكحول وقاد سيارته بتلك الحالة فغضبت منه كثيرًا وعاتبته على إهماله لنفسه قائلة:

لماذا تفعل هذا الخطأ الفادح يا «محمود»؟ ماذا لو أوقفك رجلٌ من رجال الشرطة وأنت بهذه الحالة؟ ماذا لو منعك من القيادة لو صدمت إنسانًا بريئًا بمركبتك؟ هل فكرت ماذا سيحصل لي أنا وليلي؟ أنت تغيرت كثيرًا يا «محمود»، ولم تعد ذلك الإنسان التقوي الذي قابلته منذ أكثر من سنة!

أطرق «محمود» برأسه وشعر بالخجل والندم، وحاول أن يشرح لها الضغط الذي يغتاله كل يوم وانشغاله على أسرته في الوطن، وخوفه من أن يصبح يَومٍ من الأيام بلا عمل!

وضميره الذي مازال صاحياً وما زال يؤنبه بين الفينة والفينة لأنه عاد ليعمل في حانة الهايد بارك، ولكن «كريستين» لم تجد له عذراً بالرغم من شعورها بالتعاطف معه! وقد همست بأذنه قبل أن تذهب: هناك أخطاء قد نحسبها بسيطة ونقتربها أحياناً، ولكن قد تكون لها عواقب جسيمة تغير مسيرة حياتنا كلها، فلو قتلت إنساناً بريئاً لأي سبب من الأسباب ستعيش حياتك كلها تحت مظلة الندم، ثم أخذت ليلي وذهبت لمنزل والدتها، فقد كانت تريد أن تجعله يشعر بحجم الخطأ الذي ارتكبه دون أن يفكر بعواقبه.

سألته والدتها عند قدومها على الفور: ماذا فعل معكِ راكب الجمل؟!

لقد كنت متأكدة بأنك ستعودين إلى هنا في يوم من الأيام، ولن تتحملي السجن الذي وضعكِ فيه ذلك العربي أكثر من فترة قصيرة!

كريستين: «محمود» بخير ولم يفعل شيئاً، أنا أتيت هنا لأنني اشتقتُ لكِ ولغرفتي. أريد أن ارتاح يومين وبعدها سأعود لبيتني، فلا تقلقي يا أمي.

جاء «محمود» لبيت «كيم» بعد أيام وانتظر لتهدأ «كريستين» من غضبها واعتذر منها، ووعدا بأنه لن يعود لشرب الكحول، هو يعلم جيداً كم هي تحبه ومتعلقة به، أما هو فلم يعد يطيق غيابها أكثر من ذلك، ووجه ليلي الصغيرة لا يفارقه أينما ذهب، فهي الأمل الجميل الذي يحيا لأجله الآن!

قال لها: «كريستين» أرجو أن تتقي بي هذه المرة، فأنا نادماً بالفعل على كل ما فعلت من أخطاء، ولكن يا حبيبتني أنا بشرٌ بالنهاية، ولست قديساً! وأعترف بأنني أخطأت بلحظة ضعف، وندمت، ومَن منا بلا أخطاء؟! أرجو أن تعودي معي للمنزل، فهو دونك صحراء مقفرة، ولقد مرت علي تلك الأيام كأنها دهرٌ طويلٌ لا يريد أن ينتهي، اشتقت لكِ ولابتك ليلي.

ابتسمت «كريستين»: «وأنا لا أقوى على فراقك أيضاً، أنت الأمل الذي أعيش لأجله»!

احتضنته وبكت على كتفه، وقالت إنها اشتاقت له كثيراً وهي لا تستطيع البعد عنه أبداً، كان «محمود» بحاجة لها، فهي الوطن

الذي يلجأ إليه كلما هزمت الحياة أو كلما شعر بالشوق لمدينته
المنكوبة، حمل ابنته الصغيرة وحقيبة «كريستين» وعاد للبيت،
وكانه خُلق من جديد.

وجدت «كريستين» باقة من الورد تنتظرها ورسالة تحمل بضعة
كلمات «،، أحبك للأبد».

الفصل الثامن

مرجانة بعد رحيل سام

منذ أن رحل «سام» عن الدنيا أصبحت أخته «مرجانة» تتشح بالسواد في معظم الأحيان ويحيط قاتمها غلالة رمادية، والحزن خطف بريق جمالها، وجعلها تهوي إلى وادي اليأس، كانت تعيش حالة شعور بالذنب وكأنها هي التي كانت السبب في الذي حصل مؤخراً في الحانة، كانت تشعر بالهشاشة والضعف من الداخل، وكأنها إناء مكسور، ولكنها كانت تتظاهر بالقوة أمام أمها وأخيها الصغير لأنها أصبحت المعيل الوحيد لهما، بعد وفاة أخيها الأكبر وانتهاء والدها بالسجن.

البيت الذي تقيم به معهما كان قد كساه غبار الفقر، فكل شيء فيه قديم، ولا يوجد أي جهاز ترفيهي في البيت سوى تلفاز قديم لا يعمل أحياناً، لأنَّ والدها كان يعتقد بأنَّ ذلك يجلب الشيطان والذنوب، وكانوا يستمعون أحياناً إلى الأخبار من الحاسوب القديم الذي يستعين به أخوها من أجل الواجبات، ويشاهد الولد الصغير الأفلام الكرتونية فقط.

وكانت «مرجانة» قد وعدت أمها بأن تعوضها عن كل الأسى الذي عاشته خلال السنين الماضية.

غرفتها التي تنام فيها كأنها تركتها بالأمس، سريرها الصغير ومرآتها المشروخة وكرسيها المتهالك والطاولة الخشبية المتشققة عليها دفتر مذكراتها، فتحته لترى صورة الماضي الباهتة التي ما زال طيفها يظهر في مرايا ذاكرتها أحياناً.

كانت قد كتبت فيه: أنا «مرجانة»، خُلقت في بلد الحريات، كما يدعونها بلاد العم سام، ولكن وجدت نفسي في قفص له قضبان حديدية، أعيش في داخله كفأر ليرمى إلي الطعام من خلاله، من الصعب أن أجد في شريط ذاكرتي أي صورة جميلة عشتها مع أسرتي - في بيتٍ كان سجانه أبي. كانت طفولتي بائسة جداً لأن كل شيء كان حراماً، عيباً أو ممنوعاً.



عندما كنت في المدرسة الابتدائية كنت أخجل من أصدقائي لأنّ ملابسي قديمة، فوالدي لا يشتري لي الملابس الجديدة إلا يوم العيد، ولا أستطيع أن أشتري طعاماً من المدرسة في وقت الغداء لأنّ ذلك كان إسرافاً كما يعتقد، كان والدي رجلاً قاسياً، صعب الطباع، ليس

له أصدقاء إلا بعض الرجال الذين يتحدث إليهم في المسجد، فكنا لا نزور أحداً ولا أحد يزورنا، ولم يكن لدينا أقارب في المدينة التي نساكن بها بأمريكا، وعندما بدأت سنَّ المراهقة كان الطلاب يدعوني بـ«الفاكهة المحرمة» لأنني لا أستطيع الكلام مع أحد منهم، ولا أحد يستطيع أن يلمس يدي مثلاً أو يتحدث إليّ، ولم يكن بإمكانني الذهاب معهم إلى أي رحلة مدرسية، سواء كانت تعليمية كزيارة المتاحف، أو ترفيهية كزيارة الديزني لاند التي كنت أراها بالحلم فقط، وكنت في أغلب الأحيان سجينَة غرفتي، لا أستطيع زيارة صديقاتي أو أن أدعوهن لزيارتي أيضاً، وكان ذلك يشعرني بالوحدة والألم، كان أخي عبد السلام في ذلك الوقت صديقي الوحيد، وعندما بلغت السابعة عشرة من عمري، أصبحت فتاةً جميلة، شعري أسود طويل، وبشرتي تميل إلى السمرة، لي قامة لا بأس بها، وجسد نحيل، لا أدري كيف غادرت طفولتي ودخلت إلى مرحلة الشباب وأنا أحمل هموم الأرض ووجع القلب والذاكرة.

يطاردني سؤال واحد كل يوم:

إلى أين أنتِ ذاهبة؟

فالخروج من البيت لسبب غير شرعي حرامٌ ولا يسمح به البيت الذي أعيش فيه، أراد أبي أن يزوّجني إلى شاب يتردد إلى المسجد

كان من بلد عربي وقد جاء إلى أمريكا مع أهله منذ زمن بعيد، كان والده يعمل في المسجد ويؤم المصلين أحياناً في أيام الجمعة، ويلقي الخطبة على الناس، أخبرتني أمي بموضوع الشاب الذي يريد خطبتي، فصدمت بالخبر عندما علمت وأيقنت أن والدي يخطط لزواجي ولا يهتم إن أكملت تعليمي.

كان يقول لأمي بصوت منخفض: «إن لم أزوج هذه البنت بسرعة ستضيع في هذا البلد العفنة، هذه بلاد الكفر لا يعرف أهلها ديناً ولا شرفاً، فلتكتفي بهذا القدر من العلم، ومصيرها بالنهاية لبيت زوجها جهزها للزواج قبل أن تجلب لنا العار! البنات ليس وراءهن إلا المصائب والفصائح وجلب العار لآبائهن».

حزنت جداً بسماع هذا الخبر، فكيف أتزوج في هذه السن وهذه الظروف وأنا ما زلت لم أكمل دراستي الثانوية، ولا أفكر بهذا الموضوع أبداً. كان والدي يريد أن يجعلني أرثدي ثوب التقوى والطهارة فجعلني أرثدي ثوب الحزن والهروب، وأنا التي كنت أبحث عن ثوب الحرية الذي لم أرثديه يوماً في حياتي، جاء الشاب في إحدى الأمسيات لزيارة منزلنا هو ووالدته لقراءة الفاتحة، ولم أتمكن من النظر إلى ملامح وجهه ولم أتحدث معه، لأن والدي كان يمنع هذا ويتهمني بعدم الأخلاق وقلة الأدب، كما أنه لم ينظر

إلي سوى نظرة خاطفة، ولم تتح له الفرصة بأن يتحدث معي ولا حتى كلمة واحدة، وبعد أن تمت الخطوبة، أمرني والدي أن أبقى بالبيت وامتنع عن الذهاب إلى المدرسة لأنني أصبحت على ذمة ذلك الشاب كما يعتقد، ولا يحل لأحد أن يراني، حسب الشريعة التي يؤمن بها، في تلك الفترة كنت أتعس فتاة على وجه الأرض، ووقتها كنت قد امتلأت بالغضب والحزن والرغبة بالتححرر من قيودي التي تدمي يدي وبدأت أرسم خارطة لحريتي من ذلك السجن الذي أعيش به، لأنني لم أعد أحتمل تلك السلاسل التي تخنقني كل يوم، ولم أتحمّل فكرة الزواج من ذلك الشاب الذي سيُصبح زوجي بعد أيام وأنا لم أتحدث معه كلمة واحدة، ولم ترتاح له روعي أو يلهم له قلبي، كان الموت عندي أهون من أن أقبل هذا الموضوع أو أن أتحوّل لسلعةٍ تُباع وتُشترى لأي إنسان على الأرض.

وقد أيقنت أنني أواجه عادات وتقاليد قديمة مازال الناس يتداولونها وكأنها وُضعت لترضي شخصية الرجل المتسلط وكان أولهم أبي، وكثيراً من الرجال الذين يسيطرون على حياة الإناث، فكنت كلما كبرت عاماً وراء عام، أواجه كارثة تلو الكارثة، لمجرد أنني أنثى شرقية قد ورثت تلك العادات والتقاليد غصباً عنها، فقد كانت يد القدر هي التي اختارت اسمي، وديني، وتاريخ ميلادي

وأبي، وأشياء أخرى لم أكن راضية عنها، كنت أتمنى في كثير من الأيام أن أتحوّل إلى مسخ كما تحوّل أحد أبطال رواية «كافكا» التي قرأت عنها في المدرسة الثانوية وأعجبت بها كثيراً لأهرب من واقعي الأليم، ففي إحدى الليالي، حاولت الاتصال بإحدى صديقاتي، حيث شرحت لها ما حدث معي وطلبت مساعدتها لأنني أردت أن أترك المنزل، وأبقى عندها مؤقتاً ريثما أجد عملاً أعيش منه، فرحبت بالفكرة، واستغربت من الطريقة التي يعاملني بها والدي، فهي تحسب أن هذه التقاليد القديمة قد ولّى عهدها ولم يعد يعمل بها أحداً.

وعندما خرج والدي إلى المسجد كالمعتاد، كنت يومها قد صممت على الرحيل، فجمعت حاجياتي وذهبت إلى صديقتي، التي كانت تعيش في شقة صغيرة مع أمها، وقد روت قصتي لها فحزنت لأجلي وقررت مساعدتي، في ذلك اليوم فقط شعرت بأنني طير صغير قد نبت له ريشٌ جديدٌ وبدأ يمارس الطيران ويرتفع إلى السماء قليلاً قليلاً، ليكتشف الفضاء.

هربت لأبحث عن ذاتي، لأحقق أحلامي، لألمس شمس الحرية، وأستنشق هواءً لا يلوّثه غضبٌ، عنفٌ أو ديكتاتورية، أردت أن أكون فتاة لها حق بالحياة، بالعلم، باختيار الأصدقاء وباختيار

شريك حياتها، لم أستطع أن أعيش حياة فُرِضت علي لأكون وراء جدران لا أعرف ماذا يحصل خارجها من أحداث.

لم أرغب بتكرار مأساة أمي، التي عاشت عمرًا مفروضًا عليها، ويخيل إلي أحيانًا أنها باعت حياتها بثمن زهيد دون موافقتها، ودخلت سجنًا لم تعرف إلى الخروج منه طريقًا، فاستسلمت لحياتها وأحرقت شمعة أيامها ببطء، فقد أجبرها أهلها على الزواج من رجل لا تعرفه ولم تستطع أن تحبه في خلال السنوات التي عاشتها معه، فكانت تعيش معه بجسدها فقط، ولم تشعر يومًا من الأيام بأنها أنثى لها قيمة في هذا المجتمع، والذي كان يخيفني جدًّا أن أعيش تلك الحياة التي عاشتها، التي خلت من الحب وتبادل المشاعر الجميلة، وقد علمت منها أن أمر انفصالها منه كان مستحيلًا، فالطلاق كان شيئًا محرّمًا في تقاليد أسرتها، ولا يوجد من تلجأ إليه بعد الانفصال، والمجتمع الذي يحكم كل النساء الضعيفات من خلاله كان لديه التحكم بمصائر النساء وحياتهم، لذا يجب عليها أن ترضى بقسمتها ونصيبها، كما أقنعتها جدتي، فقد كانت تقول لها: «المرأة إذا تزوجت يجب أن تتحمل زوجها ولا تفكر إلا كيف تسعده ليرضا الله عنها ولتدخل الجنة»، لذا عاشت أمي مع رجل لا يربطها به سوى الأولاد، لم تكن تحمل له في قلبها أي ذرة حب، ولا عاطفة، كان بالنسبة لها

رجلاً يمول البيت ويلبي طلباته، وقد كان والدي إنساناً متجرداً من المشاعر والأحاسيس والرحمة، فقد كان يكيل لها السباب واللعنات في الصباح ويضاجعها في المساء، لم أحظَ منه أنا وإخوتي بأي ذرة حنان أو حُسن دافئ. كل الذي كان يهمه أن أبقى سجيناً المنزل حتى يحين وقت زفافي، كان يخاف أن أخرج أو أتحدث مع أحد، فيعذب بأفكاري، أو يجعلني أرفض الزواج، ولكن عندما خرجت من بيته كنت قد فقدت حبي له وكل شيء يمت له بصلة حتى الدين الذي يعتقه، كنت خارج ذلك البيت وفوق رأسي جبلٌ من التمرد والغضب، وبقلبي يجري نهرٌ من الأسى والحزن ليس له نهاية.

في البدء أشارت علي والدتي صديقتي أن أنهى المرحلة الثانوية لأتمكن من العمل، في أي متجرٍ كبائعة أو موظفة بسيطة في مطعم أو مقهى مثل «ستاربكس»، فقررت الذهاب إلى مدرسة بعيدة عن البيت خوفاً من أن يجدني والدي ويقتلني، وبعدها نجحت بتفوق، وحصلت على وثيقة الثانوية العامة، ووقتها لم أعد أخاف منه لأنني أحمل شهادة بيدي وإن وجدني لا يستطيع أن يجبرني أن أعيش معه، فعملت في أحد المتاجر كبائعة وأخذت قليلاً من الخبرة، وجمعت بعض المال لاستأجر غرفة لوحدي كي لا أكون عبئاً عليها.

كان والدي في تلك الفترة غاضباً جداً ويبحث عني في كل مكان ويريد قتلي ليغسل عاره؛ لأنني هربت من المنزل، حاولت أن أرسل خبراً لأمي بأنني بخير لكي لا تقلق علي، فقد كان من الخطر أن أذهب للمنزل لكي أراها، وشاءت الأقدار أن التقى بشاب يعمل بالجيش الأمريكي من أصول آسوية، أحبني وأحبته، ثم طلبني للزواج فقبلت، وكنت سعيدة جداً معه، إلى أن جاء يوم ورحل فيه إلى العراق ولم يعد، فقلبت تلك الحادثة حياتي رأساً على عقب، فبعد أن ابتسم لي الحظ فترة من الزمن كُشِّرت لي الحياة عن أنيابها، وبدأت الصراع معها من جديد.

منذ أيام، استيقظت مذعورة بعد حلم رأيته، حيث رأيت أخي «سام» يأكل تيناً شوكياً ثم يغص من الألم فيطلب مني كأساً من الماء، حاولت أن أعطيه إياه، ولكن وقعت الكأس من يدي وانكسرت، أما أنا فكنت حزينة عليه وأجمع ما تناثر من زجاج، ذهبت يومها إلى المستشفى، حيث كان مستلقياً منذ أيام على ظهره، وعلى يده معلق أنبوب رفيع لضخ الدواء، ولكنني لم أجده، خرجت أركض بسرعة لأسأل عنه الممرضة، فقالت إحداهن لقد تم نقله إلى العناية المشددة، وقد مُنع من الكلام والزيارات لتدهور حالته، فعدتُ إلى عملي وأنا مشغولة البال عليه، أفكر به وأشباح الخوف تطاردني وتهز كياني، رأي «زاك» فقال: لا تقلقي سأذهب غداً

لزيارته وإن شاء الله سيتحسن، وعندما عاد «ذاك» من المستشفى ذلك اليوم كان وجهه شاحباً جداً وقد اعتراه صمْتُ رهيبٌ وكأنه قد فقد النطق، ارتجف قلبي عندما رأيته، وأحسست بأنَّ شيئاً ما وقع من صدري ولن يعود، رددت بصوت ضعيف لنفسي، لا لا يمكن أن ينتهي الأمر هكذا ببساطة! لا تقل إنه رحل بغير عودة! ماذا ستفعل أُمي التي كانت بانتظار شفائه؟ ضمّني بلطف وربت على كتفي هامساً: البقية بحياتك.

تهاويت كما تتهاوى ورقة جافة في فصل الشتاء، وذرفت دمعاً عليه لم أذرفه بحياتي، سألت نفسي: أهكذا هو الموت يأتينا خلصة أم تلك عدالة السماء؟! لتخبرنا بأنَّ الموت كأس سيحتسي منها كل إنسان شربة هي الأولى والأخيرة!

وهكذا انتهى فصلٌ كاملٌ من حياتي ملئ بالأحداث الحزينة، وكأنني كنت قد امتطيت قطار الحزن دون أن اشتري تذكرة له، وترجلت منه بطريق الصدفة أيضاً، ولكنني عدت الآن من تلك الرحلة الشاقة ووضعت حقائبي في منزلي من جديد، حضنت أُمي بكل ما أحمل من عناء وتعب وهمٍّ، وأفرغت ما بجعبتي من ألم، وعندما شممت رائحتها من جديد وتأملت عينيها الصبورتين وابتسامتها الحزينة شعرت بأنني مازلت على قيد الحياة، رجعت

أركب زورق الأمل من جديد وأغلقت آخر صفحة من دفثري القديم، لأبدأ دفتر عمري الجديد من دون سجان يملئ علي ما يريد أن أفعله، فأنا الآن حرّة، لا أريد الارتباط بأحد في هذا الوقت الذي وجدت فيه نفسي التي كنت أبحث عنها.



لقد وصلت إلى قناعة، للأسف، في مجتمعنا العربي بأننا مازلنا نبحث عن الحرية والمساواة لنحقق أحلامنا المنشودة، أحلم مثلاً بأن أزور بلدًا جديدًا، أحتسي كوبًا من القهوة في أحد مقاهي الشانزليزيه في فرنسا، أنزل في فندق رخيص، آخذ القطار لأزور معالم مدينة جديدة بلا أسوار، لأطلع على الفنون والرسم والألوان، أمشي طويلاً فيها، بلا تعب دون أن يراقبني أحد أو يقتفي أثري، أخلع حذائي لأمشي حافية القدمين لألمس تراب الأرض، وإذا شعرت بالتعب أجلس تحت شجرة لأستريح، بعد تجربتي بالحياة أيقنت أنني لا يمكن أن أكون زوجة لرجل عربي متطرف ليضعني في قالب يليق به لكي أنفذ أوامره، وأكون عبدة له بلا نقاش، فالزواج إن كان قفصًا وسيحولني إلى سجين، أرفضه تمامًا وأفضل أن أبقى حرّة ووحيدة وبلا قيود.



«مرجانة» بعد مضي عامين على رحيل أخيها «سام»

لقد التحقت «مرجانة» بمعهد لتتابع تعليمها، واختارت أن تكون صحافية وكاتبة، فقد نذرت نفسها لكي تدافع عن حقوق المرأة، وتركت عملها في الحانة لتعمل بشكل جزئي في المكتبة العامة، وأخذت قرضاً من الجامعة التي تدرس فيها لتستطيع الإنفاق على أسرتها وعلى نفقات دراستها، وبدأت بنشر مقالات قصيرة في الجريدة اليومية في المدينة التي تقيم فيها، فقد كانت تحث المرأة المَعْتَفَة العربية خاصة، على التحرر والصمود ومتابعة العلم والدفاع عن حقوقها، لقد كان قلم «مرجانة» المشاكس يكتب بلا حدود فكأنها كانت تملك محبرة ومفاتيح الكون، بمداد قلمها الذي لا ينتهي لأن ريشتها مبللة بشغف الحياة وشمس الحرية وضياء النجوم، فهناك الكثير من يدمن على قراءتها ويتماهي في تفاصيل بوحها.

كتبت في أحد الأيام أول رسالة للمرأة:

أيتها الأثنى: يا شجرة الأرض وشمسها، مدّي جذورك وتثبي بطين الله المقدس، لا تخشي الرياح العاتية! كوني أنتِ الإعصار

وحطمي جدار العواصف! اخلعي ثوب الحزن والاضطهاد وأغلقي
 أبواب الخوف، افتحي نوافذ الحب، وارتي ثوب أنوثتك. أنتِ
 لست حُرمة ولا عارًا ولست سلعةً للبيع ولست كأسًا من النبيذ
 ليحتسيك ذئب الليل. اخرجي للشمس. ابني قلاعًا من الثلج
 وحطميها. صاحبي الفراشات وحلقي في السماء. لوني أحلامك
 بألوان قوس قزح. اعشقي وحبي وكوني مترفةً بالعشق، واكتبي
 عن قصص الحب والأحلام. ارقصي وغني، وضعي حمرة شفاه
 صارخة. تمردي على القوانين. انتهى عهد التابو وعهد الأسياد
 والعبيد، تعلمي أن تفتتي الصخر بأظفرك وانقشي على الحجر،
 ارتدي عباءة النسيان أحيانًا واكسري قيودك بلا تردد، واقفلي باب
 قلبك لا تفتحيه إلا للذي يستحقه، أنتِ نقطة مطر حرة أنتِ حواء
 ومعجزة السماء ورحم النور الذي أنجب كلمة الله وكل الأنبياء.

«مرجانة»

لقد ساعدت «مرجانة» أيضًا النساء المعنَّفات الأمريكيات وهنَّ
 كثيرات، فالعنف والظلم ليس له هوية أو دين، فهؤلاء النساء
 يقمن مع أطفالهن بعيدًا عن أزواجهن المخالفين للقانون ويقمن
 في أماكن آمنة لا يعرف طريقهن أحدٌ، إلا الأشخاص الذين
 يساعدون في ذلك المجال؛ وذلك لحمايتهن من الأذى، حيث

تقوم الجهات الأمنية بدراسة وافية عن أي شخص يعمل في هذا المجال ويجب أن يكون ملفه خاليًا من أي سابقة أو جنائية أو جنحة قانونية ليكون كفؤًا ليقوم بمساعدة هؤلاء النساء وأطفالهن.

كانت «مرجانة» سعيدة جدًا بعملها الجديد، فقد شعرت بأنها تقوم بعمل ينير روحها وقلبها ويشعرها بالفرح، فالعمل التطوعي مهم جدًا في بلاد العم سام، لأنه يفتح آفاقًا جديدة لها، ويشعر الإنسان بالفخر والاعتزاز.

الفصل التاسع

ليلى تبلغ عاماً

بدأ «محمود» يدخر بعض المال بعد أن عاد للحانة، فقد كان يتقاضى مبلغاً جيداً بعد مرور أكثر من سنة ونصف على العمل فيها، وتمكّن من إرسال تكاليف العملية الجراحية التي يحتاج إليها والده، كان المرض يشتد ويهدأ وقد استقرت حالة الأب المسنّ قليلاً مما جعل «محمود» يؤجل فكرة السفر إلى الوطن، ريثما يستطيع أن ينهي استكمال أوراق إقامته في أمريكا فيسهل عليه السفر والرجوع بلا عوائق، ولا سيما أنه تزوّج «كريستين» بالمحكمة وأصبحت أوراقه قانونية، مضت الأيام بسرعة وأكملت ابنته الوديدة (ليلى) عاماً كاملاً، كانت شمعة البيت وزهرته التي تنشر فيه العطر والحبور، وبدأت تخطو خطوات صغيرة وتتعرّش أحياناً وقد نبتت لها سنٌ صغيرة، تظهر عندما تبكي أو تبتسم، وكانت تفوه بكلمات ليست مفهومة تماماً.

اجتمع الجميع في بيت «محمود» و«كريستين»، للاحتفال بعيدها، وقد حملوا الهدايا المتنوعة والجميلة، كما جاء «زاك»

و«روزان» ومعهما إيفا ويعقوب، يركضان وراء ليلي بجو من المرح والسعادة، وقد ملؤوا المكان ضجةً وسرورًا، وقد قبل الجدُّ والجدّة، «دافيد» و«راشيل»، دعوة «كريستين» لهما وكانا سعيدين برؤية حفيديهما وقد كبرا قليلاً وأصبحا طفلين مشاغبين يمسكان كل شيء بأيديهما الصغيرة وأحياناً يرميانه على الأرض، فيضحك الجميع عليهما.

روزان: آه يا «زاك» ما أجمل رؤية هؤلاء الأشقياء الثلاثة وهم يركضون ولا يكثرثون لأي شيء بطريقهم، أتمنى لو عندي أربعة توائم وليس واحد فقط!

أجاب «زاك»: الأطفال ملائكة الله على الأرض، ومن تحت أقدامهم ينبت الفرح، دعيهم يفعلون ما يشاؤون، كم أنا محظوظٌ يا «روزان»! لا تعلمي مدى فرحي بهم! هم كل شيء جميل في حياتي.

سعادتي بهم أكثر من فرحتي باقتناء الملايين، فنظرة واحدة تكفيني لتعطيني جرعة سعادة لا تنتهي، الآن فقط عرفت كم الطفل غالٍ جدًّا على قلب والديه.

كانت «كريستين» ترحب بضيوفها وتقدم لهم المشروبات والقهوة، وكانت سعيدة بقدوم «روزان» وأهلها لأنها تريد أن

تُعرِّفهم على زوجها «محمود» وكم هي سعيدة معه، ثم جلس الجميع حول مائدة العشاء المتنوعة وقد كان هناك خليط جميل من الأطباق.. «راشيل» أحضرت الفطير و«كريستين» أعدت الكثير من المقبلات الشرقية التي تعلمتها من «محمود»، أما «كيم» فقد حضرت ديك الحبش والبطاطا المهروسة، وفطيرة القرع، لأنَّ عيد ليلي تزامن مع عيد الشكر في أمريكا، وقبل ابتداء الطعام بدأ كل شخص بدعائه الديني الذي يحفظه وارتفعت الأيادي إلى السماء، وقال كل واحد دعاءه بصوت مسموع بعض الشيء، كانت الصلوات تصعد على غيمة من الحب، أفراد من جنسيات وديانات مختلفة في بلاد العم «سام» جمعتهم الظروف فأصبحت بينهم مودة ورحمة وبذور المحبة أينعت، فوُلد أطفال رائعون لا يعرفون سوى الفرح والابتسامة ولم تشوه قلوبهم البغضاء واختلاف الثقافات والمفاهيم.

محمود: بسم الله الرحمن الرحيم، وبدأ يأكل الطعام بيده اليمنى.

اتجهت إليه العيون، أما «كريستين» فابتسمت، كانت تجلس بجانبه وقد وضعت ليلي بحجرها، وضع لها «محمود» الطعام في صحنها، وأخذ يدعو الجميع لتناول الأطباق الشهية.

«كيم» قالت دعاءها: «يا رب نشكرك من أجل هذا الطعام، طالبين بركتك عليه، وكما أنعمت به علينا أنعم به على كل جائع ومحتاج ولك المجد الدائم».

و«راشيل» رددت بعض الكلمات، قائلة: «مبارك أنت إلهي ملكُ العالم أعطيتنا بركة الطعام».

أما الجد «دافيد» فقال دعاءً طويلاً جداً، كان قد أغمض عينيه ووضع كفيه على صدره وقد طلب من الله الأمن والسلام لكل البلاد في هذا العالم، وردد الجميع بعده بكلمة «آمين».

كانت «كيم» معجبة بشخصية «زاك» جداً، حيث شعرت بأنه متحررٌ ولا يردد أي دعاء ولا يمارس أي نوع من الطقوس الإسلامية، وكأنّها كانت تتمنى لو أن «محمود» كان مثله.

كان «زاك» يمزح مع الجميع ويلقي النكات ويضحك، ويحمل ليلى ويلاعبها قائلاً:

أيتها الدمية الجميلة: أنت ابنة صديقي الحميم، وأنا «زاك» النادل الوفي للنبيذ، كانت ليلى تحاول أن تقول اسمه، وكان يُصرُّ أن يعلم ليلى نطق «زاك» فتتلعثم فيضحك عليها الجميع.

قالت «روزان» ووجهها يشع بالفرح: «حول هذه الطاولة يجلس أفراد من جنسيات مختلفة وأديان مختلفة ومع ذلك يشعرون بالحب والانتماء والسعادة، ويجمعهم الحب والقرابة والصداقة»، ثم التفتت لوالدها وقالت ما رأيك أيها الرجل الحكيم.. هل ترى أن هناك أملاً لهذا العالم المتنازع بأن يهدأ ويحب بعضه البعض ويجلس الجميع هكذا دون نزاع كما نجلس نحن اليوم؟ ما أجمل أن يسود السلام والأمن بالعالم، سينعم البشر بالسعادة والفرح، والأهم سيعيش الأطفال حياتهم بلا بؤس ولا شقاء، فكم يؤلمني الآن منظر المشرّدين والمهجرّين من بلادهم في سوريا الآن؟

لقد رأيت الكثير من اللاجئين السوريين، هنا في هذه المدينة وقد جاؤوا إلى هنا بعد أن فقدوا كل شيء، والمشكل الآن أن المساعدات التي تقدّمها الحكومة ليست كافية، فهم يحتاجون إلى مزيد. سألت «روزان»: لماذا؟ وأين سيذهب كل هذا العدد الكبير الذي خسر كل ما يملك في الحرب؟

راشيل: دعيني أشرح وجهة نظري يا ابنتي ولا تتسرعي بفهم الفكرة المطروحة، الذي قصده أنا، أن بعض اللاجئين الذين جاؤوا إلى هنا لا يتحدثون اللغة الإنجليزية وليس لديهم أي مؤهل علمي أو شهادات عالية للعمل والحصول على المال، وهذه البلاد

غالية جداً، ولذا هؤلاء الناس سيكونون عبئاً كبيراً على الحكومة والشعب، ومع ذلك المنظمات الإنسانية لم تقصّر في حقهم، فقد علمتُ من صديقة لي تعمل في كاليفورنيا، أنَّ المنظمة اليهودية قد ساعدت الكثير من اللاجئين السوريين ووزّعت عليهم الملابس وحاجيات الأطفال والألعاب، ومازالت تساعد الكثيرين من القادمين الجدد، كم أشعر بالحزن على هؤلاء الأطفال المشرّدين الذين لا ذنب لهم سوى أنَّهم خُلِقوا في زمن صعب، نحن اليهود نشعر بمعاناة الآخرين لأننا تعرّضنا للاضطهاد النازي بجميع أشكاله من تجويع وإبادة وقتل بالغاز، ثم كانت الجثث تقاد إلى المحارق لحرقها، ففي أثناء الحرب العالمية الثانية شيدت ألمانيا النازية معسكرات الإبادة وقامت بإعدامهم بالغاز أو إرهابهم بالأعمال الشاقة واتباع أساليب التجويع للسجناء وكان هناك العديد من الضحايا من الأجناس والأعراق، ولكن اليهود كانوا أكثر الأجناس استهدافاً، عندما بدأت عمليات الإبادة الجماعية، وكانت تدعى بالهولوكوست.

هتفت «روزان»: آه يا أمي قصة المحرقة اليهودية تمزق قلبي، كم أتمنى أن لا يعيد الزمن مثل تلك المجازر الإنسانية، وكم أتمنى أن يستقر أمر اللاجئين وأن ينالوا المساعدات الكافية من المنظمات الإنسانية، وعندما تتحسن الأوضاع الأمنية ربما يعودون إلى

بلادهم، فأنا متأكدة من أنَّهم لن يجدوا أفضل منها وسيشعرون بالشوق إليها دائماً، سيكون الأمر صعباً في البدء لأنَّهم على أرض لها عادات ودين مختلف (أضافت راشيل).

تنهدت «روزان» وقالت: بصوت لا يخلو من الحزن، سيحتاجون وقتاً طويلاً للاندماج في هذا المجتمع والتعود على نظامه، وقد يواجهون صعوبات بتربية أبنائهم. إذا كان الآباء محافظين ولا يحبون التحرر، فلن يسمحوا لهم بالانصهار في هذه الحضارة، ألم يكن من الأفضل تسوية هذه النزاعات دون سفك كل هذه الدماء؟!

التفت «راشيل» بسرعة واستطردت بسخرية: طبعاً هذا مستحيل يا «روزان»! فهناك مَنْ يكره بعض الناس بلا سبب! وهناك مَنْ يكره السلام ويصرُّ على القتل والأذى! وهناك مَنْ يحب سفك دماء الأبرياء، حتى بالحجارة!

نظر «محمود» إليها وغمغم بصوت منخفض لـ «زاك»: باللغة العربية: الله يكون بعونك يا «زاك» على هذه الحمى.. ما هذا يا أخي؟ كتلة كرة متقلبة؟ أظنُّ أنها تقصد الفلسطينيين! والله مسكين هذا الشعب كم عانى من ظلم اليهود وطغاتهم!

ثم أردف «محمود» بصوت منخفض «قاعدة بحضننا وعم تنتف بدقننا» منذ قليل كانت متعاطفة معنا وفجأة انقلبت علينا. كنت حابب أذكرها بأن اليهود أيضاً احتلوا فلسطين وقاموا باضطهاد الفلسطينيين وهدموا بيوتهم وقاموا بالاستيلاء على أراضيهم وحرق أشجار الزيتون ومهاجمة الأقصى، وارتكبوا بحقنا الكثير من المجازر التي قد لا يتسع الوقت لسردها الآن، ولكن لا أريد قلب هذه الجلسة الجميلة إلى حفلة نزاع وشجار.

ضحك «زاك» وقال: ماذا نفعل يا «محمود» هكذا هي الحياة، كل إنسان ينظر إليها من زاوية مصلحته الشخصية، و«راشيل» والدة زوجتي وقد تعودتُ عليها، ولكن هي طيبة القلب، وأنا شخصياً لا أكرهها. صدقني، كنتُ أعرف من البداية أن أم حبيبي يهودية، وكنتُ مستعداً للمواجهة، ومثل ما يقول المثل «هي بحالها وأنا بحالي».

أردف «محمود»: نياك يا أخي على هذه الأعصاب الباردة وهذه النفس الهادئة، لو كنت مكانك لجنتت وانفجرت من الغضب.

هتف «زاك»: اخفض صوتك أرجوك ودع هذه الليلة تمضي على خير!

ثم استطرد قائلاً: هل لديك شيء من النبيذ يا «محمود»، نريد أن نحترف الآن بشكل جدي، ونشرب كأس المحبة مع هذه الجماعة الحلوة.

أجاب «محمود» للأسف لا أحضر الكحول للبيت فأنا لا أشربه وكذلك «كريستين»، لقد خففت من شربه منذ بداية حملها بليلي!

معقول يارجل؟! عشاء جميل وجلسة رائعة مع المحبين ندعها تمضي بلا كأس من النبيذ؟ (هتف زاك)، لا لا، اسمح لي، أنت مقصر اليوم في ضيافتك! لماذا لم تخبرني بأنه ليس لديك أي نوع من المشروبات؟ كنت أحضرت معي شيئاً من الحانة قبل قدومي؟!

ضحك «محمود» وأجاب: ليست نهاية العالم لو لم تشرب اليوم!

صدقني يا صديقي، «كريستين» هي التي بدأت هذه المبادرة، لم تعد تشرب أي نوع من الكحول وفرضت علي هذا الحظر أيضاً، بعد تلك الليلة المشؤومة عندما عدتُ إلى البيت ثملاً، كادت تفقد عقلها، ومن يومها حرمت علي وعلى نفسها شرب الكحول، يظهر

أنَّها ستعتنق الإسلام قريبًا هذه المرأة العاشقة! (تمتم زاك بصوت خفيض)، ثم أطلق ضحكة عالية! وكأن الجميع كانوا يشعرون بأنَّ الحديث كان يدور عن «كريستين» وأحيانًا عن النيذ!

ابتسمت «روزان» وقالت مع أنني أعرف بضع كلمات باللغة العربية ولكن فهمت من سياق الحديث أن «زاك» يريد شيئًا من الشامبانيا وهو غاضبٌ اليوم لأنَّه لا يوجد أي شيء ليشر به في هذا المساء، ثم بدأت تضحك بصوت عالٍ، في الحقيقة لقد أحضرت معي زجاجة نيذ أبيض لزوجي وحببي «زاك»، لأنني كنت متأكدة أن «محمود» لا يشتري النيذ ولا يشر به.

احمرَّ وجه «محمود» وشعر بالإحراج ثم قال: هذه الدعوة لكم افعلوا ما يحلو لكم. أنا لن أمنعكم من أن تقضوا وقتًا جميلًا كما تحبون.

قفز «زاك» من الفرح وحضن «روزان» بشدة ثم هتف: من سيفهمني غير هذه الأنتى التي بطعم النيذ، سأحضر الثلج والأكواب من المطبخ! انتظروني!

نظرت «كيم» إلى «محمود» وقالت: «كريستين» تعشق النيذ، خاصة الشمبانيا والمارغاريتا، كنت دائمًا أحرص على شرائها

لها، ولكن يبدو الآن أنها لم تعد تستمتع بالحياة وتشرب أو تذهب للسهر في البار.

رد «محمود» بشيء من الاحتجاج: ولكن يا سيدتي بإمكاننا أن نستمتع بالحياة دون احتساء الكحول ودون السهر في الحانات مع السكارى! لكل إنسان أسلوبه وتفكيره في هذه الحياة، وأنا و«كريستين» اتفقنا على الأشياء التي ممكن أن نقوم بها بدلاً من التسكع في سوهو أو زيارة الحانات.

نظرت «كيم» إليه ورسمت ابتسامة باهتة على وجهها، وقد بدا عليها شيء من عدم الارتياح تحاول أن تخفيه، ثم أردفت تقول: لكل بلد ثقافتها وعاداتها، والإنسان مهما فعل فمن الصعب أن يتحرر من دينه وعاداته التي نشأ عليها، ونحن لنا ثقافتنا التي لن نتخلى عنها أبداً، وربما نراها هي الأفضل في العالم.

التفت «كريستين» نحو والدتها وعلقت: هذا صحيح جداً ولكن لكل ثقافة أخطاء وعادات سيئة، والإنسان الذكي هو الذي يحاول أن يطور نفسه ويأخذ من بقية الثقافات أفضل عاداتها، أنا أحب ثقافة زوجي ودينه والأخلاق التي يحملها جداً جداً مع أنني لا أحب الدين ولا أمارسه، فالبنسبة لي الدين هو ما نفعل وليس بما نؤمن.

شعر «دافيد» بأن «محمود» قد انزعج من كلام «كيم»، فتظاهر بالابتسام وقبل أن يضع لقمة من الطعام في فمه، هتف وعيناه تتجهان صوب «زاك» و«محمود»، قائلاً:

الحب والتسامح هما الحل الأمثل لكل نزاعات البشر، وباعتقادي يجب نُعلِّم كل الأطفال التسامح واحترام الإنسان لمجرد أنه إنسانٌ بغض النظر عن لونه ومذهبه، في سنٍّ صغيرة جداً أي قبل أن نعلمهم حروف الأبجدية وعلوم الحساب والجبر والهندسة، فعندما يختلط مفهوم الدين الخاطئ مع عادات وتقاليد بالية تصبح لدينا خلطة سامة جداً قد تفتك بالمجتمع، وأنا بالمقابل لا أنكر أنه يوجد لدينا الكثير من العنصريين الذين يكرهون بعض الناس لأنَّ لهم ديناً مختلفاً ولوناً مختلفاً أيضاً، ولكن أنا أو من جداً بقول نيلسون مانديلا: (إذا كُنَّا عُلِّمنا كيف نكره، من الممكن أن نتعلم كيف نحب) في الواقع أنا لا أريد أن يكون هناك أناس مثل الصحافية (آن كولتر) العنصرية والذين يصفقون لها كثيرون، ولكن أنا شخصياً لا أحب ما تنادي به من أفكار وما كتبه ضد العرب، فقد آلمني ما قالته عن المسلمين (هؤلاء المجرمون، يجب أن نحتل بلادهم ونقتل حكامهم ونغير ديانتهم للمسيحية). أعتقد هذه الكلمات تُعبّر عن منتهى الكره والعنصرية، التي لا نريد لأطفالنا التعرض لها أو أن يؤمنوا بها، وكما أظنُّ أنه من غير

اللائق أن تقول عن سوريا يجب أن تُدمّر لتعود للعصر الحجري، أو نسمح بذلك القول التي تتبجح به (ليس كل مسلم إرهابياً ولكن كل إرهابي هو مسلم)، ثم أضاف «دافيد»: أرجو المعذرة فتلك الكلمات مؤذية وجارحة ولذا أنا ضدها تماماً، فهناك الكثير من المسلمين المثقفين والمسالمة والذين يعملون بشتى المجالات، وقد ساهموا ببناء هذا البلد العظيم، فمنهم المهندس والمعلم والطبيب، والفئة القليلة جداً ربما هي التي تكره الأمن والسلام.

نظر «زاك» و«محمود» إلى والد «روزان» بامتنان وعرفاً أن هناك مَنْ يجهر بالحق ويدافع عنه، رغم وجود عدد كبير من العنصريين.

كم أنت رائع يا سيد «دافيد»، (هتف محمود) كنت أتمنى أن يملك جميع الناس هذه الرؤية والنظرة الشاملة والعادلة للناس بغض النظر عن جنسياتهم ودينهم، لقد أنصفت المسلمين بكلامك الرائع، وقلت الحقيقة التي يصبر الكثير على أن يتجاهلها، فهناك مليار مسلم في العالم والحفنة الصغيرة منه فقط هي التي تشوه الدين لتخدم مصالح فئة معينة تعمل على نشر الخراب والقتل، ويجب أن يعرف الناس أيضاً يا سيدي أن أكثر المسلمين ليسوا من العرب ولكن من بلدان مختلفة مثل ماليزيا والصين وتركيا

وإسبانيا، الرسالة السماوية نزلت لكل البشر، واعتنقها الكثير من أوروبا وآسيا وإفريقيا.

هتف الجد «دافيد»: نعم يا بني أعرف هذا جيداً وبالنهاية يجب أن يعرف الجميع أن خالق الكون واحد، مهما تعددت أسماؤه وكتبه.

ذاك: أرجوكم يا جماعة أنا تعبت من السياسة والدين، سنستمع لبعض الموسيقى ونأكل الحلويات ونشرب القهوة، بما أن «محمود» لم يشتري لنا النبيذ اليوم، حكمت عليه أنا بصنع القهوة.

ابتسم «محمود» ورد ضاحكاً: حسناً سأصنع القهوة.

سأل «كريستين»: أين وضعت كيس القهوة العربية؟

أجابته: إنه في الثلاجة، أرجو أن تصنع القهوة دون أن تصنع أي فوضى في المطبخ من فضلك! والفناجين ستجدها بجانب الأطباق.

روزان: «محمود» يتقن صنع القهوة، وذاك يتقن الشاورما ولا أحد يمكن أن ينافسه، وبصراحة أكثر «ذاك» شابٌ مميزٌ ولا أحد يمكن أن ينافسه في أي شيء.

هتفت «راشيل»: الحب يصنع العجائب والمعجزات.

ضحك «دافيد»: وقال كفى يا «روزان» سيغار الجميع من «زاك» وأنتِ طيلة الوقت تمدحينه وتتحدثين عنه وعن خصاله الجميلة، لنتحدث عن هؤلاء الأشقياء الثلاثة والفوضى العارمة التي يحدثونها الآن.

لا بأس اليوم هو يوم للاحتفال من أجل هؤلاء الأشقياء ولن أهتم بأي فوضى قد تحصل. (ردت كريستين)

ضحك الجميع وعادوا للحديث عن الطعام وقد بدؤوا بتقطيع قالب الكعك الكبير الذي غُرست به شمعة واحدة، وركض الصغار الثلاثة نحو الطاولة وقد سال لعابهم لرؤية تلك الكعكة الملونة والمغلقة بالزبد والشوكولاتة وهم يطلبون نصيبهم منها، بدأت الجدتان بإطعام حفيديهما فرحتين بهؤلاء الأشقياء، وهم يستمعون إلى أغنية عيد ميلاد سعيد Happy birthday.

كان «زاك» يراقص «روزان» على أنغام الأغنية، بينما كان الأطفال يفرسون أصابعهم الصغيرة في قطع الكعكة ثم يضعونها في أفواههم والباقي يقع من أيديهم على الأرض وعلى ثيابهم التي أصبحت تحمل بقعاً كثيرة. همست «كيم» لحفيدتها: لا تخافي

يا صغيرتي، افعلي ما تشائين أنا سأنظف كل شيء، هذا عيدك،
العبي وكلبي كما يحلو لكِ.

كانت «كريستين» سعيدة بهؤلاء الأطفال، ولم تكثرث لما يفعلونه
من فوضى وما يرمونه من فضلات على الأرض، في ذلك اليوم،
وكذلك الجدة «كيم» كانت من أسعد الناس بحفيدتها ليلي.

الفصل العاشر

مرض «دافيد»

بعد أن مضى عيد ميلاد ليلي والسهرة الجميلة التي قضاها الجميع في بيت «محمود» و«كريستين»، استيقظ الجد «دافيد» على آلام مبرحة في بطنه وأيقظ زوجته لتحضر له كوبًا من شاي الأعشاب الدافئ.

راشيل: لا نستطيع أن نجلس هكذا مكتوفي الأيدي وأنت بهذه الحالة، يجب الذهاب إلى طبيب العائلة فورًا، فقد مضى على استمرار الألم في جسدك فترة من الزمن، وليس من الحكمة أن نؤجل الفحص الكامل لك في أقرب وقت.

دافيد: أنت تعرفين رأيي بهذا الموضوع، أنا لا أحب الذهاب إلى الأطباء، وإذا اقترب الأجل فلست خائفًا منه، فقد عشت ما فيه الكفاية.

أجابت «راشيل» غاضبة: أنا لم أعد أحتمل هذا العند الذي مازلت تحمله، سأتصل بابنتك «روزان» لتأتي وتتولى هذا الأمر وتأخذك إلى الطبيب.

جاءت «روزان» بسرعة بعد أن تركت من يدها كل شيء، وهي تجرّ طفلها، إيفا ويعقوب، ركض يعقوب وعائق جده، أما إيفا فراحت تبحث عن جدتها بالمطبخ، رأتها «راشيل» ففرحت وأردفت بصوت عالٍ ما أجمل أن أبدأ صباحي برؤية هذه الوردة الجميلة، آه كم أحبك يا إيفا أكثر من أي شيء في هذه الدنيا، أنت جعلتي لحياتي معنى يا ساحرتي الصغيرة.

حضنت الجدة حفيدتها وقبلتها وأعطتها قطعة من البسكويت الذي خبزته قبل قليل.

سألت «روزان» والدها: طمني أيها الجد الحكيم، مما تشكو؟ ولماذا ترفض زيارة الطبيب؟

ردّ «دافيد» متعباً وهو يفر أنفاسه بصعوبة، أنت تعلمين يا بنيتي، أنني لم أعد أحب العلاج المؤقت، ولم أعد أحب زيارة الأطباء! ومع أنني أحترم الأطباء والأدوية، لكنني أصبحت أؤمن بأن الشفاء يأتي من السماء قبل كل شيء، فهي لديها القدرة الكبيرة لتشفي أي مريض إذا كان الإنسان يؤمن بذلك الاتصال الروحي بينه وبين خالقه، كما أنني مازلت أعتقد بالخرافات بالرغم من ثقافتني وكتبي التي قرأتها والتي لو وُضعت في عشر مكتبات لفاض منها الكثير، مع أنني رجل مثقفٌ لدرجة تمنعني من أن

أؤمن بها، والمهم أنا لا أؤذي أحداً بامتناعي عن الدواء وربما أؤذي نفسي فقط، أنا عشت مع الألم لمدة طويلة، ولم يعلم بي أحدٌ، وما زلت أخفي بصاقي المغلف بالدم لكي لا يراه أحدٌ، فيجبرني للذهاب إلى الطبيب، لقد كنت عنيداً وتمتعت بعندي هذا كثيراً، لقد أصبحت كثير البصاق وأبصق الناس الذين لا أريدهم في ذاكرتي.

اقتربت «روزان» من والدها واحتضنته، وترجته بأن يذهب معها إلى المستشفى ولكن بلا فائدة، فكأنه شعر بأن أجله اقترب ولم يعد يفيد ابتلاع الحبوب، فهي لن تمنع انتهاء الأجل، حتى ولو أخرته قليلاً.

همست «روزان» بأذن أمها: أنا خائفة على والدي جداً، سأرسل «زاك» ليجبره للذهاب إلى الطبيب، فهو يحبه ويستمتع لنصيحته، فقد رأيتُ التعب يظهر على وجهه وعينه، ويجب أن لا يؤجل هذا الموضوع، فقد أصبحت الأمور جدية وخطيرة، يجب أن يأتي ويأخذه حتى ولو بالقوة.

أجابت «راشيل»: نعم هذه فكرة رائعة دعيه يأتي في عطلة الأسبوع المقبل لكي لا يضطر لترك عمله.

عادت «روزان» إلى بيتها وطلبت من «زاك» أن يأخذ والدها إلى الطبيب، وشرحت له وضعه المتردي، انتفض «زاك» بسرعة وهمَّ بالذهاب قائلاً: لن انتظر ليوم السبت، هل يُعقل هذا.. نتركه يعاني وهو في هذه الحالة الحرجة؟!

هذا العجز العنيد يجب أن يذهب اليوم إلى الطبيب سواء قبل أم لا.

ترقرقت الدموع في عيني «روزان» وحضنت زوجها وقبلته، ليأت كل الذين عارضوا زواجي منك، ويروا هذا الملاك الذي أضمه لصدري الآن، فيعلموا كم كنت محقة عندما اخترتك!، كم أنت شهيم وطيب القلب يا «زاك»! يا أجمل شيء حصل لي في حياتي!

ابتسم «زاك» وقال: هذا أقل واجب أقوم به تجاه والدك الرائع يا حبيبتي، وأنت تعلمين أنه من ثقافتنا وعاداتنا (نحن العرب) حين يتزوج الرجل بفتاة تصبح عائلته وعائلتها عائلة واحدة، وهو مسؤول عنهم أيضاً.

هتفت «روزان»: ما أجمل عاداتكم الأصيلة وكرمكم ولهفتكم تجاه القريب والغريب، هل أبوح لك بسرّ الآن؟ قال «زاك» قولي ما هو؟

ضحكت «روزان» وقالت أتمنى أحياناً لو كنت مثلك أحمل هذه الدماء العربية الحارة الأصيلة، لأنني أحياناً أشعر بأنني لا أكثرث كثيراً بمشاعر الآخرين وشؤونهم.

ضحك «زاك» بصوت هزّ أركان الغرفة: ثم أردف «وينك يا راشيل تعالي واسمعي ماذا يدور حول هذه الجدران العربية، ابتتكِ تمنى لو كانت عربيّة، ستهمني بأنني غسلت لك أفكارك أو كتبتُ لكِ حجاباً عند شيخ عربي يتقن السحر».

«روزان»: لا لا تقل هذا، اذهب الآن لبيتنا وحاول أن تقنع هذا العجوز بالذهاب للطبيب، لقد سرقنا الوقت يا «زاك».

ذهب «زاك» لمنزل والد «روزان» وبعد جدالٍ طويل، حمل الجد العجوز ووضع بالسيارة وذهب به إلى مستشفى العائلة.

سألته الممرضة: هل لديك تأمين يا سيدي؟

أجابها «زاك»: ليس لديه تأمين، فقد توقف من فترة طويلة، قالت الممرضة: ولكن العلاج هنا لا يخضع لقوانين العلاج المجاني (الميديكيد) وهذا الأمر سيكلف كثيراً، فأنت تعلم أن القوانين قد تغيرت الآن، وهذا مستشفى خاص وله تكلفته المختلفة قد لا يقدر عليها أي شخص يتقاضى مرتباً ضئيلاً.

رد «ذاك» بلهجة غاضبة: الرجل مريض وحالته حرجة، أرجو البدء بالإسعافات اللازمة ولا تكثرني بالمصاريف سأقوم أنا بتسديدها، هذه بطاقة الائتمان، تفضلني.

أخذت الممرضة والد «روزان» للقيام بفحوصات شاملة له، وبعد ساعات طويلة، جاءت الممرضة ويعلو وجهها سحابة من الحزن: للأسف يا سيدي وضعه سيئ جدًا، ويجب أن يبقى بالعناية المشددة ليراه غداً الطبيب المختص بأمراض السرطان.

تجمدت الماء في عروق «ذاك» وصمت لبرهة من الزمن، ثم أجاب: حسنًا سنتنظر للغد، وأرجو أن تبذلوا المستحيل من أجله.

قالت الممرضة بحزم: اطمئن يا سيدي سيكون والدك بخير.

بعد صور الأشعة تبين أن المرض قد تغلغل في رئتي والد «روزان»، وكما أخبرهم الطبيب بأنهم تأخروا كثيرًا، وهو لن يعيش سوى أيام معدودة.

انهمرت دموع «روزان» وبكت لأجل والدها، ولكن لم يكن بيدها فعل أي شيء، سوى أنها قررت أن تلازم والدها في أيامه الأخيرة وتجعله قريبًا من حفيديه اللذين يحبهما، وبعد أن مكث

في المستشفى بضعة أيام، أمر الطبيب بإرساله للمنزل لينتظر أجله القريب.

لم تصدق «روزان» ما قاله الطبيب، وأصبحت تأتي كل يوم لمنزل أهلها لتقدّم له طعامه وتصنع له الشاي المفضّل، وتأخذه ليمشي حول حديقة منزله، ليتأمّل زرقة السماء وجمال الزهور التي تحيط بها، فهو لم يتوقف عن زراعة الزهر حتى في أشد أيام المرض والألم، وكان يسقيها كل يوم ويقطع الأعشاب الضارة التي حولها.

قال لها ذات يوم: كنتِ بالأمس طفلة أمسك يدكِ واصطحبكِ للحديقة ثم أساعدكِ لتأكلي طعامكِ، أما اليوم وقد أصبحتِ عاجزاً عن المشي لوحدي والأكل لوحدي أتيتِ أنتِ يا ملاكي الصغير لتعينيني في أيامي الأخيرة.

استجمعت «روزان» كلماتها التي تقطعت بسبب الحزن والبكاء قائلة: لا تقل هذا يا والدي أنا مهما فعلت لن أردّ إليك ذرة فرح زرعتها بقلبي، أنت ستعيش وستحضر حفل تخرج إيفا ويعقوب، نعم ستعيش، أنا سأصلي لأجلك، نعم سأصلي للسماء، لعيسى وموسى ولمحمد، سأناجي كل الأنبياء وأتوسل إليهم، سأهبّ ما تبقى من عمري للإله، سأركع عند قدميه من أجل أن يشفيك،

أنا أحبك يا «دافيد»، أحبك أيها الأب الرحيم، ولا أستطيع أن أعيش دونك، أرجوك يا أبي خذ العلاج وادعي معي السماء لعلها تشفيك، أنا أو من بالمعجزات كثيرًا فقد وهبني شابًا محبًا ذات يوم واستجابت لدعائي لكي أصبح زوجته وأم أبنائه وهي ستستجيب لدعائي مرة أخرى، المهم يا والدي أن تبتعد عن الأفكار السلبية وتركز فقط على حب الحياة، وما زال هناك متسع من الوقت للشفاء من المرض والتحرر من الآلام.

أصبح «دافيد» كثير التأمل بالطبيعة، وصار يقرأ الإنجيل بتمعن أكثر، ويقضي وقتًا طويلاً مع حفيديه، ويحب أن يدون كل ما يخطر في باله في دفتر يحتفظ به منذ زمن طويل، كتب في مذكرته ذات يوم:

الآن وبعد مضي هذه السنوات الطويلة، القصيرة، الحزينة والسارة منها، أصبحت أكثر شغفًا بالأشياء البسيطة، التي تسعد الروح لا الجسد، أصبحت أصغي لانهمار المطر جيدًا فأشعر بأنه يغسل كل شيء حوله بإتقان، أناجي كل حبة ماء قبل سقوطها وأصغي لوقع أقدامها على الأرض، فتسمع أذني معزوفة لا يسمعها أحدٌ غيري، أذناي الآن مطيعتان أكثر مما مضى تعلمان بإخلاص ربما لأنَّ العمل قارب على نهايته، وأصبحت استمتع بشمَّ وردة جورية

وأسعد برائحتهما وكأنني أشمّها لأول مرة!، أستمع لمعزوفة بيتهوفن أو شوبارد فأحلق في عالم الموسيقى وارتفع لسبع سماوات، ولا مانع أبداً أن أقرأ قصة «لوليتا» لفلاديمير نابوكوف أكثر من مرة، أو أتصفح قصة «الحب في زمن الكوليرا» لكاتبتي المفضل غابرييل غارسيا ماركيز مرات عديدة، أو أقرأ «الكيميائي» لباولو كويلو فأشعر بالسعادة أيضاً، لأنني أتخيل أنني الراعي سانتياغو الذي ذهب يفتش عن الكنز في تلك القصة الخالدة، فأعيش لحظات عظيمة كأنني خارج هذا الكوكب المهترئ! بالرغم مما يحاصرني من عنف في هذا العالم، لقد قررت أن أتخلص من كل شيء ثمين أمتلكه لأتبرع به للجمعيات الخيرية ليستفيدوا به، ما الفائدة بامتلاكه؟! وإن نزل معي إلى القبر، هل سيكون ونيسالي؟ لقد عشت فترة الشباب بكل عنفوانها وشربت كؤوساً من النبيذ والكابوتشينو بما يكفي ثمنه لإطعام قبيلة فقيرة، أكلت ثمار البحر وتلذذت بالكافيار والسيفيشه، واللحوم الباهظة الثمن، أما الآن وقد اقتربت من النهاية تمنيت لو أنني لم أبدد هذا المال، فربما عملت مشروعاً خيرياً مع كنيسة من أجل مرضى السرطان أو مرض العصب اللويحي، أو التوحد. أنا «دافيد» الرجل العجوز الآن لا فائدة مني سوى حضن حفيديّ وابنتي «روزان» لأنشر الدفء في قلوبهم، لقد أيقنت أن الإنسان مهماً كان قوياً وذكياً

جداً هو بالنهاية مخلوقٌ ضعيفٌ ومحدود القدرات، وقد يشعر
بضعفه في أية لحظة لسبب من الأسباب. لقد أعلنت الحرب على
تلك الرفاهية الزائفة والزائلة، أريدُ أن احتفظ بالأشياء الضرورية
فقط والتي أحتاجها، فالآن أود أن أعيش حياةً بسيطةً، خاليةً من
التعقيد، كما يعيش طائر، يخلق ويلتقي مع سربٍ من الطيور، ينقر
حبة قمح، ينشد دفء شعاع من الشمس، ثم يعود إلى عشه بنهاية
النهار سعيداً بما حققه، عندما كنتُ في الأربعين، كنتُ في أوج
حكمتي وقوتي وشعرت كأنني عشت عمراً كاملاً مليئاً بالنشاطات
والأحداث، أما الآن فقد اقتربت من الثمانين من عمري وأصبحت
أكثر حكمة وعدلاً، ورؤية واضحة للأمور، ولكن أصبحت أكثر
هشاشة في كل شيء، وتقاعدتُ وجلستُ في إحدى زوايا البيت،
مثل أي قطعة أثاث أثرية قديمة، ربما لا يمكن بيعها إلا بحفنة من
الدولارات، وكما أن الرغبة الكبيرة التي بصدري لأحارب الفساد
في الأرض سببت لي ألماً كبيراً لأنني لم أحصل على نتيجة جيدة
ولذا كنت ألوم نفسي وأؤنبها، قد لا يحصل هذا لكثير من الناس،
ولكن الذي حصل لا يمكن منع حصوله، ثم استطرد قائلاً: عندما
نكبر لا تشدنا الأشياء الثمينة كثيراً، فقد نتطلع إلى رؤية نهرٍ جارٍ
وسمكٍ صغيرٍ ملوّنٍ يسبح حوله باغتيالٍ ربما لمدة دقيقة، فهذه
الثواني ممكن أن تعادل دهرًا كاملاً، ربما لأننا نعلم بالداخل أننا

سوف نترك هذا العالم الفاني والمترف والمزخرف بألوان زائلة،
أو ربما أصبحنا أكثر حكمة لأننا ضعفاء. لقد كنت أسأل نفسي
كثيرًا ما أسباب الكره في هذا العالم؟ فهل يأتي الفرد من بطن
أمه عنصريًا يكره الآخرين؟ أم هي عادة يكتسبها أو يتعلمها من
غيره؟!

فكم كنت أتمنى لو لم يكن ابني جاك عنصريًا ومنتسبًا لجماعة ال
«k.k. k» لما انتهى بالسجن!

اشتاق له الأب، ذات يوم فاستدعى كل الذكريات القديمة

فتح «دافيد» ألبوم الصور القديم ونظر إلى صورة ابنه جاك، كان
يبلغ السادسة من العمر، كان حاد الملامح، عميق النظرات،
كانت شخصيته صعبة الفهم والانقياد منذ صغره، يحب جمع
الجنود والأسلحة البلاستيكية والعربات الحديدية الصغيرة، أما
ملاكي الصغير «روزان»، فكانت تحمل دمياتها معها في عربتها
المصنوعة من القش وكانت مشرقة، مبتسمة دائمًا، كانت بالنسبة
لي كتابًا مفتوحًا يسهل عليّ قراءته،

كنت أقول لها: أنتِ أنثى لا تصلح إلا للحب والسهر والأغاني،
كنت أسأل نفسي معاتبًا هل منححتها الاهتمام والحب والعناية

أكثر من جاك؟ أم لكل طفل طبعٌ وصفات تتأصل فيه منذ الصغر؟
وعندما يكبر أما يصبح عدوانياً أو يصبح إنساناً محبباً.

ثم تابع كتابته:

جلست معه كثيراً في صغره وأمضيت معه وقتاً لا بأس به،
وتحدثت معه كثيراً عن التسامح والاحترام وتقبل الآخرين مهما
اختلفت أصولهم ودياناتهم، ولكن كان تأثير أصدقائه عليه أكثر
بكثير من تأثير كلماتي وحكمتي التي حاولت أن ألقنه إياها دائماً،
كنت أوم نفسي أحياناً وأجلدها، لماذا لم أستطع أن أعير ما فيه
من كره وضغينة تجاه بعض الناس الذين كان ينظر إليهم كالذباب؟
ولماذا أصبح عنصرياً هكذا يكره الغرباء في هذه البلاد التي
يدعونها بـ melting pot أو القدر المذاب، حيث تجتمع فيها
كل الجنسيات والألوان والديانات، وهم يتعايشون مع بعضهم
بسلام دون أي مشكلات، ولكن ما الفائدة الآن؟! لقد خسرت
وأصبح بعيداً عني وأنا بأمرٍ الحاجة له، وقلبي يحترق لأجله،
كنت أحبه كثيراً ولم أفرق بينه وبين أخته، فالحب ليس خبزاً يمكن
تقسيمه بالتساوي بين الأبناء، إن الأب يعطي لكل واحد من أبنائه
كل حبه، ولكنني فشلت بأن أزرع الحب في قلبه، وذلك الأمر
كان يحزُّ في نفسي، وكنت أعزي نفسي بأن أبنائنا ليسوا لنا هم

أبناء الحياة، وكنت أعرف أننا لهم ولكنهم ليسوا لنا، ولكنني على الأقل نجحت بتربية ابنتي «روزان»، تلك النسمة الشفافة التي لا تؤذي أحداً، صحيح أنها لا تذهب إلى الكنيسة ولا إلى السانيجوك أو المعبد اليهودي، لكن قلبها الطفل لا يمكن أن يؤذي أحداً ولا حتى نملة ضعيفة تمشي على الأرض، هي تحب كل الناس، ولقد اختارت شاباً عربياً ومسلماً، لم يمنعها هذا بأن لا تقترب منه، ولقد أيقنت بأنه ليس كل من لا يمارس الدين هو شخص بلا ضمير أو وجدان! فهناك الكثير من الأبرياء فقدوا حياتهم على يد من يدعون التقى والطهر والتعبد في صوامع الإرهاب، ابنتي «روزان» أحبت «زاك» بصدق وستظل وفيه له إلى الأبد، لأنها تحمل قلباً نقياً، قلباً كالذهب لا يصدأ أبداً، كم أنا فخورٌ بها وبحفيديّ إيفا ويعقوب، أما أنا في النهاية، وبعد كل الذي حصل لي ولأولادي هو لحكمة لا يعلمها إلا الله، لقد تصالحت مع نفسي ومع الإله بعد أن كنت غاضباً، حيث أقلعت عن الغضب والنفور من الكنيسة وعدت بقلب صافٍ ونقي وكأني وُلدتُ من جديد، أما عن علاقتي بزوجتي «راشيل» فقد كنتُ أحرص على مشاعرها دوماً وكنا نحتفل بعيد الفصح اليهودي كما نحتفل بعيد الميلاد كل عام، ولم يزعجني طيلة هذه السنين أننا كنا نحمل دينين مختلفين وإنما تسلطها فقط، الذي كان نتيجة شخصيتها

المسيطرة، فكان لا بد من التحمل من أجل الأطفال، فلم يكن لهم أي ذنب ليتحملوا فراق زوجين لم يتفقا كثيرًا في حياتهما، وهكذا مضت الحياة، وتبين لي بالنهاية أنَّ الحب في الزواج لا يضمن لنا السعادة الكاملة، فلا بدَّ من الخلافات وإن كانت صغيرة وهي ليست من شروط نجاحه ليستمر، وإنما هناك أشياء أخرى أهم، فقليل من السعادة ربما هو أفضل من الشعور بالمعاناة الدائمة، وأنا قد أرحل قبل أن أنهي مهمتي في هذه الحياة ولكن سأزرع زهرة لا يزول عطرها ليمر بها ويستنشقها كل عابر سبيل».



كانت «روزان» سعيدة جدًا لأنَّ السماء استجابت لدعائها وبدأت صحة والدها تتحسن بالتدريج، فلم يعد السعال يقطع أنفاسه، ولم يعد يشتكي من قلة النوم، ويده لم تعد ترتجفان كثيرًا، فقد كانت تلك معجزة كبيرة، عجز الأطباء عن تفسيرها، بعد أن رأوا كيف استجاب جسده الضعيف للعلاج والمعاودة قليلًا، كانت ابنته تقوم بطهي الوجبات الصحية له المكونة من الخضراوات الطازجة، وتعصر له الفواكه المكونة من التوت البري والفراولة والرمان، وتسقيه ملعقة من عسل النحل الطبيعي بعد أن يستيقظ من النوم، فأصبح لا يشعر بالتعب كما كان من قبل، ويمشي في

الحديقة مع ابنته وحفيديه ليتعرّض للشمس ويستنشق الهواء
النظيف في الصباح الباكر، فيمتلئ قلبه بالفرح والسرور، وكأن
جسده الآن أوقف شنّ الحرب عليه وقرر أن يرمي سلاحه، لفترة
من الزمن.

أصبحت «روزان» كثيرة التأمل بالحياة وبدأت تهتم بقراءة
الكتب الدينية والفلسفية وتساءل عن أمور القضاء والقدر، فقبل
مرض والدها كانت فتاة تحب السهر والذهاب إلى دور السينما
والمطاعم العربية وتحبسي كثيرًا من الشامبانيا والمارغاريتا،
ولكن مرض والدها غيرّها كثيرًا، فأصبحت أمًا مسؤولة وابنة
وفية تهتم بوالديها.

لا أدري كيف سمح لها «زاك» بترك بيته والإقامة معنا هنا طيلة
فترة المرض لتعتني بوالدها المريض. (غمغمت راشيل لنفسها)
كانت «راشيل» سعيدة بالتغيير الذي حصل لابنتها ولم تكن تتوقع
أنّ ابنتها المدللة، ستتغير هكذا في يوم من الأيام وتتفجر فيها هذه
العاطفة القوية تجاه والدها، فقد كانت «راشيل» تقول لنفسها
هذا الشاب لم يكن سيئًا كما كنتُ أحسب لقد غيرّ ابنتي للأفضل
وشجعها على العناية بوالدها والحرص على كسب رضاه ووده،
هكذا عادات العرب لديهم هذه الميزة الحسنة في علاقاتهم

الأسرية، على الأقل لديهم خصالٌ حميدة لا يمكن نكرانها، فأولادهم أوفياء جدًّا لهم وربما هذا من الدين الذي يعتقونه، والذي كنا نعهده دينًا سيئًا طيلة هذا الزمن الطويل، فقد علمت فيما بعد أنه يحضُّ على برِّ الوالدين وحب الجار وعابر السبيل، والبعد عن قتل النفس البشرية، حيث نعيش نحن في مجتمع غربي، قليل الانتماء للأسرة، ويكون الأبوان فيه محظوظين لو استطاعا رؤية أولادهما في فترة الأعياد كل عام، وأنا سعيدة جدًّا لأنَّ ابنتي وجدت نفسها مع هذا الشاب الذي أحبها بإخلاص وصمد بوجه الصعوبات ليحافظ على حبه لها، أصبحت أحسدها أحيانًا عليه، فأنا لم أعش هذا الحب الجارف مع زوجي «دافيد»، ربما لأنه كان رجلًا عقلائيًّا كثيرًا لا تشده الرومانسية كثيرًا، وكانت عاطفة الأب عنده أكبر من أي عاطفة أخرى، ولكنني كنتُ سعيدة معه وبأولادي وكان يحترم ديني والمناسبات التي أحتفل بها ويساعدني أحيانًا بترتيب المنزل عندما أكون متعبة، أتمنى أن يشفيه الرب من مرضه ليسعد بحفيديه اللذين يحبانه كثيرًا، فقد كان زوجًا وفيًّا وأبًا حنونًا.

الفصل الحادي عشر

سفر محمود.. ووفاة والده في الوطن

بعد أن اطمأن «محمود» أن والده بدأ يشعر بالتحسن بعد نجاح عملياته الجراحية، ساءت صحة الأب العجوز من جديد، وهذه المرة استفحل به المرض وانتشر في أعضاء جسده، تاركاً إياه منهك القوى والروح، وقد أصبح يعيش أيامه بتعب وألم، وعندما تحدث إليه «محمود» في المرة الأخيرة طلب منه القدوم للوطن ليراه قبل أن يموت، فلذا قرّر الذهاب لزيارته بالرغم من الظروف الصعبة والخطيرة التي ما زالت تحيط بكل المدن السورية.

كان صديقه «زاك» ضد فكرة السفر، فقد قال له: أرجوك يا «محمود» لا تترك الحانة الآن، فالأعياد قادمة من جديد والحانة ستزدحم، و«جابي» سيغضب جداً لو تركت عملك الآن وهذه المرة لا أعتقد سيعيدك للعمل من جديد، أنت لديك أسرة تحتاج رعايتك وهم من أهم الأولويات لديك، ابنتك طفلة رضيعة تحتاجك جداً، وكذلك زوجتك متعلقة بك بجنون! ولذا لا يمكنك السفر والابتعاد في هذه الظروف السيئة، افترض لو أن

شيئاً سيئاً حصل لك في المدينة التي لا تزال تعيش حالة الحرب والدمار، ماذا سيحصل لأسرتك من بعدك؟

أجاب «محمود» بحزم: لهم الله من بعدي!

انتفض «زاك» غاضباً، هكذا ببساطة! كيف؟ وهل ستعتقد بأنّ الله سيساعد كل فرد في هذا العالم؟ لو كان هذا صحيحاً لما رأيت متسولاً واحداً يطلب المال كل يوم في الداون تاون! وهو يحمل ورقة كبيرة مكتوباً عليها (مستعد للعمل من أجل الطعام فقط)! هنا يقتل المتشرد أحياناً أحد الباعة من أجل الحصول على حفنة من الدولارات ليشتري كأساً من النبيذ، يشعر بالسعادة، هل رأيت السماء تقذف بزجاجة نبيذ لأحد من المدمنين؟! اصح من حلمك يا رجل! السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة! أرجوك تصرّف بحكمة وارجع عن هذا القرار المفاجئ الذي اتخذته!

هتف «محمود»: يا صديقي، يجب أن تقدر موقعي، فوالدي بين الموت والحياة ينتظر ليراني للمرة الأخيرة، وأنا وعدته، بأنني قادمٌ لأحقق له رغبته، سأخبر «جابي» بقراري وأطلب منه ما تبقى لي من مرتبي هذا الشهر وسأسافر الأسبوع المقبل، وربما أطلب منه أن يقرضني مبلغاً صغيراً سأرده له حين عودتي بإذن الله.

وجاء يوم السفر، كان الفراق صعباً جداً، فمشوار حبه الذي ابتداءً مع «كريستين»، كان لا يزال في أوله، فكان يسأل نفسه كيف سيبتعد عنها، وعن تفاحة قلبه ومهجة عينه ليلي؟ كان يودُّ لو باستطاعته أن يأخذ معه أسرته، ولكنَّ الظروف لا تسمح بذلك، كان قلبه ينفطر ألماً على فراق عائلته الصغيرة التي تعلق بها، «كريستين» المرأة التي أحبها وتغلغلت في دمائه والتي أصبحت حبيبته وزوجته ووطنه، وابنته الصغيرة ليلي، عصفورة الفجر التي يرتل في عينيها كل صلوات الحياة.

كانت «كريستين» في منزل والدتها لأنها كانت مريضة، فهي ابتتها الوحيدة التي تقوم بالسؤال عنها وتساعدُها في وقت الحاجة، خاصة في هذه الفترة الحرجة.

دخل «محمود» غرفة «كريستين» لوداعها قبل سفره، كانت جدران الغرفة تكتسي بورق الجدران الأحمر ويسيطر عليها جو القداسة والدين، فسورة مريم العذراء وهي تحمل السيد المسيح تصدر الحائط الكبير وبجانبها صليبٌ معلقٌ في جهة اليمين وآخر في جهة اليسار، من الصورة، وعلى الطاولة الصغيرة، إنجيل صغير، يبدو أنه لم يفتح أحدٌ، وبجانبه صورة ليلي في إطارٍ أنيق وهي في عيدها الأول وقد ظهرت لها سنٌ بيضاء صغيرة تبدو واضحة

كحبة اللؤلؤ عندما تضحك، وهي ترتدي ثوبها الزهري الجميل وربطة شعر حمراء على رأسها لتبعد شعرها الناعم عن وجهها الناصع البياض، أما صور «كريستين» وهي في سنّ المراهقة هي وصديقاتها لم تكن بالكثيرة، قد وُضع أغلبها على مكتبها الصغيرة بجانب القصص الرومانسية التي تقرأها.

كانت الأم هي التي وضعت كل أثاث الغرفة وقطع الديكور فيه، ولم يتغير فيها شيء منذ سنين طويلة، ربما لأنّ الوضع المادي لـ«كيم» لم يكن يسمح بذلك، فقد كانت المعيل الوحيد للأسرة.

كان يتأمل كل التفاصيل الدقيقة وكأنّه يطبعها في ذاكرته ليتصفحها حين يتبعد وحين يداهمه الشوق والفراق.

لم تستطع «كريستين» أن تمنعه من الذهاب إلى بلده، فقد كانت تحب أن يرى والده قبل أن يداهمه الموت، فالشيء الذي حُرمت منه طيلة فترة طفولتها وشبابها، عندما قرّر والدها الرحيل دون رجعة، كان يؤلم ذاكرتها، ولا تريد «محمود» أن يخذل والده بعدم ذهابه.

كانت «كريستين» في أعماقها تتمنى لو أنه يُقلع عن فكرة السفر، ويبقى بجانبها، فقد اعتادت على وجوده بجانبها وعلى صدره الدافئ، حين يهاجم قلبها الصقيع.

قالت له قبل الوداع: لا أدري كيف سأعيش هذه الفترة التي ستغيبها من غيرك؟ ولا أدري كيف سأتحمل بُعدك عني، فأنت ملأت حياتي بالفرح، وأصبح لوجودي معنى وهدفٌ.

كان «محمود» صامتًا والحزن يجرح حلقة كسكين حادة، والدموع تغسل جدران حلقة، ثم أجابها بكلماتٍ مبتورة، لو لم يكن والدي يعيش أيامه الأخيرة لما ذهبت الآن، ولكن أحب أن يرى صورة ليلى وصورتك أيضًا قبل أن تصعد روحه إلى السماء، فأنا متأكدٌ سيفرح كثيرًا عندما يرى صورتها، وربما تتحسن صحته عندما يراني بجانبه،

لقد أكل جسده الهم والمرض وبعدي عنه زاد الأمر سوءًا، وأنا سأحاول أن لا أتأخر كثيرًا في سفري، سأحاول العودة بعد أسبوعين فقط.

انفجرت «كريستين» بالبكاء وارتمت بين أحضان «محمود»، واختلطت دموعه بدموعها.

كانت خائفة عليه من الحرب والمجهول والغياب.

كان لديها شعورٌ غريبٌ يخيفها، ولكنها كانت تحاول أن تتجاهله.

حاول «محمود» أن يطمئنّها وقبّلها وضمّها إلى صدره، كان قلبها ينبض بسرعة شديدة، أما ابنته الصغيرة ليلى فكانت نائمة في سريرها، كملاكٍ صغيرٍ اكتفى بالنظر إليها ولمس يديها الصغيرتين، وغادر إلى المطار مع صديقه «زاك».

كان «زاك» يحاول أن يقنعه مجددًا بالعزوف عن السفر، والبقاء بجانب أسرته، ولكن «محمود» أخذ يوصيه بأن يبقى على اتصال معه بعد وصوله إلى الوطن، وبأن لا ينسى «كريستين» وليلى، ولا يتردد بزيارتهما والسؤال عنهما كلما سنحت له الظروف.

وصل «محمود» إلى دمشق، كانت مازالت حزينه العينين، مازالت تفترسها العتمة، ومازال لخيرير مياهاها أنينٌ، ولانهمار فجرها وجع، مازالت سليله النور ينهبها الظلام، وجرحها مازال مفتوحًا، يهوي عليه الركام من كل الجهات، الحواجز العسكرية في كل مكان، الدبابات والعربات الثقيلة لا تزال تعيد انتشارها من جديد، والجنود وفرق المرتزقة الذين أتوا من كل صوب وحذب يملؤون زوايا الطرقات، فينتشر الرعب في قلوب الناس، كما كان القناصة يعتلون أسطح الأبنية لإطلاق الرصاص على كل من يتحرك في الشوارع، فلا يوجد من يخرج من بيته بعد الساعة السادسة، حيث يخاف الشباب من القتل أو الزج بالسجون بلا

سبب، والنساء كنَّ يخفن من الخطف والاعتصاب الذي أصبح كثيراً في كل المدن، بعد انتشار الفوضى والدمار وانعدام الأمن، كان يفصل بينه وبين الشارع الرئيسى الذي يقوده إلى مدينته الصغيرة، التي تطل على البحر، بضعة أمتار فقط،

امتطى سيارة الأجرة، وتوغلَّ في الطريق المترب، وكلما اقترب من المنزل، ارتفعت نبضات قلبه، وزاد توتره وخوفه، الكلاب الضالة كانت تكسر هدوء المكان، وكان حزنه أكبر من كل المساحات الممتدة، السماء كان يملؤها ليلٌ حالكٌ بسبب تكاثف الدخان، وقد اختلطت رائحة الرصاص والبارود برائحة الياسمين فراحت الأزهار تبث رائحتها بصعوبة، وتشفق على السنابل التي لا تزال تزفُّ نواح الحقل، وكانت أكياس القمامة تنتشر على الأرصفة قرب البيوت، والذباب يتجمع حولها، فتجعل «محمود» يشعر وكأنه انتقل من كوكبٍ لامعٍ نظيفٍ تحيط به الخضرة والأناقة والجمال إلى كوكبٍ قديمٍ من العصور القديمة، وقد أزهقته الحرب والدخان، وبدأت الأحزان تصحو بقلبه من جديد، بعد أن أحكم فجوات ذاكرته عندما كان في بلاد العم سام.

كان «محمود» قد عصر قلبه الحزن، فقد كان يأمل أن تنتهي تلك الحرب اللعينة بغيابه، لأنَّها دمرت كل شيء جميل، فهو يريد أن

يصرخ ويصرخ ليقتل الصمت من جذوره بداخله. بركان لن يهدأ حتى تمطر السماء بالسلام، لتعود الحمام إلى أوكارها آمنة، ليعود المهجرون من المنافي إلى ديارهم.

حاول «محمود» فور وصوله أن يرسم ابتسامة على وجهه الحزين، لم يبلغ أحداً بقدومه فقد أحبَّ أن يفاجئ أهله ويرى والده ليطمئن قلبه.

قرع الباب بيده المرتجفة، كانت الساعة قد تجاوزت السادسة مساءً، كان الهدوء والسكينة يخيما على المكان، الأنوار مطفأة، ولكنه كان يسمع الضجيج من الداخل، وثمة ضوء خافت يظهر له من خلف زجاج النافذة المشروخ، كان الشعاع يأتي من شمعة أو فانوس صغير، فأغلب الأوقات كانت المدينة تغرق بالظلام بلا كهرباء، وأحياناً بلا ماء، والمحظوظون فقط هم الذين يملكون مولداً كهربائياً للتمتع بالإضاءة عندما يحلُّ الظلام، عاد يطرق الباب من جديد، فتقدم أخوه الصغير عمرو ونظر من النافذة ليتأكد من الطارق.

ناداه «محمود» بصوت عالٍ: افتح الباب، لاتخف! أنا «محمود»، افتح له وقد عقدت لسانه الدهشة للحظات، ثم ركض يصرخ بأعلى صوته: يا أمي، انهضي بسرعة، «محمود» عاد من السفر، «محمود» هنا والله إنه هنا.

حضن «محمود» أخويه «عمرو» و«بهاء الدين» ثم راح يبحث عن والديه.

فتحت الأم عينيها، بعد أن سمعت الأصوات القادمة من مدخل البيت فوجدت ابنها يقترب منها ويقبل يدها، سائلاً: كيف حالكِ يا أمي؟

انفرجت أسارير الأم العجوز وحضنت ابنها «محمود»، قائلة: الحمد لله أني رأيتكِ قبل أن أموت يا ولدي، المرض انهكني، والحرب أتعبت قلبي وطعنته بالصميم.

أين والدي؟ هتف «محمود»، أنا قلق جدًّا عليه.

الأم: لقد تعب جدًّا البارحة فنقله جارنا إلى المشفى القريب، فقد كان صراخه يملأ الحي، ولم أعرف ماذا أفعل من أجله، لقد تراكت علينا الديون يا بني ولا أدري كيف سنسددها، الفقر أتعبنا والغلاء الذي حلَّ بالوطن وحشُّ كاسرٍ لا يرحم أحدًا، ضاعت ليرتنا السورية يا بني، وكل الناس تشكي الآن من صعوبة العيش والرعب والمستقبل الغامض الذي لا نعرف ماذا سيخبئ لنا من مشقة، ثم أردفت تقول طمني عليك يا ولدي.. كيف زوجتك وابتنتكِ؟

تنهّد «محمود» بمرارة ووضع يده على يد أمه قائلاً:

هما بخير يا أمي! اطمئني! لا تخافي يا أمي سأسدّد الدين إن شاء الله، وسيخرج والدي من المستشفى بخير وصحة، سأذهب غداً لأحضره وسأقوم أنا على خدمته.

أردفت الأم:

ولكنك متعب يا بني من السفر ويجب أن ترتاح، دعني أحضّر لك شيئاً تأكله يا بني!

«محمود»: لا تتعبى نفسك يا أمي، لقد تناولت بعض الطعام في الطائرة، تعالي اجلسي بقربي لكي تري صورة ابنتي ليلي وزوجتي «كريستين»، هذه ليلي عصفورتي الصغيرة، وهذه أمها.

نظرت الأم إلى الصور وقد أشرق وجهها بالفرح: ليتك أحضرتهما معك يا بني، كم أنا مشتاقة لرؤية حفيدتي! حفظها الله لك، إنها كالبدّر ما شاء الله، طمني يا بني، هل أنت سعيدٌ مع زوجتك؟ هل هي نصرانية يا بني؟

«محمود»: نعم يا أمي ولكنها طيبة القلب وتحب العرب والمسلمين جداً، لا تقلقي هي إنسانة قبل كل شيء. نظرت الأم

إلى صورتها مرة ثانية وقالت: هل تعتقد أنَّها ستعتنق الإسلام يا ولدي؟ مثلنا؟ وابنتك ماذا سيحصل لها؟ أي عندما تكبر هل ستعتنق دين أمها؟!

هتف «محمود»: حين تكبر يحلها ألف حلالٍ خلينا بالحاضر الآن سأرسل رسالة إلى «كريستين» أطمئنها علي ثم سأنام لكي أحضر والدي من المستشفى.

كانت الأم سعيدة بحفيدتها، ولكن لم تكن سعيدة لأنَّ زوجته ليست مسلمة، كما أنَّ أخاه «بهاء الدين» كان يهمس بأذن أمه: كيف سمح «محمود» لنفسه بأن يتزوج نصرانية من أهل الكفر والبغاء؟ ولا ندري كم رجلاً كان في حياتها؟! هكذا ببساطة نسي دينه ومعتقداته؟ أخي الكبير «محمود» كان لي مثال القدوة والأخلاق، كيف يفعل هذا.. كيف؟ ألا يعرف أنَّ كل الأمريكيات عاهرات؟! ليس لديهن سمعة ولا شرف.

آه ليته لم يسافر ولم ينجب من تلك المرأة ابنة، لا نعرف كيف سننشأ في تلك البلاد، سيخسر تلك البنت! أنا متأكد كما أراك الآن، لا أدري كيف تغيّر هكذا وضحي بكل شيء من أجل رغبته الجنسية؟!

امتعضت الأم من كلام ابنها «بهاء الدين» ووضعت يدها على شفاهة وطلبت منه أن يسكت، قائلة: الله يرضى عليك يا ابني اخفض صوتك إذا سمع أخوك «محمود» سيحزن ويغضب منك كثيرًا، هذا نصيبه وهذه المرأة خلقت من ضلعه، ولا فائدة من الاعتراض الآن، وكلت أمري لله العليّ القدير، اسمع يا بني، قال الله تعالى: «وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ» (سورة البقرة).

بهاء الدين: لو كنت مكانه لتزوجتها من أجل الإقامة وطلقتها ولن أنجب أبناءً لي إلا من امرأة مسلمة، نحن لنا عاداتنا وديننا، وهم لهم عاداتهم الغربية الخالية من الدين. نظرت إليه الأم وغمغمت لنفسها: «هو محق ولكن ماذا يفعل بقلبه الذي عشقها».

في الصباح الباكر استيقظ «محمود» وقد امتلأ جسده بنشاط غير متوقع، بالرغم من الساعات الطويلة التي أمضاها بالسفر، كانت «كريستين» قد أرسلت له كثيرًا من الرسائل الهاتفية، تسأله عن حاله وعن وضع المدينة وعن صحة والده، وتطلب منه أن لا يتأخر عليها.

ردّ على رسائلها بإيجاز وطمأنها عليه وطلب منها أن تهتم بنفسها وبالطفلة ليلي، ثم قرر أن يمشي قليلاً على شاطئ البحر

القريب من بيته، انتعل حذاءه الرياضي وارتدى بدلته الرياضية، وأخذ نفساً عميقاً وهو يهرول فوق تلك الرمال التي شهدت كل آلام السماء والأرض، كان يشتم رائحة الكآبة وهي تنبعث من البحر، حيث تختلط برائحة جسد الأسماك التي انهكتها أصوات القذائف، فراحت تبعد قليلاً لتجد مكاناً هادئاً. كانت أغلب البيوت التي في تلك المنطقة مبنية من الأخشاب وأسقفها من التوتياء، وبعضها كان مبنياً من الأحجار، حيث صمدت في وجه الحرب اللئيمة التي ضعفت معظم البيوت. كل شيء هناك كان يبدو بائساً ومهجوراً، كان يتخيل رائحة الموت تنبعث من جميع الجهات، وقد شعر لبرهة من الزمن كأنه لم يفارقها وكأن روحه كانت هنا تراقب وتحرس وتحاول أن تنقذ ما يمكن إنقاذه، ولكن جسده كان هناك يضاجع الحبيبة.

فجأة تخيل صوتاً يدب في أذنيه كالإبر، واسترجع الحديث الذي دار بينه وبين والده، مباشرة، قبل سفره، وكأنه كان ينصت إليه وهو أمامه في تلك اللحظة قائلاً:

تذكّر يا ولدي أنّ البحر كريمٌ، يطعمك ويسقيك دون مقابل وينقلك على وجهه الأزرق لضفاف أحلامك، فتق به، ولكن يا ابي أحياناً يخدعنا البحر ويشدنا إلى القاع، ليحولنا إلى أسماك

مملحة تفترسها الحيتان فيما بعد، ومع ذلك سأثق برجولته هذه المرة وأسافر، فأنا بأشد الحاجة للانتقال والعيش تحت سماء جديدة خالية من الدخان، وأنتم بحاجة إلى رغبة الحياة في هذه الأوقات المتخمة بالفقر والعوز، فالجوع وحشٌ مفترسٌ لن يرحم إخوتي، فقد بدأ يغرس أنيابه بأجسادهم الغضة، فهم لا يعرفون معنى أن ينفذ المال والطعام، وأنا تقتلني نظراتهم ألف مرة حين يطلبون شيئاً لا نستطيع شراءه لهم، ثم تأمل «محمود» البحر مرة أخرى وتذكر وجه أخيه، بهاء الدين، الذي يصغره بعام واحد، وهو يقول له: لا ترحل يا أخي أرجوك ولا تترك الوطن، فهو بحاجة لك!

ولكن «محمود» في ذلك الوقت كان قد أصرَّ على السفر.

رجع «محمود» لمنزله ليتناول فطوره ويذهب لإحضار والده من المستشفى، كانت والدته قد حضَّرت له بعض الأطباق التي يحبها، أكل مع أخويه طعامه على عجل وغادر وصوت أمه يسبقه: انتبه يا ولدي من المسلحين ولا تتأخر فالوضع ما زال خطيراً هنا.

دخل المستشفى القديم الذي يشتكي من نقص في الأدوية والمعدات بسبب الحصار الخانق التي تعيشه المدينة وتحدث إلى الممرضة فأرشدته إلى غرفة والده. فتح الباب ونظر إلى

وجه أبيه فوجده قد تحوّل إلى شخص آخر لم يره من قبل. عيناها غائرتان، وجسده هزيل، فقد الكثير من الوزن، وقد كست التجاعيد وجهه ويديه بشكل ملحوظ، وغمرت ملامحه غمامة من الحزن الدفين.

جاء الطبيب وبدأ يكشف عليه وقيس ضغطه وهو تحت تأثير المخدر لمنع الألم الشديد الذي يهاجمه فجأة.

فسأله «محمود»: كيف حالته الصحية الآن؟ من فضلك؟

أجاب الطبيب بصراحة تامة بعد أن تأكد أن الزائر هو ابنه الكبير:

لا أخفي عليك، بصراحة وضعه في غاية الخطورة والخرج، ولقد تمكن المرض من الانتشار في جسده بعد استئصال الورم الذي بمعدته، والآن ليس بيدنا شيء نفعله سوى أن نعطيه المسكنات والإبر المخدرة لمنع الألم، والأعمار بيد الله، ثم أردف الطبيب قائلاً: أنا سأخبرك بصراحة لا فائدة من مكوثه في المستشفى، لأننا حالياً لا نستطيع أن نفعل له شيئاً، وبقاؤه هنا سوف يرهق كاهلكم بالمصاريف.

كان «محمود» يتوقع هذه الكلمات ولكن كان لديه أمل ضئيل بأن يسمع غيرها وبأن والده سيتمثل للشفاء.

فتح الأب المريض عينيه ورأى «محمود» أمامه.

انحنى «محمود» وقبل يد أبيه، وقال له سلامتك يا أبي ألف سلامة.

هتف الأب بصوتٍ خفيض، الحمد لله أنني رأيتك يا بني لأقول لك وصيتي قبل رحيلي.

«محمود»: لا تقل هذا يا أبي، ستكون بخير إن شاء الله! سأقوم بنقلك للمنزل، وأقوم بإعطائك الدواء، فأنا بحاجة لرؤيتك يا أبي لقد اشتقت لك كثيراً، أوماً الأب بيده إلى زجاجة الماء التي على الطاولة بجانب السرير، فسقاه «محمود» شربة من الماء، بلل بها حلقه الجاف من تناول الأدوية والعقاقير.

نظر الأب نظرة امتنان وعطف وطلب من «محمود» أن يقترب منه، اقترب منه ابنه وهو ينصت بحزن، وسمعه يقول: يا بني اسمعني جيداً، أصبحت أيامي معدودة في هذه الحياة ولذا سأضع برقيتك حبل المسؤولية لتتابع المسير من بعدي. فوالدتك وإخوتك ليس لهم معيل غيرك الآن، فعليك رعايتهم قدر المستطاع.

اختنقت الحروف في حلق «محمود»: والأسى واللوعة تملأ قلبه، وهتف: أرجوك يا والدي لا تجهد نفسك ولا تفكر بأحد

الآن وأنا سأكون عند حسن ظنك، المهم صحتك الآن، دعني أجلس بقربك، أشعر كأني لم أرك من سنين طويلة!، سأريك صورة ابنتي ليلي، انظر إليها يا والدي! وهذه صورة زوجتي «كريستين».

نظر الأب نظرة طويلة إليها ثم قال ببطء: ليلي، ابنتك؟

حفظها الله لك يا بني، كم أنا محظوظٌ رأيت حفيدتي قبل أن أموت وكحلت بها عيني، ثم صمت الأب قليلاً ليلتقط أنفاسه المتقطعة: هل أحضرت ابنتك وزوجتك معك؟

أجاب «محمود»: لا يا أبي، لم تسمح الظروف المادية الآن، ربما في المستقبل.

غمغم الأب العجوز بكلمات لم يفهمها «محمود»، ثم وضع والده على كرسيه المتحرك وذهب به إلى المنزل.



أصبح «محمود» هو المشرف على العناية بوالده المريض، يستيقظ في الصباح الباكر ويصنع له طعام الفطور، وقد كان قليلاً من الحساء

وبعض الخبز ثم يعطيه الدواء المخدر لمنع الألم، في الليل كان نومه متقطعاً يصحو من الألم وقد اشتدت عليه نوبة السعال وضيق التنفس، فرثاه كائنا تعمالان بجهد وبصعوبة، كان ابنه بجانبه يسقيه قليلاً من الأعشاب المهدئة ويقرأ له شيئاً من القرآن فيرتاح، ثم يتوضأ ويصلي قيام الليل ليدعو الله له لكي يخفف من آلامه وينعم عليه بالصحة، ولكن القدر لم يكتب له الشفاء، فبعد مرور أسبوع كامل من عودة «محمود»، توفي والده ورحل بصمت وهو على فراش المرض ليترك وراءه عائلته التي حزنّت لرحيله، فقد كان أباً رحيماً ونشيطاً طيلة السنوات التي سبقت مرضه، عمل في صيد السمك وبيعه، ولكن بعد الحرب أصبح العمل صعباً بسبب الظروف الصعبة التي تعيشها المدن والحصار الذي يخنق المدن، حزن رجال القرية على رحيل والد «محمود»، ولكن كبيرهم قال: لقد رحم الله شيخوخته ورفع روحه النقية لعنده لكي لا يرى هذا الألم والظلم الذي يحيط بمدينته الآن، لو عاش أكثر من ذلك لما تمتع بعمره بسبب الفقر الذي نشب أظافره في زمننا الآن، وربما يلقي أحدهم القبض عليه بتهمة التآمر على الحكومة وينتهي بالسجن كما انتهى إليه معظم الشباب بلا ذنب.

وَكَزَه أحد الشباب هامساً في أذنه: «اسكت واخفض صوتك، لا تبلينا بمصيبةٍ في هذا المساء فالحيطان لها آذان»، ثم استطرد قائلاً:

رحمة الله عليه لقد عاش ما يقارب ستين في فترة الحرب
اللعينة! المهم ارتاح والله من هذه الحياة الصعبة، أصبحنا نحسد
الراجلين من كثرة العناء.

نظر «محمود» إلى الرجل باستغراب، وغمغم بكلمات غير
مسموعة، حتى الموت يُحسد عليه الإنسان الآن؟!

آه يا أبي، لقد رحلت ولم ترَ سماء هذه المدينة وقد تحررت من
قبضة الحرب والدخان والموت.

دُفن الأب العجوز بالقرب من بيته القديم، فقد كان الوضع الأمني
متوترًا ومُنَع التجول والخروج خارج القرية الصغيرة، فحفر
الشباب له قبرًا، وأقاموا له عزاءً بسيطًا،

ودفنوا معه ذكريات الأيام الماضية، ولكن صوته وطيفه مازال
يسكن قلوب الكثير هناك لأنه كان يتقاسم معهم كل شيء يصيده
من البحر، حين ازدياد الحصار والخطر، حيث يرسل الأسماك
للبيوت الفقيرة والتي غاب منها الشباب.

حاول «محمود» العودة إلى مهنة الصيد في الأيام التي كانت
خالية من القصف والخطر، ولكن السمك الذي يحضره كان
قليلاً لأنه لم يكن بإمكانه الغياب كثيرًا من المنزل، والرغم من

حزنه لرحيل والده، كان راضيًا عن نفسه لأنَّه جاء ورآه في تلك الأيام القليلة قبل أن يرحل، وقام بخدمته وكانت آخر كلماته هي الرضا والدعاء لأبنائه بالخير.

وبعد مرور عدة أيام بدأ «محمود» بجمع بعض المال من العمل المؤقت الذي يقوم به ليتركه لأهله قبل رجوعه لبلاد العم سام، كان قلقًا عليهم، فأخواه مازالت سواعدهما غضة لا تجني المال، ووالدته كان قد بدأ ينهكها المرض.

أما «كريستين» فقد كانت قلقة جدًا على «محمود» وتريده أن يعود بأقرب فرصة ممكنة، فترسل له كل يوم عشرات الرسائل الهاتفية، وكان يطمئنها أن كل شيء على ما يرام بالرغم من اشتداد الحرب وتوتر الأوضاع الأمنية في البلاد، وبأنَّه ربما يؤجل سفره قليلًا من أجل أمه المريضة.

الفصل الثاني عشر

كريستين بعد سفر محمود

لقد مضى على سفر «محمود» أكثر من شهر، كانت الأيام تمر ببطء شديد وكل يوم يمضي كانت تشعر به «كريستين» كأنه دهورٌ، كانت تتذكر كل الساعات والدقائق والثواني التي قضتها معه، وتعيش على تلك الذكرى الجميلة، كانت لا تصدق أنه سافر وتركها هي وطفلتها الصغيرة، حيث لم يعد لديها رغبة بالخروج كثيرًا، كانت تدعوها «روزان» لزيارتها أحيانًا، فتذهب لكي تجتمع ابنتها الصغيرة ليلي بإيفا ويعقوب وتلعب معهما،

وحين بدأت صحة والدتها بالتدهور، قررت أن تترك شقتها الصغيرة لتسكن معها، إلى أن يحين موعد قدوم «محمود» ورجوعه من السفر، فقد كانت تعاني من الوحدة كثيرًا وتكابد ألم البعد والفراق، فتذهب أحيانًا إلى البحر لتأمل زرقته وأمواجه وكأنها تريد أن تبعث رسائل مغلفة بالدموع لتدعوه إلى العودة إليها بأسرع وقت ممكن. في الليل كان نومها متقطعًا تتنابه كوابيس مختلفة، فتارة ترى «محمود» يغرق بزورق صغير وتارة

تراه يحمل غيمةً صغيرةً على كفه ثم يرتفع إلى السماء فجأةً، ثم تناديه ليعود إليها، كانت تصحو من النوم مذعورةً وهي تنصب عرقاً وترتعش من تلك الكوابيس المخيفة. كان الاتصال أحياناً صعباً بسبب انقطاع الكهرباء المتواصل، إلى أن جاء يوم انقطع الاتصال بينه وبينها فبدأ الشك يراودها والهواجس تسكن فكرها المتعب.

اتصلت بزاك وترجته بأن يسأل عن «محمود» عن طريق معارفه ليعرف أخباره ويطمئن عليه.

كانت الأوضاع سيئة جداً في أغلب المدن والقصف عاد من جديد بعد أن توقف قليلاً بسبب دخول العديد من الأحزاب والفئات العسكرية التي تتنازع على احتلال الوطن وتدميره.

كانت تسأل والدتها أحياناً: كيف تهني السماء زوجاً محبباً ثم تأخذه مني فجأةً، وهل كانت مهمته أن يعطيني طفلة من لحمه ودمه ثم يختفي.. لماذا كان القدر قاسياً عليّ كل هذه القسوة؟!

لقد كنت أسمع عن الجحيم ولم أؤمن بها حتى ابتعدت عن «محمود»، فأيقنت أن الجحيم هي البعد عن الحبيب، ثم تستطرد وتقول وعيناها تمتلئان بالدموع: هل الإله غاضب مني يا أمي

لأنني لا أمارس طقوس العبادة ولا أذهب إلى الكنيسة ولم أصلي
من زمنٍ بعيدٍ؟!

فتجيبها «كيم»: لا ابنتي لا تقولي هذا أنتِ تملكين قلبًا طاهرًا
ونظيفًا وتسعين لفعل الخير دائمًا ولم تؤذِ إنسانًا في حياتكِ فكيف
يغضب منك الرب؟! وقد قال في الكتاب المقدس: «غفرت إثم
شعبك، سترت كل خطيتهم» سفر المزمير (٢: ٨٥)

كانت والدتها تحاول أن تخفف عنها وتطمئننها بأن الرب سيغفر
خطاياها كلها

«فَإِنَّهُ إِنْ غَفَرْتُمْ لِلنَّاسِ زَلَّاتِهِمْ، يَغْفِرْ لَكُمْ أَيْضًا آبُوكُمْ السَّمَاوِيِّ.
وَإِنْ لَمْ تَغْفِرُوا لِلنَّاسِ زَلَّاتِهِمْ، لَا يَغْفِرْ لَكُمْ أَيْضًا زَلَّاتِكُمْ».
(إنجيل متى ١٤-١٥ (٦).

سيعود «محمود» قريبًا، اطمئني وادعي له في صلاتك!

حضنتها أمها ومسحت دموعها، ثم همست بأذنها: لا تقلقي يا
ابنتي وأنا أيضًا سأدعو له، هو شابٌ صالحٌ ولن ينساه الرب.

ولكن «كريستين» كانت تذوي يومًا بعد يوم، إلى أن أصبحت
كثيرة التأمل والصمت والحزن.

قالت لأمها ذات يوم: أفسى شيء في هذه الحياة هو الموت ولكن الأفسى منه هو الفراق الذي لست متأكدة منه، يجعلك تمتطي أرجوحة الزمان فتبقين معلقة بين الأرض والسما، لا تعرفين أين ينتهي مصيرك.

كانت تتم بصوت مسموع: أين أنت الآن يا «محمود»؟ قل لي بربك أين أنت الآن؟



عادت «كريستين» إلى الجامعة من جديد، فهي تريد إنهاء ما بداته من دراسة في قسم التحاليل الطبية لتحصل على مرتب جيد بعد التخرج، حيث تريد أن تضمن لابتها ليلي حياة سعيدة، كانت تنظر إلى عينيها الزرقاوين فتنسى حزنها وألمها وبُعدها عن «محمود»، ولكن تلك الصلابة التي كانت تكسوها من الخارج ليست إلا غلافًا هشًا تداري بها الضعف الكامن في داخلها، وتلك الطاقة التي تشع منها ما هي إلا وهج ضعيف، تداري بها انكسار روحها، فقد كانت تحاول جاهدة إزالة هذه الغُمة من قلبها ولكن كانت ذئاب الخوف والفراق تفترسها في كل وقت فتحرمها من لذة النوم في الليل والنهار، ولذا اقترحت عليها أمها أن تذهب معها

إلى الكنيسة لتقابل كاهن الاعتراف في يوم الأحد لكي تضع بين يديه كل ما تحمله من آثام وأخطاء لتشعر بالراحة، حيث أخبرها الكاهن بأن الوحيد القادر على غفران الخطايا هو الله عن طريق دم المسيح المسفوك على عود الصليب، والإنسان حينما يخطئ يطالب بأن يندم على خطيئته ويكرهها، ثم يقرّ بها أمام الكنيسة وحينها يقوم الله بغفران هذه الخطايا، «هَلُمَّ نَتَحَاجَّجْ، يَقُولُ الرَّبُّ. إِنْ كَانَتْ خَطَايَاكُمْ كَالْقَرَمِزِ تَبْيَضُ كَالثَّلْجِ، إِنْ كَانَتْ حُمْرَاءَ كَالدُّودِيِّ تَصِيرُ كَالصُّوْفِ». (سفر شيعاء ١: ١٨)

لم تكن «كريستين» مثل والدتها «كيم» متعلقة بالذهاب إلى القداس في أيام العطل، وإنما ذهبت مرة واحدة عساها تدعو لـ«محمود» بالرجوع إليها، وكما ذهبت أيضاً إلى المسجد في يوم الجمعة، واستمعت لصوت الأذان فشعرت برهبة كبيرة في قلبها، وارتاحت قليلاً، فقد كانت تعيش في فراغ روحي وعاطفي كبير، وكانت مستعدة لعمل أي شيء ممكن أن يعيد لها حبيبها الغائب، ثم بدأت تعود للعمل التطوعي في المركز الطبي للسرطان، فكانت تخفف آلام المرضى فتحضر الألعاب للأطفال والحلوى لتشعرهم بالسعادة والأمل، وتزرع على وجوههم السعادة.

التقت «كريستين» باللاجئين السوريين الذين جاؤوا إلى المدينة ووضعتهم منظمة الإغاثة في مناطق رخيصة ليتمكنوا فيما بعد

من دفع الإيجار المترتب عليهم، فكانت تساعدهم بإيجاد مراكز تعليم اللغة الإنجليزية المجاني، وتأخذ الأطفال إلى الحديقة لكي يلعبوا وينسوا مآسي الحرب، كان منهم مصابون بإعاقات جسدية بسبب الحرب ومنهم مَن فقدوا أطرافهم، فكانت تحزن عليهم كثيرًا، وتأمل أن يعود «محمود» بأقرب وقت كما يأتي هؤلاء القادمون من سوريا كل فترة إلى المدينة، فقد جاء الآلاف من اللاجئين إلى مدن مختلفة من ولاية فلوريدا وكما ذهبوا أيضًا إلى ولايات أخرى من بلاد العم سام.

جاءت «روزان» لزيارة «كريستين» لتطمئن عليها فقد عرفت أنها تمرُّ بظروف صعبة جدًا بعد غياب زوجها، وتعاني من الوحدة والقلق على «محمود».

قالت لها: لا شيء مستحيلًا يا صديقتي، وربما يعود إليك حبيبك بين يوم وليلة، لو دعيت السماء بإخلاص ستعيده لك، فبعد تجربة والدي الذي كان مريضًا أيقنت بأن المعجزات ممكن أن تحدث أحيانًا، هناك أشياء لم أكن أتوقع حصولها ولكنها حصلت، فمثلاً زواجي من «زاك» بالنسبة لوالدتي «راشيل» اليهودية، كان كارثة، ولم أكن أتوقع أنها ستقبله بيوم من الأيام، ولكنه اليوم من أعز أقاربها، والوالدي الذي كان ينتظر الموت بين ليلة وليلة ولا يستطيع

التقاط أنفاسه، أصبح الآن يتمشى في الحديقة مع حفيديه، إيفا ويعقوب، وهو مبتسمٌ وسعيدٌ، هو لم يشفَ بشكل كامل ولكن أصبح يشعر أفضل بكثير ولديه الأمل للعيش ولمحاربة المرض بعد أن أصررت على مساعدته، وأصبح مصرًّا أيضًا على التمسك بالحياة والتغلب على المرض.

هتفت «كريستين» وكيف حققتِ كل هذا يا «روزان». أخبريني أرجوك؟

روزان: بالنسبة لـ«زاك» زوجي الحبيب، كانت الأيام وحدها كفيلة بكشف الحقيقة الساطعة كالشمس، حيث وجدت والدتي أنه شابٌ رائعٌ لا يؤذي أحدًا، يحب الناس ويساعدهم دومًا ولا يحمل حقداً على أحد، وزاك هو الذي حمل والذي إلى المستشفى عندما كان مريضاً ودفعه ليتناول علاجه، كما طلب منه أن يقيم عندنا في البيت لفترة لأنني كنت أشرف على إعطائه الدواء ريثما يتحسن، وأنت تعلمين يا «كريستين» أن المعجزات تحصل عندما نبعد عن السلبية ونركز على الحب فقط.

أما بالنسبة لتحسن صحة والدي فكان له عدة أسباب يا صديقتي: أولها أنه تشبث بالأمل وحارب المرض بكل ما يملك من عزيمة، وأصرَّ على المقاومة بقوة من أجل الشفاء، وداوم على أخذ العلاج، والنظام

الغذائي الذي اتبعه كان يعتمد على الخضار والفواكه الطازجة فقط ولم يعد يشرب الكحول، وأصبح يخرج للشمس ويصطحب حفيديه إلى الحديقة، وأنا في ذلك الوقت ثابرت على تشجيعه وابتهلت للسماء لكي تشفيه، كنتُ أذهبُ كل أسبوع إلى معبد مختلف لأنني كنت أعتقد ومازلت بأنها كلها بيوت الله وكلها مقدسة، فلقد زرت الكنيسة التي يذهب إليها والدي في الداون تاون، وصليت فيها والتقيت بكاهن الاعتراف وطمأنني بأن الرب غفورٌ رحيمٌ، وسوف يغفر لي ويشفي والدي، وذهبتُ إلى المعبد اليهودي الذي تتعبد به أمي يوم السبت ودعيت كثيراً أيضاً ورحبَّ الربابي بقדومي، وطلب مني أن أحضر الصلاة كل يوم سبت. شعرت في تلك اللحظة بتقصيري في ممارسة طقوسي الدينية، ولكن كنت أعرف ضمناً بأنني يهودية لأنني خلقت من أم يهودية فقط، ولم أمارس أي نوع من العبادات، فنحن يا صديقتي، في أغلب الأحيان نتبع دين عائلتنا دون جدال، ولا نستطيع التغيير خوفاً من العائلة والمجتمع.

كريستين: كلامك صحيحٌ جداً، ولكن أنا أيقنت بالنهاية مهما ابتعد الإنسان عن الدين وتحاشاه لا بد أن يعود إلى الإله العظيم طالباً المغفرة والعون، لأنه ضعيفٌ جداً أمام الكوارث الحياتية التي يواجهها، والفراغ الروحي يجعل منه إنساناً متخبطاً يسير في طريق مظلم، لا بد من شمعة الهدى لتنير طريقه.

هتفت «روزان»: بالتأكيد وهذا ما حصل معي، دعيني أكمل لك بقية التجربة الدينية التي مررت بها.

ابتسمت «كريستين» وأجابت: حسنًا أكملني.

استطردت «روزان»: وفي أحد أيام الجمعة طلبت من «زاك» أن يأخذني إلى المسجد وغطيت شعري احترامًا لشعور المسلمين وجلست في المسجد ورددت بعض الأدعية التي علمني إياها «زاك»، كان قد حفظها منذ الصغر، وقال لي ضاحكًا «روزان» هل ستصبحين مسلمة؟ وستردين الحجاب؟ هل زارك ملاك وأمرك بذلك؟، ثم أردف مازحًا لاشك أن أمك ستفرح كثيرًا! فأجبت: أنا الآن أؤمن بالأديان الثلاثة، وبدأ نورها يستطع في قلبي، بعد أن كنت لا أؤمن بشيء.

آه يا «كريستين» كم أحب «زاك»، وأحب روحه المرحّة!

يأخذ كل الأمور الصعبة بشيء من الدعابة، ويقول لي دائمًا دعي مشاكلك الصعبة للسماء، فهي كفيلة بحلها، فهو لا يعرف من الدين سوى هذه الجملة!

ابتسمت «كريستين» مجددًا بالرغم من الحزن الذي كان يبدو في عينيها، ثم قالت: أتمنى لك السعادة يا «روزان» أنتِ إنسانة طيبة،

وتستحقين كل الخير، وبالرغم من اختلاف الدين والثقافة واللغة بينكما انتصر الحب على كل شيء، و«زاك» شاب قلبه نظيف ومخلص، صحيح هو لا يمارس الطقوس ولكن طباعه وأخلاقه رائعة.

مشكلتنا في هذا العالم يا «روزان» أن الأهل دومًا يريدون أبناءهم مثلهم تمامًا، وكنت أسأل نفسي كثيرًا هل نحن مدينون بجزء من حياتنا لمن نحب؟ وهل يجب أن نتخلى عن أحلامنا ورغباتنا من أجلهم؟!

تنهدت «روزان» ثم قالت، لقد مررنا بظروف صعبة أنا و«زاك»، ولكن انتصر الحب بالأخير.

شعرت «كريستين» بشيء من الارتياح بعد زيارة «روزان» لها ووعدتها بأن تزورها هي وليلى عن قريب، وبالرغم من مرض أمها الذي بدأ يشتد بسبب ضعف كُليتها الوحيدة، كانت «كيم» مصرة أن تعتني بليلى وتطعمها وتلاعبها وتأخذها إلى الحديقة أحيانًا لتعرض للشمس، أما «كريستين» فكانت تتابع دراستها وتعمل من أجل أن تعيل ابنتها، وتواصل مساعدتها لكل اللاجئين الذين أتوا من سوريا وبدأوا حياتهم على هذه الأرض الجديدة، بعد أن تركوا وراءهم وطنًا ينزف وسماءً تحترق.

في أحد أيام العطل بينما كانت «كريستين» مشغولة بابتيتها ليلى، سمعت والدتها تناديهما من غرفتها، فهرعت إليها فوجدتها متعبة جداً وقد شحبت لونها وكانت غير قادرة على الحركة، وكانت تعاني من آلام شديدة، أخذتها إلى المستشفى القريب لتخضع للفحوصات اللازمة، وقد أخبرها الطبيب بأن كليتها الوحيدة متعبة جداً وتحتاج إلى غسل دائم، فلم تعد قادرة على العناية بحفידتها ليلى، وتحتاج القدوم إلى المستشفى، مرتين في الأسبوع، حزنّت «كريستين» على والدتها كثيراً، وكانت قلقة على ابنتها الصغيرة، فمن سيرة عاها أثناء عملها ودراستها.

تحدثت مع صديقتها «روزان» وهي تبكي: لا أعرف ماذا سأفعل الآن؟ فقد كنت أفكر بـ«محمود» وغيابه! والآن أنا قلقة على أمي المريضة ولا أعرف ماذا سأفعل بابنتي؟ وأنا كما تعرفين أحتاج العمل كثيراً، فالتقود التي تتقاضاها أمي من تعويض عملها لا تكفي أبداً! أشعر بأنّ القدر بدأ يختبرني كثيراً ويرمي بحملٍ ثقيل على ظهري لا أقدر عليه!

أجابتها «روزان»: لا عليك، الأمر سهل وعندي حله، أنا سأخذ والدتك إلى المستشفى للعلاج ووالدتي ستهم بليلى، فهي تقيم عندي أغلب الوقت من أجل أولادي، وستفرح بها كثيراً.

اطمأنت «كريستين» كثيرًا وارتاح قلبها، وشكرت «روزان» لحسن صنعها معها.

عندما يكون هناك حبٌ عظيمٌ تكون هناك
(معجزات)

Wella Cather

بدأت «كريستين» تأخذ ليلي لمنزل «روزان» لكي تستطيع والدتها «راشيل» العناية بها، كانت ليلي سعيدة لأنها تحب اللعب مع إيفا ويعقوب.

راشيل: كان عندي حفيدان وأصبح لدي ثلاثة أحفاد، كما كان الجد «دافيد» يدعوهم بـ«الأشقياء الثلاثة»، يركضون في كل مكان ويملأون المنزل ضجيجًا وفرحًا وفوضى، كان سعيدًا جدًا بهم يقرأ لهم قصصًا جميلة ويأخذهم إلى الحديقة ليلعبوا ويختبئوا وراء الأشجار فيبحث عنهم ويمسكهم واحدًا واحدًا وسط جو من الضحك الطويل، أما «كيم» فبدأت علاجها في المستشفى كما طلب منها الطبيب، وبدأ التورم يزول من أقدامها والغثيان يخف ويتلاشى تدريجيًا.

ذات مساء ذهبت «كريستين» إلى الحانة التي كان يعمل بها «محمود» وتذكرت أول لقاء لها معه، وجلست على نفس الطاولة

التي جلست عليها من قبل وتخيلته ينظر إليها ويسألها ماذا تريد أن تشرب؟

رآها «زاك» من بعيد، فاقترب منها وجلس بقربها وسألها عن ليلي، كانت عيناها مليئتين بالدموع، فأخذ يخفف عنها ويطمئنها بأنّ انقطاع الأخبار عن «محمود» لا يعني أنه بخطر، ولكن أحياناً بسبب سوء الاتصالات ولكن قلبها كان يحدثها بأنّ شيئاً سيئاً ربما حصل.

اتصلت «راشيل» بـ«زاك» وطلبت منه أن يأتي مبكراً في تلك الليلة فقد كان عيد الفصح اليهودي أو عيد البسح، وهو عيد الخلاص من العبودية في مصر وتكوين أمة يهودية تحت قيادة النبي موسى، يصادف في منتصف شهر نيسان (أبريل)، حيث تحضر له بعض المأكولات الخاصة به، فأخبرها بأنه سيأتي وسيحضر معه «كريستين» فرحبت بالفكرة كثيراً،

وقد أعدت الماتسا أو الفطير «الخبز الخالي من الخميرة» والبيض المسلوق وشراباً يتألف من التفاح والنيذ والجوز والقرفة يسمى «حاروتيس»، وعندما وصلت إلى المنزل، وجدت «راشيل» قد أطعمت الصغار الثلاثة وأعطتهم حماماً دافئاً وألبستهم ملابس النوم، وجلسوا مع الجد «دافيد» لسماع قصة ما قبل النوم، واستمتع الجميع بوجبة العشاء اللذيذ.

كريستين: كم أنا سعيدة، بأشعر بأنكم أصبحتم عائلتي الثانية، وليلى أيضًا تشعر بالفرح والسرور معكم هنا.

راشيل: لا تحملي همًّا يا ابنتي، وتعالِي إلى هنا كلما وجدتِ لديكِ وقتًا لذلك، وليلى ستكون بين أيدي أمينة وسأعتني بها مثل إيفا ويعقوب تمامًا، لا تصدقي كم هما سعداء بوجودها بينهما، بيد أن بالبحث عنها منذ الفجر، فقد أصبحت شيئًا مهمًّا جدًّا في هذا البيت تلك الشقية الصغيرة.

اطمأنت «كريستين» على ليلي وشعرت بالسعادة لأنَّها وجدت من يمد لها يد العون في ذلك الوقت العصيب



عندما دخلت «كيم» المستشفى كانت تعاني من التورم والغثيان، بالإضافة إلى آلام شديدة وإرهاق عام بالجسد،

كان هناك أكثر من ممرضة تقوم بالإشراف عليها لقياس ضغطها ووضع أنبوب التغذية في يدها للبدأ في غسل الكلى، وبعد أن جُهِّز الملف الطبي لها كانت الممرضة أنجيلا هي التي ستبقى معها وتقوم على مساعدتها طوال الوقت. كانت فتاة في منتصف

العشرين من عمرها ويبدو أنها أمريكية الأصل ولهجتها التي تتحدث بها تشير إلى أنها من ولايات الجنوب، كانت ترتدي حجاباً أبيض وقميصاً بأكمام طويلة فلا يخفى على أحد أنها مسلمة.

عندما فتحت «كيم» عيناها رأتها أمامها وهي تقيس لها الضغط، والحرارة، وتعطيها الدواء.

سألته أنجيلا: كيف أصبحت اليوم يا سيدتي؟

أجابت «كيم»: أشعر بأنني أفضل بكثير من قبل.

ابتسمت أنجيلا قائلة: أرى أنك اليوم أفضل من البارحة، لقد زال التورم تماماً عن قدميك، والحرارة عادية والضغط عادي.

هتفت «كيم»: نعم لقد أحضرتني ابنتي في الوقت المناسب، فقد كنت متعبة جداً ولا أستطيع المشي من الألم والتورم في قدمي، يبدو أنك من الجنوب يا ابنتي، فلهجتك لا تخفى على أحد.

ضحكت أنجيلا: نحن أهل الجنوب لهجتنا مميزة، ولكن زوجي يتحدث بلهجة مختلفة لأنه من تونس ولقد مكث في نيويورك أكثر من خمس سنوات فتأثر بلهجتها كثيراً.

كيم: يا للصدفة! زوج ابنتي من سوريا، يجب أن تقابلي ابنتي
وتتحدثي معها لديها طفلة صغيرة عمرها عام ونصف تقريباً،
وهي تحب العرب كثيراً، ثم سألتها باستغراب: ألم يمانع أهلك
لأنك أسلمتِ وارتديتِ غطاء الرأس؟

أجابت أنجيلا: هذه قصة طويلة سأرويها لك فيما بعد.

وفي المساء التقت «كريستين» بالمرضة أنجيلا وأصبحت
الفتاتان صديقتين بسرعة غريبة، وتمنت لو أنها التقت بها منذ
زمن بعيد، أخبرتها عن سفر «محمود» إلى سوريا وكم هي قلقة
عليه، كما أخبرتها عن صديقتها «روزان» وزوجها «زاك» وكم هي
سعيدة معه.

هتفت أنجيلا: أعتقد أنني رأيت «زاك» في حانة الهاید بارك، فهو
نادلٌ مشهورٌ هناك عندما كنت أذهب إلى سو هو أنا و«علي» قبل أن
أعتنق دين الإسلام، ولكن الآن لا أستطيع أن أذهب إلى البارات
مع أنني أتوق لاحتساء كأس من النبيذ أحياناً، ولكن لن أشرب
الكحول لأنه محرمٌ، ولقد أخبرني «علي» أن شارب الخمر لا
يدخل الجنة، فخفت من العقاب، وأكتفي الآن بكأس من الشاي
البارد بالليمون مثل زوجي، وعندما أذهب للعشاء لمنزل والدتي
لا تضع الكحول على الطاولة لأنها تعلم أنني لم أعد أشربه.

نظرت «كريستين» إلى أنجيلا بتعجب، ثم قالت: لا بد أن إرادتك قوية جدًا حتى أصبحت بهذا الالتزام، أنا سمعت أن أصحاب الديانة المسيحية إذا اعتنقوا الإسلام، يصبحون ملتزمين أكثر من المسلمين أحيانًا لأنهم يؤمنون بهذا الدين عن اقتناع ولا يتوارثون الدين وراثته مثل بعض الناس.

ابتسمت أنجيلا وقالت: نعم هذا صحيح جدًا وأنا مثال جيد!

أضافت «كريستين»: أحب أن أسمع منك كيف اقتنعت بالدين الجديد وكيف كانت ردة فعل أسرتك؟

أجابت أنجيلا: بكل سرور، ولكن يجب أن تعلمي، أن أي شخص أمريكي يعتنق الإسلام هنا في هذه البلد لا بد أن يلقي المعارضة من العائلة، خاصة إذا كانت مهتمة بأمور الدين، ولا بد أيضًا أن يرى كثيرًا من الاستغراب في عيون المجتمع وكأنهم يلومونه لماذا اخترت هذا الدين بالذات؟! لأنهم يعدونه دينًا يحرض على القتل والإرهاب وسفك دم الأبرياء، ولذا يجب أن يردَّ على تلك التهم ويوضح أنه لا يوجد دينٌ بالعالم يحضُّ على قتل النفس البريئة، والدعايات الكاذبة تشوه كثيرًا من الحقائق.

الفصل الثالث عشر

خروج «جاك» من السجن

بينما كان الجميع في بيت «روزان» يستعدون للنوم بعد سهرة جميلة، رنَّ جرس الهاتف في المنزل. كانت المتحدثة إحدى الممرضات في المستشفى الذي نُقل إليه «جاك» من السجن.

تحدث «زاك» وسألهم ما الذي حدث بالضبط؟ ولماذا «جاك» هناك؟

أجابت الممرضة: لا يمكنني أن أخبرك الآن بتلك التفاصيل يا سيدي، عندما تأتي إلى هنا سيخبرك ضابط الشرطة بما حدث!

سمعت «روزان» الحوار بين «زاك» والممرضة وصرخت مذعورة:

أخبرني ماذا حصل ولماذا يقبع أخي في المستشفى الآن؟ هل هو مريض؟

أجاب «زاك»: لا تخافي يا حبيبتي، يبدو أنه مصاب، ولكن هو بخير الآن، فالجرح سطحي جدًّا، وقد أخبرتني الممرضة بأنَّ بإمكانه أن يغادر المستشفى بعد أيام قليلة.

قفزت «روزان» من الفرح وقبّلت «زاك» وقالت له: هذا أجمل خبر سمعته سيفرح والذي كثيرًا بخروج أخي قبل انتهاء المدة التي كان سيقضيها، فهو مشتاقٌ له جدًّا، وهو لا يزال يذكره كلّ يوم، ويدعو له بأن يخرج من السجن عن قريب، فهو يلوم نفسه لأنّه لم يستطع أن يقوم بتغيير طباع ابنه الوحيد ويجعل منه إنسانًا مسالمًا مثله!

التفت «زاك» إليها وأردف قائلاً: نحن لا نستطيع أن نغيّر عقول الناس ومشاعرهم تجاه الآخرين ونجعلهم يفكرون بالطريقة التي نؤمن بها، فكل إنسان له طريقته وأسلوبه في الحياة، ويتصرف بالطريقة التي يراها صحيحة ومناسبة من وجهة نظره.

تنهدت «روزان» وهي تضع يديها حول عنق «زاك» وقالت: صحيح يا حبيبي، ولكن أنا متأكدة من أن أخي ندم كثيرًا على موقفه معك والتسبب بإصابتك في ذلك اليوم المشؤوم، سأتصل به الآن وأخبره بأنك ستذهب لإحضاره غدًا، أرجو أن يكون لطيفًا معك.

رد «زاك» مبتسمًا: هل تعتقدين بأنه سيرد عليّ بطلقة جديدة مثلاً في ذراعي اليسرى؟

ضحكت «روزان» قائلة: لا، لا أظن أنه سيفعل ذلك لأنني أعتقد بأنَّ السجن علَّمه ما معنى الحياة الحقيقية! وأراهن بأنَّك ستري أمامك شخصاً جديداً غير ذلك الذي أطلق عليك الرصاص، ويجب أن لا تنسى أنه مصاب، أي أنه هو ضحية هذه المرة، كم أتمنى أن تنسى إساءته لك وتساعد ليبدأ حياته من جديد، لأنه سيكون بحالة صعبة بعد خروجه من السجن.

أجاب «زاك»: إذا كان هذا الأمر يسعدك، لا مانع لديّ أن أقوم به.

بدأت «روزان» تمهد لوالديها بأنَّ أخاها أمضى مدته القانونية وبأنَّه سيخرج قريباً يكون بينهم.

وبالمقابل، ذهب «زاك» لزيارة «جاك» وكان قد تعافى قليلاً من جرحه، ولكن يبدو عليه آثارٌ من التعب والإرهاق الشديد، عندما رآه تفاجأ كثيراً وظهرت على وجهه علامات الدهشة والخجل بأن واحد.

زاك: لقد جئت لآخذك إلى البيت لأنَّ «روزان» مع الأولاد، ووالدك متعبٌ قليلاً وهو عندي هو ووالدتك.

رد «جاك» مبتسماً: أشكر لطفك يا «زاك»، أنا آسفٌ لما حصل بيننا من سوء تفاهم وكنت...

هتف «زاك» مقاطعاً: لا داعي للحديث بالماضي الآن، فنحن الآن أسرة واحدة، والكل ينتظرُك بالبيت بفارغ الصبر، خاصة والدك، لقد كان يذكرك في كل جلسة عائلية وقد افتقدك كثيراً، خلال تلك الفترة التي كنت فيها بعيداً.

قال متأسفاً: لقد علمني السجن دروساً كثيرة يا «زاك»، كنت أظن كل الذي أحتاج إليه لأعيش بسعادة في أمريكا مسدسٌ جيدٌ ومحفظة ممتلئة بالدولارات! ولكنني كنت مخطئاً جداً ودفعت الثمن، أياماً سوداء قضيتها مع العنصريين ومدمني المخدرات، فهذه الأرض لا تريد العنف وإنما العلم واتباع القانون فقط، فأنت تحتاج العلم لتعمل ولتقاضى مرتباً جيداً وتحتاج القانون لتنفيذه لتتمتع بحريتك التي هي أغلى ما تملك.

أجاب «زاك»: كلامك صحيح وأنا أوافقك عليه تماماً، أنا الحمد لله أتبع القانون وأعمل بمهنتي كنادل في الحانة وأتقاضى مرتباً جيداً يكفيني ولا أحتاج أحداً، أنا لا أريد أن أسكن في القصور وأتناول الكافيار وأحتسي أغلى أنواع النبيذ، كل الذي أريده من هذه الحياة منزلٌ صغيرٌ آمنٌ يمتلئ بالحب، وبأسرة جميلة ألجأ إليها بعد نهارٍ مليء بالتعب، وأنا لست حزيناً لأنني لا أملك شهادة طبيب أو مهندس، فأنا افتخر بعملتي كطاهٍ ماهرٍ، فأنا أفضل من

يصنع الكوكتيل في البار! واعتقد هذا الذي جعل «روزان» تتعلق بي كثيراً ثم أردف ضاحكاً:

هي لا تحب الطبخ وقد أوكلت إلي هذه المهمة الشاقة! هي فتاة أمريكية كسولة وأنا شابٌ عربي أجيد طهي كل أنواع الطعام، وأنا أرى أن الإله جمع بيننا لحكمة!

ضحك «جاك»: وقال: نعم هذا صحيح جداً!

لقد اكتشفت هذا بنفسك وقبلت بهذا الوضع فلا تلم أحداً غير نفسك!! ولا فائدة من الكلام فيه، دعك منها وأخبرني، هل سنتناول عشاءً شريقاً عندك اليوم؟ أنا جائع جداً جداً!

هتف «زاك»: اليوم سنتناول الشاورما والمقبلات، فقد أعددت كل شيء في مطعم الحانة وسأخذه معي للبيت.

دخل «جاك» إلى المنزل ففرح الجميع بوصوله، خاصة «دافيد» و«راشيل»، واحتفلوا بتلك الليلة وهم يتناولون الشطائر اللذيذة التي صنعها «زاك» لهم، وسط جوٍ ملىء بالسعادة والفرح.

كانت «راشيل» سعيدة جداً بعودة ابنها «جاك»، وقالت له اليوم أصبح عندي ابنان وأنا سعيدة جداً بهما.

هتف «زاك»:، وأصبح لدينا ثلاثة أشقياء، إيفا ويعقوب و«ليلي»!
كان «جاك» متلهفًا لرؤية أولاد أخته، فقد كانا نائمين حين قدومه،
فنظر إليهما وقال لا أصدق أنني أصبحت خالاً بهذه السرعة، ما
أجملهما من أطفال، لقد شجعتني أختي «روزان» لأفكر بالزواج
ليصبح عندي أولادٌ أيضًا، الأطفال هم زهرة الحياة وعطرها، ثم
التفت لـ«زاك» وقال له:

سأتي في الصباح الباكر لأرى هؤلاء الأشقياء، لقد أمضينا أمسية
جميلة اليوم، أشكرك على ذلك الطعام اللذيذ، بدأت أقرأ الآن
وأقتنع بأن «روزان» كانت محقّة بالإصرار على الزواج منك أيها
الطاوي الماهر، ولولا أنك تنازلت عن حقك يا «زاك» ل بقيتُ
أنا مرميًا في السجن ولكنك غير قادر على تذوق تلك الأطباق
الرائعة! ولا أخفي عليك الآن وبعد تجربتي المريرة وراء القضبان
أبشيء أعظم من الحرية. يا إلهي كم كنت أكره تلك الأسوار!

هتف «زاك»: حاول أن تنسى تلك الأيام وكأنها لم تكن!

التفت «جاك» قائلاً: سأفعل بكل قوتي، ولكن بصراحة، الأمر
ليس سهلاً كما تعتقد، قد يأخذ هذا وقتاً طويلاً، فالسجن يترك
أبشع الصور في غرف الذاكرة. كانت أياماً صعبةً جداً وقد التقيت

هناك بجميع أصناف البشر وطبقاتها. لقد علمتني الحياة أنَّ هناك كثيرًا من الأفراد لا يعرفون ما مصلحتهم الأفضل ولا يعملون لأجلها ويتبعون طريقًا خطرًا، ليس لأنَّهم أُجبروا على هذا ولكن يريدون اتباع طريق صعب وعيبي، ولأنَّ الإنسان يحاول أن يشوه الحقيقة دائمًا، ولذا لا يحب أن يرى أو يسمع لأحد ويبرر منطقته فقط، عندما طعنني أحد العنصرين في السجن بمدية كان يخفيها في جيبه، لأنني أبيض البشرة حيث كان هو ذو بشرة سمراء وكان يدعوني (white trash) (الأبيض القذر)، شعرت بأنني تحررت من عنصريتي وخلعت ثوب العنصرية الذي ارتديته طويلاً دون أن أشعر، لأنني وجدت نفسي أحتمي من نفس الكأس التي سقيتها لغيري، وتذكرتك على الفور وشعرت بأنَّ القدر كان يعلمني درسًا قاسيًا.

وضع «زاك» يده على كتف «جاك» وأردف قائلاً: كل إنسان معرض بأن يمرَّ بظروف صعبة في فترة من فترات حياته، وأظنُّ أنت تخطيت هذه المرحلة بنجاح، كل الذي يلزمك الآن بعض الوقت لتسترد صحتك الجسدية والنفسية، فتجربة السجن وفقدان الحرية شيء صعب بلا شك، وقد يؤلم الذاكرة لفترة ليست بقصيرة.

ذهب «جاك» بعد انتهاء العشاء إلى بيته، وأعطى «زاك» رسالة كان قد كتبها له عندما كان بالسجن، بعد أن شعر بالمعاناة والندم.

كان «زاك» متحمساً لقراءتها ويسأل نفسه يا ترى ماذا في لك الرسالة؟

دخل «زاك» إلى غرفة الجلوس بعد أن خلد الجميع للنوم وفتح الرسالة، فتفاجأ مما وجدته فيها وكاد لا يصدق!

كتب «جاك» في رسالته:

لا أدري يا «زاك» لو ستكون هذه الكلمات كافية للاعتذار لك عما حصل في الحانة، في ذلك اليوم المشؤوم، حيث انتهى بجرح في ساعدك الأيمن، وذهابي إلى السجن وبقائي به لمدة أكثر من عام ونصف. أنت تعلم الذي حصل بعد الاعتداء على الأبراج في نيويورك في الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) في سنة ٢٠٠١، الذي قامت به جماعة إسلامية متطرفة (القاعدة)، كان له أثرٌ سيئ على كل الأميركيين في الولايات المتحدة الأمريكية، وأنت تعرف عندما نفقد السيطرة على أعصابنا يبقى الغضب هو أسرع رد فعل يقترفه الإنسان، في ذلك الوقت فقدت خالتي التي أحبها في ذلك الاعتداء، حيث كانت تعمل في أحد الطوابق العالية من

البرج، أعلم أنَّ الحقد والضغينة لا يجديان شيئاً، ولكن كان لدي شعورٌ لم أستطع التغلب عليه ولقد أثرَّ على حياتي بصورة سيئة، وكم كنتُ أشعر بالخجل من نفسي لأنني كلما رأيت مسلماً أقول بصوت منخفض «ها هو الرأس المحفّض مقبل الآن» (There goes another rag head)

وأنا أعرف أنَّ الفئة القليلة جداً من المسلمين قد تكون هي فقط الإرهابية، ولكن الذي أزعجني بالأمر أنَّ الفئة المثقفة من العرب الأمريكيين لم يشجبوا بما يكفي هذا الفعل السيئ، وأنا أعرف أنَّ هناك فئة جيدة وقليلة قد شجبت هذا الفعل وقد يظهر نور معرفتهم وحكمتهم للجميع ولم يعرفهم الكثير هنا.

لقد حزنت فيما بعد على الأرواح البريئة التي فقدت حياتها بالعراق، والبلدان التي هاجمتها قواتنا كردة فعل بعد اعتداء ١١/ أيلول (سبتمبر)، وكنت أعتقد أنَّ ذلك أمرٌ مبالغٌ به، ولكنه حصل للأسف، أنت تعلم شبابنا يذهب للحرب أحياناً ليس بقناعة تامة، حيث يهرب الكثير وينتحر الكثير أيضاً، ولكنه يجبر على ذلك، تحت ضغط الظروف والحاجة أحياناً، ولا أخفي عليك قد يترك جنديٌ خلفه أسرة ومنصباً من أجل الذهاب لقتل المسلمين بسبب الكره والعنصرية. كنت أظنُّ يا صديقي بأنَّ الحضارة تهذب

الإنسان فيصبح أقل عطشاً للدماء وأقل رغبة لشن الحروب ولكنني كنت مخطئاً، لأنّه أحياناً يكون القتلة أناساً متحضرين ومثقفين جداً جداً، وأنت تعلم جيداً في الحروب تموت القلوب ويتربع الموت على عرش الإنسانية.

وفي النهاية يا صديقي الذي أريد قوله إن المسلمين والمسيحيين واليهود لهم أسماء مختلفة للإله، ولكن بالنهاية هو إله واحد، ونحن أبناءؤه، سيكون هذا العالم أفضل إذا عرفنا كيف نتعامل فيه بالحب بيننا.

لقد كنت أكره الشعور الذي أحمله ضد المسلمين وما زلت أعمل على تغييره لا شك أنها مهمة صعبة جداً، وأنا أنتظر في أحد الأيام أن يأتي أحد الناس ويشرح لنا مبادئ الديانات الثلاثة من الكتب السماوية، لأرى التشابه بينها، وما الذي تدعو إليه تلك الأديان، وحتى يحدث ذلك سيبقى الناس في حيرةٍ من أمرهم.

أتمنى أن يعمّ السلام في هذا العالم الذي أصبح ملطخاً بالدماء، ومشوهاً من الداخل بسبب الكره، فإن لم تنته لوثة الكراهية بين الأفراد فسوف نقبلُ على كارثة حقيقية، وسيدفع ثمنها الأبرياء من دمائهم.

المحب «جاك»

كان «زاك» مندهشاً جداً من التغيير الكبير الذي طرأ على تصرفات «جاك» وشخصيته، واقتنع أنَّ لا شيء مستحيلاً مع الوقت والظروف المحيطة بالإنسان، فقد أخذ يتمتم لنفسه: مَنْ يصدق أنَّ «جاك» الشاب اليهودي، الذي جاء إلى الحانة منذ سنتين، وهو يحمل مسدسه وكاد يتسبب بمقتل أكثر من شخص في ذلك الوقت، بسبب عنصريته والكره الذي يحمله ضد كل مَنْ يحمل جنسية أو دين مختلف، يصبح شخصاً مختلفاً تماماً، ومحباً للسلام، كارهاً للعنصرية ويريد أن يعرف عن الديانات الثلاثة؟!

التقى به «زاك» بعد عدة أيام وشكره على رسالته، وعرض عليه أن يعمل معه في الحانة.

كان «جاك» بأشد الحاجة للعمل ولا يعرف كيف سيجد عملاً بعد أن خرج من السجن.

فسأل «زاك»: هل تعتقد أن صاحب الحانة سيقبل أن يوظفني في حانته بعد الذي حصل مني من عنف؟!

أجابه «زاك»: أنا سأكفلك، ولا أظنَّ «جابي» سيرفض طلبي، فهو يريد أحداً بأقرب وقت ليعمل كرجل أمن لفضّ النزاعات وحماية المكان من اللصوص والمتشردين الذين يدخلون البار

من أجل الكحول أو الطعام أحياناً، وأنت لديك الخبرة بذلك فقد كنت تعمل من قبل بهذه المهنة كما قالت لي «روزان».

هذا صحيح، قال «جاك»، وسأكون عند حسن ظنك.

مضت بضعة أيام على دوام «جاك» في عمله الجديد في الحانة، وقد أُعجب به ««جابي»» لما بذله من جهد في عمله، فقد كان يساعد في تحضير الكوكتيل وتقديم الوجبات، وفي المساء كان يحمي المكان من المتسولين ويحافظ على هدوء الحانة وأمنها.

كانت كل أفراد أسرة «جاك» سعداء لخروجه من السجن ولعمله في الحانة بسرعة، فقد كانوا خائفين من أنه قد لا يجد عملاً بعد أن أصبح من أصحاب السوابق.

الفصل الرابع عشر

أنجيلا وحياتها بعد اعتناق الإسلام

بعد أن شعرت «كيم» بالتحسن، نقلتها «كريستين» إلى المنزل لتتلقى العلاج فيه، وكانت أنجيلا (المرضة) التي أشرفت على العناية بها تزورها كل أسبوع؛ لتطمئن عليها وتقوم بحقنها أحياناً بالدواء اللازم أو المسكنات.

سألتها «كريستين» ذات يوم: كيف اقتنعتِ بالإسلام؟ وهل تقبَّلَ أهلُك ذلك دون أي ردة فعل سلبية؟ إذا لا يزعجك هذا طبعاً؟!

ردت أنجيلا وعلى وجهها ابتسامة تختلط بشيء من الفرح والدهشة: كنتُ الابنة الكبرى لعائلة متوسطة الدخل، لم تكن طفولتي سعيدة، وكنت أفضل الجلوس وحدي في غرفتي هرباً من الأصوات العالية التي كانت لا تهدأ في بيتنا. كانت أمي كثيرة الشجار مع والدي بسبب مصاريف المنزل، حيث كان والدي مدمناً على الكحول والقمار، ويصرف معظم مرتبه الضئيل على ذلك، ويأتي في منتصف الشهر ليستلف من أمي نقوداً بالقوة. كنت في الثانية عشرة من عمري عندما وقع شجارٌ بينهما وانتهى بدخول والدي السجن لأنه اعتدى على والدتي بالضرب،

وأصبحت والدتي هي المُعيل الوحيد لنا، وتنتظر بفارغ الصبر أن أنهي المرحلة الثانوية لكي أساعدها بمصروف المنزل، كانت والدتي متعبة جداً لأنها أصبحت تغرق بالديون، وبدأت تتناول حبوب ضد الاكتئاب أغلب الأحيان، لأنها أصبحت صديقة الحزن وتبكي لأبسط الأسباب.

تنهدت «كريستين» بحزن وقالت: أُمي أيضاً كانت المُعيل الوحيد لنا بعد هروب والدي مع عشيقته، ولكن الذي ساعد أُمي كثيراً هو ذهابها للكنيسة وتمسكها بالدين، الذي كان يجعل منها امرأة قوية ومتفائلة، وأنا لم أكن ملتزمة مثلها ولكنني كنت استمد منها القوة والأمل.

هتفت أنجيلا: كم كنت أتمنى لو أن أُمي تعتنق أي دين أو مذهب لتخرج من دوامة الحزن التي دخلت فيها، ولتتوقف عن تعاطي تلك الحبوب التي تدمر حياتها كل يوم، فقد نشأت في منزل لا مكان للدين فيه، ولا يطبقه أحدٌ فينا، ولذا كنت أبحث عن شيء مفقود، فقد كنت أتخبط كثيراً، حتى حان الوقت لأقابل «علي»، الشاب التونسي الذي أحببته.

امتلاأت عيني «كريستين» بالدموع لأنها تذكرت «محمود»، وكيف كان لقاءها الأول معه.

لاحظت أنجيلا ذلك وحاولت أن تخفف عنها حزنها، ثم أردفت تقول: عندما أنهيت المرحلة الثانوية لم أستطع الالتحاق بالجامعة؛ لأنني كنت بحاجة ماسة للعمل لأساعد والدتي بدفع الفواتير المترتبة علينا، من إيجار الشقة وفواتير الهواتف والسيارات، والعمل الوحيد الذي وجدته في مهى «ستاربكس»، حيث كنت أقوم بإعداد القهوة والكابتشينو، كان «علي» يتردد كثيرًا على ذلك المكان الذي أعمل به، كنت أنظر إليه كل مرة ولكن لا أتحدث معه ولكن شيئًا ما كان يشدني إليه!

لا أدري إن كانت ملامحه العربية، أم ابتسامته التي تخفي وراءها شيئًا من الغموض، ولكن في أحد الأيام جاء ليشتري قهوته المعتادة فنظر إلي وابتسم، ثم ابتسمت أنا بالمقابل، كنت سعيدة جدًا ثم عاد وترك لي رقم جواله.

صمتت أنجيلا قليلًا وكأنها تسترجع أيامًا فات الزمن عليها بضع سنين!

ثم ماذا أردفت «كريستين»؟ اكملني لقد تشوّقت لأعرف ماذا حدث؟

ضحكت أنجيلا وقالت: لقد اتصلتُ به في المساء، قلبي كان يدق بسرعة جنونية لا أدري لماذا؟ مع أنه لم يكن أول شاب في

حياتي ولكن بصراحة يا صديقتي، كأنها كانت المرة الأولى التي أتحدثُ فيها مع أحد، ولأول مرة أيضًا يدقُّ قلبي بصدق غير كل المرات السابقة، كان يتحدث الإنجليزية بطلاقة، وشعرت بأنني أعرفه من زمن بعيد، أو أنَّ أرواحنا تقابلت في زمن ما منذ ألف عام مضى، ومنذ ذلك اليوم تحطمت بيننا كل الحواجز، تحدثنا عن كل شيء، وأخبرني بأنه جاء منذ خمس سنوات إلى الولايات المتحدة، حيث كان في بداية العشرين من عمره، جاء من تونس لزيارة أحد إخوته وبقي هنا ليدرس الهندسة الكهربائية، أما أنا فأخبرته عني وعن ظروفي العائلية وبأنني لم أكن سعيدة لعدم تمكيني من الالتحاق بالجامعة؛ لأنني لم أكن أريد أن أغرق نفسي بالديون، والقروض الجامعية، ومضت الأيام وتعددت اللقاءات بيننا وتحدثنا بالدين والسياسة والتقاليد، وكنت متحمسة جدًا لأعرف عن ديانة الإسلام التي يعتنقها، وأخبرته الشيء الوحيد الذي أعرفه والذي تعلمته من المدرسة عندما كنت في المرحلة الابتدائية بأنَّ المسلمين يدورون حول القبلة المقدسة، والنساء المسلمات يرتدين الثوب الأسود والطويل.

في ذلك اليوم ضحك «علي» كثيرًا وقال: هناك أشياء كثيرة أنتِ ربما لا تعرفينها، والذي تسمعينه من الدعايات والأخبار ليس كله صحيحًا.

ابتسمت «كريستين» وقالت: نعم صحيح هناك كثيرٌ من الأشياء الكاذبة التي يروِّج لها الإعلام الكاذب بهدف التشويه.

تابعت أنجيلا حديثها بحماس: لا أخفي عليك يا «كريستين» بأنني أحببته بجنون، ولكنني اكتشفت بعد عدة لقاءات أنه لا يستطيع أن يقيم علاقة عاطفية معي بلا زواج لأنه كان يحافظ على تطبيق أركان الدين الذي يعتنقه، وقد احترمت فيه هذا الجانب كثيرًا، فهو ليس مثل الشباب الأمريكيين الذين يبحثون عن المتعة فقط، فهو يؤمن بالارتباط المقدس، بين الرجل والمرأة، أما أنا فلم يكن الدين مهمًا بالنسبة لي، لأنني لم أهتم به في يوم من الأيام، ولكن كانت لدي رغبة قوية لأعرف كل شيء عنه وعن الدين الذي يعتنقه، ولقد أخبرته، بأنني لم أمارس أي نوع من العبادة ولا أعرف إلا القليل عن الأديان،

كنت أشعر بجهلي في حضوره، فقد كان ضليعًا في أمور الحياة كلها، وكنت أراه شخصًا ناجحًا ومسلمًا أخذ الإسلام وطبقه بشكله الوسطي، نحن لم نمارس الجنس قبل الزواج، ولكن كنا نذهب إلى سوهو لأنني كنت أحب السهر واحتساء المارغاريتا، أما هو فكان يحتسي الشاي البارد مع الليمون، لم يكن يحب أن يفرض رأيه علي أو يمنعني عن الأشياء التي أحبها، كنت أرى

الإسلام جميلاً من خلاله، فقد كان رائعاً ومعتدلاً، وبعد سنة كاملة من تعارفنا صارحني بحبه لي وبرغبته بالزواج مني فوافقت على الفور، وتزوجنا دون أن نخبر أحداً، وبعد فترة شهرين وانتقالي من منزلي لأعيش معه أخبرت والدتي ففرحت لي ولم تسأل عن جنسيته أو دينه، كان أهم شيء بالنسبة لها أنني أحبه ويحبني ولم يرتبط بي من أجل الإقامة أو ليحصل على الجنسية الأمريكية، ثم طلب مني «علي» ذات يوم أن نذهب معاً لزيارتها، فتفاجأت لطلبه، وبذات الوقت خفت أن ترفض أمي مقابله!

سألت «كريستين»: هل قبلت والدتك أن تستقبله؟

«أنجيلا»: نعم رحّبت جداً بالفكرة، ودعتنا إلى عشاءٍ خفيف في بيتها، وبعد أن تحدثنا بمواضيع كثيرة سألتها والدتي بجرأة، لماذا يكره العرب الغرب، خاصة الولايات المتحدة الأمريكية؟!

أجابها «علي» بكل احترام: هم لا يكرهون الشعب الأمريكي ولكن يمتقنون القوة العسكرية الجامحة التي تسير على هذه الأرض كمجنزرة تكتسح كل شيء بطريقها، تحتل البلاد العربية وتدمرها وتنهب ثرواتها، انظري يا سيدتي ماذا فعلوا بالعراق؟ قتلوا ٥٠٠ ألف طفل عراقي بسبب الحصار الذي وضعوه على البلاد، بعد أن احتلوها في عام ٢٠٠٣، وكل يوم يموت العشرات

من الأبرياء بسبب الانفجارات وسوء الوضع الأمني منذ أن وقعت الحرب إلى اليوم.

أمي: نعم للأسف لقد كنت ضد هذه الحرب التي لم نجن منها سوى موت جنودنا الشباب وتدمير ذلك البلد الذي لم يعد آمناً، أنا كأميركية أعترف لك بأنني أكره شيئاً واحداً وهو احتلال البلدان الأخرى والسيطرة على ثرواتها، وكما قلت يا «علي» إنَّ الناس يمقتون من يشردهم ويسلب أوطانهم.

أضاف «علي»: هذا صحيح يا سيدتي وهناك أيضاً المتمزمتون والأصوليون، فهؤلاء يكرهون حضارة الغرب؛ لما فيها من تحرر وانفتاح، ويغسلون رؤوس الشباب الفقير ويرسلونهم للإرهاب والموت، مقابل حور العين والجنة التي سيعودون بها بعد الموت والشهادة، وهذا حديثٌ يطول يا سيدتي، مع أنَّ ديننا يحرم قتل النفس البريئة،

قال تعالى: «وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ» (سورة الفرقان ٦٨).

نظرت والدتي نظرة عميقة وطويلة إلى زوجي وقالت له: للأسف أنا لم أعتنق أي ديانة منذ خُلقت ولم أسمع كثيراً عن دين الإسلام

سوى ما يقال إن بعض المجاهدين المسلمين، يقومون بأعمال إرهابية هنا وبمناطق أخرى من العالم.

ردّ «علي»: هم مثل أي إرهابيين في هذا العالم! مثل جماعة «K. K» في أمريكا مثلاً الذين يبقرون بطن السود بسبب سواد بشرتهم، والنازيين الذين ارتكبوا المحرقة اليهودية، فالإرهاب يا سيدتي ظاهرة خطيرة في المجتمعات الإنسانية وهو ليس له هوية أو عقيدة وهو قتل النفس وترويع المجتمعات، والمتطرفون يسعون إلى الجهاد من منطق «اطلب الموت توهب لك الحياة». لقد كانت والدتي سعيدة جداً بزيارتنا، وطلبت منا أن نزورها كلما سنحت الفرصة، فقد كانت تشعر بالوحدة والملل، ولقد شعرت بالارتياح للتحدث مع «علي» كثيراً، فقد أعجبت بثقافته وأسلوبه الصريح وكرهه للتطرف والإرهاب، والأهم من ذلك أنه كان يحبني ويطلب مني أن أكون بارةً بوالديّ. كان «علي» مثال الزوج والصديق والحبيب، فقد ساعدني لأعود للدراسة من جديد، وانتسبت لقسم التمريض وأصبحت ممرضة محترفة بعد سنوات قليلة، وبرهن لي بفعله وأخلاقه أن الدين ممكن أن يغيّر الإنسان للأفضل إذا عرفه من مصادره الصحيحة ومارسه الفرد بصدق وبلا تعصب، وكل يوم كان يوضّح لي أن هناك مَنْ يشوه صورة الإسلام بأعماله وتصرفاته السيئة، وبدأ يتضح لي أن هناك بعض

العادات التي يتداولها المسلمون وهي ليست من الدين إنما هي من الثقافة التي تعودوا على ممارستها خلال السنوات الطويلة، فمثلاً لا داعي للنساء أن يمشين خلف الرجال، أو أن يبقين في المنزل للقيام بأعمال الطبخ والتنظيف وتربية الأولاد. المرأة لها حق العلم والعمل أيضاً، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»، وقال الله تعالى: «هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ»، كما أن هناك من الأسر المتعصبة التي قد تمنع الإناث من ممارسة حقوقهن في التعلم أو السفر، ولكن هذه التقاليد التي تظلم المرأة لم تعد موجودة إلا نادراً في المدن العربية والمتحضرة، وإنما في الأرياف فقط، مع أن المرأة المسلمة في القرن السابع كانت لديها الحرية أكثر من نساء اليوم، فزوجة صلى الله عليه وسلم كانت ترعى تجارتها وكان يعمل لديها النبي كأحد الموظفين، ولقد تقدمت هي بخطبته وتزوجها وكانت أكبر منه سنًا، وكان العام الذي توفيت فيه يسمى «عام الحزن». نعم إنَّ الرجال قوامون على النساء، كما يقول الله تعالى في كتابه العزيز، ولكن «المرأة عماد الرجل وملاك أمره وسر حياته من صرخة الوضع إلى أنة النزع»

مصطفى لطفي المنفلوطي، النظرات.

استغربت «كريستين» وقالت: لم أكن أعرف هذه المعلومات،
يالها من قصصٍ ممتعة، وغريبة!

أضافت أنجيلا: كنت أسمع عن مريم العذراء من الكتب التي
قرأتها ولكن هي معروفة في العالم الإسلامي كمریم، وهي
التي أنجبت المسيح بقدرة الله، وقد ذكرت في القرآن أكثر
من الإنجيل، وعيسى عليه السلام هو نبي مثل بقية الأنبياء عند
المسلمين، والشئ الغريب الذي عرفته أيضًا من زوجي أنَّ هناك
كثيرًا من المسلمين لا يمارسون الإسلام وعندما جاؤوا إلى هذه
البلاد التي تؤمن بالحرية، انغمسوا في بحر الحضارة الجديد
وضاعت هويتهم الحقيقية، لأنَّ حضارتهم القديمة بما تحمل من
مُثلٍ ودينٍ وقيمٍ لم تكن تعني لهم شيئًا في يومٍ من الأيام.

هزّت «كريستين» رأسها وكأنها توافق على كلام أنجيلا وأردفت
تقول: أنا أعتقد بأنَّ ضمير الإنسان هو عقيدته بالدرجة الأولى ومهما
اعتنق من أديان في هذا العالم فلن تفيده إنَّ كان بلا ضمير، ولكن يا
عزيزتي حتى الآن لم تقولي لي كيف اعتنقت الإسلام وماذا كانت
ردة فعل أهلك وأصدقائك خاصة بعدما ارتديت الحجاب؟!

ابتسمت أنجيلا، وقالت: كل يوم أسمع هذا السؤال تقريبًا
والجواب بمنتهى البساطة بعد أن أطلعت على هذا الدين ارتاح

له قلبي كثيرًا وأحسست بأنَّ هذا الدين هو أسلوب حياة متكامل وليس هو مجرد دين فقط، وقد أكدَّ أنَّ الناس سواسية والذي يعلي شأنهم العمل الصالح فقط، وعرفت أنَّ الإنسان خُلق فقط ليعبد الله في كل أعماله، قال الله تعالى في سورة الذاريات «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ»، والهداية طبعًا بالنهاية من الله، وقد كانت لديَّ مخاوف كثيرة، لا أنكر ذلك، وسألت زوجي ما الذي يحلله هذا الدين وما الذي يحرمه؟ فكانت إجاباته لي كلها من القرآن وعلمت حينها أنَّ الإسلام دين السلم والمسالمة ودين المحبة والتقوى، فقد قال تعالى: «وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِنِّمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» (سورة المائدة).

السلام اسم من أسماء الله، وتحية المسلمين هي «السلام عليكم» فرأيت كل شيء فيه يدعو للسلام، وهو ببساطة، دين يحرم القتل والزنا، والسرقة والربا وعقوق الوالدين، وحرَّم شهادة الزور وقد أوصى باليتيم والجار وعابر السبيل.

وهنا هتفت «كريستين»: كل هذا الذي سردته ياعزيزتي هو نفسه في الوصايا العشر، التي أعطها الله لشعب إسرائيل بعد الخروج من مصر، وهي أيضًا في العهد الجديد، وحين سئل المسيح، أي

عمل صالح أعمل لأرى الحياة الأبدية؟ أجاب: احفظ الوصايا،
فاليهود والمسيحيون يرجعون إليها كي يتعلموا منها، ولقد قمت
منذ زمن بعيد بدراستها عندما كانت أُمِّي تأخذني إلى الكنيسة.

واستطردت أنجيلًا: في البداية كان الأمر صعبًا لأنَّ الإسلام
في هذه البقعة من العالم والمجتمع الذي أعيش فيه مكروهٌ
(taboo)، أي شيء محرم، والدعاية هنا متطرفة، والناس
بالإجمال لا تعرف عن هذا الدين سوى قطع الرؤوس والتفجير
واللبس المختلف للنساء لأنهن يرتدين أغطية الرأس والملابس
الطويلة، والمحزن أنَّه كلما قام الإرهابيون بعمل مشين من القتل
والتفجير يبدوون بقول «الله أكبر»، حتى صار الناس يخافون
من هذا الدين ويتهمونهم بأقبح الصفات، وهم بالطبع لا يعلمون
أنَّ قتل النفس البشرية جريمة كبرى لا يرضاها الله تعالى ولا
يرضاها الأنبياء ولا يُسمح بها بجميع الكتب السماوية، ففي
سورة الإسراء قال تعالى: «وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا
بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي
الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مُنْصُورًا».

وضعت «كريستين» يدها على خدها وهي تسمع بحماس، ثم
قالت: يا عزيزتي الخطأ والمشكل هو بالناس وفهمهم الخاطئ

للدين وتحويله كما يحبون، أنا لا أمارس الدين ولكن لا أحب تشويه الحقيقة والظلم.

ردت أنجيلا بنبرة عالية: هذا صحيح وقد يستغرق الأمر وقتاً طويلاً لتغيير تلك الأفكار الخاطئة التي كوَّنها البعض عن الإسلام لجهلهم بحقيقته، وتصديقتهم كل الذي يسمعون من الإعلام غير المنصف أغلب الأحيان، وقد أحسست لفترة بأنَّ اختياري كأنه كان سخريه من معتقداتهم، وكان لا يمكن أن أخفي إسلامي لأنَّه على المدى البعيد سيكون حلاً غير معقول.

هذا صحيح (هتفت كريستين)، خاصة أنكِ اخترتِ ارتداء الحجاب، فهو علامة فارقة للمرأة المسلمة، ومن الصعب أن تمشي في الأماكن العامة هنا أحياناً دون أن ينظر إليك أحدهم باستغراب أو دون أن يسمعك تعليقاً عنصرياً أحياناً.

تابعت أنجيلا: ولا تنسي أن ملامحي تُشير إلى أنني أمريكية، كنت أرى البعض مصدوماً والبعض من المسلمين فرحاً، ولا أخفي عليكِ كنتُ أشعر في وقت من الأوقات، بأنني فقدت هويتي الأمريكية وأصبحت ظلاً لزوجي في بعض الأحيان، فقد أصبح مظهري مختلفاً جداً وأسلوب حياتي مستمداً من ديني الجديد، ولكن الشيء الجميل في هذا الدين أنني عندما نطقت

شهادة الإسلام أخبرت بأنني قد خلقت من جديد، بلا ذنوب وبلا أخطاء، لقد حدد الإسلام علاقتي مع الله وقد علمت بأنَّ المسلمات أخوات لي في الإسلام وكذلك الشباب هم إخوة لي وكأنَّ العالم أصبح بنظري أصغر بعد أن أصبحت مسلمة، لم تكن والدتي غاضبة لأنني اعتنقت دين الإسلام ولكنها كانت لا تحب أن تراني مرتدية غطاء الرأس لأنني أبدو مختلفة عن الجميع، فهي لا تريد أن تضع شخصيتي، ومن جهة أخرى كانت تخاف عليَّ من الأذى ممن يكرهون المسلمين، ولكنها بنفس الوقت وجدتي قد تغيَّرت كثيرًا وأصبحت بارَّة لها، أسألها لو كانت تحتاج مساعدتي بعد أن كنت أفكر بنفسي أغلب الوقت ولا أسأل عنها، ولم تعد بيننا تلك النقاشات الحادة والصوت العالي، شعرت بأنَّ أُمِّي لها قيمة كبيرة كما علمني هذا الدين بأنَّ الأم شيء عظيم، وبر الوالدين مطلوبٌ من الإنسان ليدخل الجنة، كنت أدخل البيت وألقي عليها تحية المسلمين (السلام عليكم)، فتضحك وترد عليَّ بمثل التحية.

ولكن بالنهاية والدتي لم تكن يومًا من هواة الدين ولا تقتنع بالأديان كلها، فقد قالت لي ذات ليلة بعد أن انتهينا من العشاء: اسمعي يا ابنتي أنا لست ضد اعتناقك هذا الدين ولكنني مازلت أعتقد بأنَّ الكتب السماوية ربما تهذب الإنسان قليلًا ولكن لا

تَخْلُقْ له ضميرًا، والدليل نهر الدماء الذي نغرق به كل يوم.

أجبتها هذا صحيح يا أمي، الضمير يولد مع الإنسان أو لا يولد!،
والحقيقة التي يجب أن لا ننكرها أنه في كل بلد من هذا العالم
هناك أفرادٌ مسالمون وطيبون، وهناك أيضًا الأشرار والقتلة ونحن
للأسف نعيش بينهم.

«الحرب بين الغرب والإسلام هي عقدة إنسانية،
نحن جميعًا نقفُ على قمة الجبل ويجب أن نتعلم
أن ننظر للعالم من خلال أعيننا وليس من خلال
سلطة معينة ومحدودة».

G, Willow Wilson

The butterfly Mosque

يالها من قصة رائعة قالت «كريستين».

أعتقد أن والدتك طيبة القلب وتتقبل الناس على اختلاف أديانهم
وجنسياتهم، فبعض الأمهات لا يتقبلن الأمر بهذا البساطة.

أجابت أنجيلا: ولكن أنا وزوجي لسنا من المتعمقين جدًا بالدين،
حيث يقول لي خير الأمور الوسط، وأنا أوافقه الرأي دائمًا، ومع

أنني بعد فترة قصيرة من إسلامي كنت أشعر نفسي كأنني أصبحت الناطقة الوحيدة للدفاع عن هذا الدين، وأحياناً لا أعرف كيف أشرح لهم أنني مجرد مسلمة عادية ولست بقديسة، ولا أحتاج الثناء لأنني اعتنقت هذا الدين وأنا لست مجردة من الأخطاء والذنوب.

همست «كريستين»: أتصور أنك شعرتِ بلحظة، قد أصبحت محامي الدفاع عن دين الإسلام لأنَّ هناك الكثير ممن يضمرون الكره والتحيز ضده بسبب الإعلام الذي يشوه الحقيقة.

نعم هذا صحيح يا عزيزتي، حيث كان أصعب الأمور التي واجهتها بعد إعلاني اعتناق الدين الجديد نظرة بعض المتعصبين والمتطرفين إليّ، كانت نظرة استهزاء واستغراب، كنت أتلقي أسئلة سخيفة مثلاً عن البلد الذي جاء منه زوجي مثلاً هل يركب زوجي الجمل في مدينته؟ وهل هو وسيلة المواصلات المتعارف عليها هناك؟!

قررت ذات يوم أن أذهب إلى المكتبة لأعرف بالضبط من هم المسلمون؟ وهل كانت لهم أي إنجازات أو هل كان لثقافتهم أي تأثير على الغرب، فذهلت تماماً عندما قرأت ما كتبه بعض المستشرقين عن الحضارة الإسلامية والعربية، وكم كانت فرحتي

عظيمة عندما وجدت أن الكاتب الأمريكي ويل ديورانت، كتب في الجزء الثالث عشر من موسوعته «قصة الحضارة» عن الحضارة الإسلامية وما كانت عليه من النبوغ والازدهار، كما تحدث عن العلوم والطب والفلسفة والتصوف والأدب والفنون، وكيف أثرت مسيرة الإسلام في الحضارة الغربية منذ فتح الشمال الأفريقي والحضارة الأندلسية التي كانت صلة الشرق والغرب.

لقد أنصف هذا الكاتب العرب عندما أشاد بعظمة المسلمين، وذكر الفلاسفة والمفكرين مثل ابن سينا الذي قدم كتاب «القانون في الطب» وابن رشد، ويعقوب بن إسحاق الكندي، وأبو بكر الرازي، وكما كان جابر بن حيان رائدًا في الكيمياء، حيث قام بعدة اختراعات، بالإضافة إلى إنجاز علماء الرياضيات وتطوير علم الجبر عن طريق محمد بن موسى الخوارزمي، ثم لا ننسى ابن الهيثم وقد وضع أقدم صيغة عامة لحساب التفاضل والتكامل، وأبدع في جراحة العيون وألف كتاب البصريات، وكان عالمًا مهمًا في الفيزياء، وهناك أيضًا الكثير من العلماء ممن ساهموا في علم البيولوجيا (علم التشريح وعلم النبات)، ولا ننسى العالم الموسوعي الفارابي، والبيروني.

وكما ذكر ديورانت الكتب والمترجمين وما نقلوه عن الحضارة الإسلامية.

هتفت «كريستين» فرحة: أنا سعيدة بسماع هذه المعلومات جدًا وعندما تكبر ابنتي «ليلي» سأقرأها لها لتكون فخورة بحضارة والدها.

ياله من كتاب قيم! فهو إحدى الشهادات المهمة للحضارة الإسلامية وأثرها على الغرب من كاتب مرموق، (أضافت أنجيلا)، ولقد وجدت أن العلوم في ذلك الوقت مرتبطة بالقرآن الكريم، فقد دعا الإسلام إلى إيجاد طرق لاستعمال النجوم، فقد قال الله تعالى في سورة الانعام «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» (٩٧) كما علمت أن المسلمين طوّروا أدوات الرصد والإبحار واستعمال الحسابات للتقويم الهجري، وقد بلغ عدد المؤلفات الفلكية والإسلامية تقريبًا عشرة آلاف، حيث امتد العصر الذهبي الإسلامي من القرن الثامن إلى الخامس عشر الميلادي.

وفي النهاية قالت «كريستين»: هل تصدقين لم أكن أعلم أبدًا أن الحضارة الإسلامية كانت قمة بالروعة والإنجازات العظيمة، فقد كانت أساس الحضارات الغربية في هذا العالم الذي يجحف حقها وعظمتها في هذا التاريخ.

كانت «كريستين» سعيدة جداً بسماع قصة أنجيلا، وتكررت اللقاءات بينهما، خاصة عندما تدهورت صحة «كيم» وتم نقلها مجدداً إلى المستشفى.

«لقد بحثت عن الله فوجدته في نفسي، وبحثت في نفسي فوجدت الله فقط» Rumi، (شاعر فارسي)

الفصل الخامس عشر

وفاة كيم وغياب محمود ومحاولة البحث عنه

لم تعد «كيم» تستجيب للعلاج، فقد توقفت كليتها التي نُقلت إليها من «سام»، منذ سنتين، وبعد أيام من الشعور بالألم والإرهاق، دخلت في غيبوبة فلم تعد تميز الأشخاص الذين كانوا حولها، كانت عيناها غائرتين، ووجهها شاحبًا تملؤه التجاعيد، شفتاها جافتين، وجسمها ملقى على الفراش بلا حراك.

كانت أنجيلا تسهر على رعايتها طوال النهار والليل، وتدعو لها بالشفاء العاجل، وقد سمعتها تتمم بكلمات وكان آخرها اسم «ليلي» فقد طلبت رؤيتها قبل أن تفقد وعيها بأيام قليلة، حيث احتضنتها وطبعت قبلة على وجنتيها الناصعتين، ولم تكن تعرف تلك الطفلة الصغيرة أن جدتها كانت تودع الحياة، حيث لفظت أنفاسها الأخيرة، قبل حلول عيد الميلاد بقليل، لم تعيش لتتمكن من تزيين شجرتها مثل كل عام، ولكنها كانت قد اشترت هدايا العيد لـ «كريستين» و«ليلي» ووضعتها في خزانتها، وكأنها شعرت بأنها ستفارق هذه الحياة عن قريب. لم تعيش بما يكفي لتكحل عينيها

بروية حفيدتها «لily» وهي تذهب إلى المدرسة، وقد عادت مبتسمة وبحقيبتها رسومات وألوان لترى ما رسمت أناملها الدقيقة من صور، وما كتبت يدها الصغيرة من حروف وكلمات، ولن تتذكر تلك الطفلة جدتها إلا من بقايا الصور التي احتفظت بها «كريستين» في ألبومها مع صور والدها «محمود» الذي غاب ولم يعد.

أصبحت «كريستين» وحيدة وحزينة بعد رحيل والدتها، فقد كانت لها الحضن الدافئ الذي تلتجئ إليه بعد سفر زوجها «محمود» الذي طال غيابه دون أن تعرف عنه شيئاً.

حاول «زاك» و«روزان» أن يمددا يد العون لها، وذلك بدعوتهما لها دائماً لتتناول معهما طعام العشاء، أما «لily» فكانت تقيم معظم الوقت معهما لتلعب مع إيفا ويعقوب، وكانت «راشيل» تقوم برعايتها وعوّضتها عن فقد جدتها وقد أصبحت تناديها جدتي بعد رحيل «كيم».

اقترب عيد «الهانوكا» أو عيد «الأنوار»، وهو عيد يهودي تحتفل فيه «راشيل» كل عام، حيث يأتي قبل عيد الميلاد أو الكريسماس بقليل، وتوقد فيه شمعدان «المينورا» الذي يتألف من ثمانية شمعات، حيث توقد كل يوم شمعة واحدة وتتلو صلاة الشكر للإله على مدى ثمانية أيام وتطهو الكعك المقلي والمحلى

بالسكر وفطائر البطاطا المقلية التي تؤكل مع صلصة التفاح، حيث اجتمع كل أفراد عائلتها لتناول هذه الكعكات اللذيذة.

كانت «راشيل» تحتفل بالأعياد اليهودية والأعياد المسيحية فيمتلئ المنزل بالفرح والسعادة.

قالت لـ «زاك» في ذلك اليوم: لقد زادت أعيادنا عيداً جديداً لأننا سوف نحتفل بعيد الفطر وعيد الأضحى أيضاً.

ابتسمت «روزان» ونظرت إلى «زاك» وهي تضع يدها على يده، ثم أردفت تقول لأُمها: كم أنت طيبة يا أُمي، كم أتمنى أن يكون العالم متفهماً لحق هذه الأعياد الثلاثة وحقهم بالحياة والاحتفال.

في فترة عيد الميلاد كانت البيوت والشوارع مزينة بالأضواء الملونة، وأشجار الميلاد تزيّنت بالألعاب الصغيرة والإنارة الجميلة، أما الحانة فكانت تعجُّ بالزبائن من جديد، حيث يأتي الناس للاحتفال بالعيد واحتساء الشامبانيا وتناول الأطباق العربية اللذيذة، وأحياناً يأتي الشباب العرب لتناول الحلويات والقهوة العربية، وتدخين الأراجيل.

يوم الميلاد بدأت «روزان» بتزيين شجرتها في البيت، واشترت الهدايا لطفليها ولجميع أفراد الأسرة، ودعت «كريستين» لاحتفل معهم في ذلك اليوم.

اعتذرت في البداية عن الحضور، ولكن «زاك» ذهب لمنزلها وأحضرها هي وابنتها لكي لا تشعر بالوحدة.

كان الأولاد يرتدون الملابس الجديدة ويفتحون الهدايا بفرح و«ليلي» كانت تتبع «راشيل» أينما ذهبت، فقد تعودت عليها وكأنها جدتها.

كانت المائدة عامرة باللحوم والأطباق الشهية التي حضرتها «راشيل» بمساعدة ابنتها «روزان» التي كانت تحب أن تطهي الطعام في الأعياد فقط، لتشعر بفرح العيد وتشارك في تزيين المنزل وتحضير الأطباق وشراء الهدايا، ولكن الجد «دافيد» كان يبدو متعباً جداً مع كل الطاقة الإيجابية التي تحيط به. لقد صارع المرض أكثر من سنتين وخضع ستة أشهر للعلاج، فقد كانت إرادته قوية وروحه لا تُكسر.

قال لـ«كريستين»: لا تدعي الحزن يهزمك يا ابنتي، وعيشي حياتك. لحظات الحياة ثمينة ولا تتكرر، ونحن لا نعرف ماذا يحمل الغد؟ ونحن لا نقدر قيمة الأشياء التي نمتلكها إلا بعد وقت طويل، وعندها سوف نندم كثيراً لأننا لم نشعر بقيمتها.

أتمنى أن تبقي أنتِ و«روزان» و«زاك» أصدقاء، ففي مرحلة من حياتكِ سوف ترين أن الأصدقاء الحقيقيين الذين يبقون معكِ

للنهاية هم قلائل جدًّا، فتمسكي بهم لأنَّهم عملة نادرة وصعب الحصول عليها.

أجابت «كريستين» وهي تخفي دموع الحزن في عينيها، هذا صحيح، وأنا و«روزان» سنبقى أصدقاء للأبد لأنني أجد فيها الطيبة والروعة وهي صديقة مخلصة جدًّا، لقد تعرفت على «محمود» من خلال «زاك» و«روزان» ولكن هو لم يعد موجودًا ولكن ترك لي صديقين رائعين وطفلة هي كل حياتي والنور الذي أبصر به الطريق، وأنا لن أتوقف عن الحب فلو فعلت ذلك، هذا يعني أنني أطفأت قنديل روحي.



مضت سنة كاملة لم تستطع «كريستين» أن تصدِّق أن «محمود» ذهب وربما لن يعود، فلا شيء يبشر بأنه مازال حيًّا أو حتى معتقلًا من قبل حزب من الأحزاب التي تملأ مدينة دمشق وبقية المدن والضواحي بعد أن نشبت الحرب في سوريا في ٢٠١١، كلما حاولت أن تقنع نفسها بأنَّها يجب أن تتقبل الحياة دونه، يظهر خياله أمامها ليضعها في وهم كاذب، أو انتظار ليس له نهاية، فلامحها ما زالت حية وجاثمة بعندٍ في ذاكرتها لم تبهت أبدًا.

سنة كاملة مضت أو اثنا عشر شهراً وحياتها أصبحت بلا حب ولا لون، تعيش فيها على الذكريات التي شاركها فيها «محمود» الأيام الحلوة والصعبة والتي مرت بسرعة البرق، ولكن الأيام التي جاءت بعد سفره كانت طويلة، ومملة، خالية من الفرح والسعادة تتخللها الكوابيس المزعجة، وطيور الحزن ترفرف فوق سماء أحلامها، وتحرمها من لذة النوم أحياناً، فتبقى ساهرة تناجي طيف «محمود» وتسأله متى سيعود ليرى ابنته التي كبرت وأصبحت تقول «بابا» ولكن دون أن تجده أمامها، فهي تمشي وتنتقل من غرفة إلى غرفة وقد بلغت عامها الثاني، وكأنها تبحث عن شيء ضاع منها.

كانت «كريستين» تستيقظ في الصباح وحيدة، فلا تجده مستلقياً بجانبها فتشعر بحسرةٍ وحزن عميق، والمساء كان يلفه الصمت ووحش الوحدة الذي كان يتغلغل في روحها، يملأ عينها بالأسى والدموع. سنة كاملة مضت والأعياد التي مرت دونه ليس لها بهجة أو معنى!، فتلك الأيام كأنها تكرر نفسها دون أي حدثٍ مهم، وكأنها ارتدت ثوب الحداد بعد رحيله.

كانت «كريستين» مازالت تجد بزيارة اللاجئين السوريين القادمين إلى المدينة راحةً لقلبها المتعب، ومهمةً تشغلها عن التفكير

المضني الذي تعاني منه وكأن هؤلاء الناس سيخبرونها بشيء مفرح أو خبر سار عن حبيبها الذي غاب.

ففي أحد الأيام اتصل أحد الذين جاؤوا من مدينة «محمود» بـ«زاك»، فقد كان يحمل له رسالة مهمة، فذهب إليه ولكن قلبه كان يحدثه بأن شيئاً سيئاً كان قد حدث.

دخل «زاك» المنزل المتواضع الذي يقيم به اللاجئ هو وأسرته ويدعى أبو سليم وكان صديقاً لأسرة «محمود»، وقد أخذ منهم رقم الهاتف. كان رجلاً في منتصف العقد الرابع من عمره متوسط القامة، كثيف الشعر، وممتلئ الجسم، ومستدير الوجه يشوبه الحمرة، أسنانه صفراء من التدخين وله شاربان قد زحف الشيب إليهما حتى استولى اللون الأبيض على اللون الأسود، كان يبدو عليه آثار التعب من الرحلة الطويلة.

سأله «زاك» بلهفة مفرطة: ما أخبار «محمود»؟

وهل رأيته قبل قدومك إلى هنا؟

أبو سليم: نعم لقد زرته عندما جاء من السفر وعزيبته بوفاة والده ولكن بعد ذلك اختفى فجأة من المنزل وانقطعت عني أخباره، وعندما اشتدت الحرب في تلك المنطقة رحلت والدته وإخوته

إلى منطقة أكثر أماناً، فقد كان وضع المنطقة خطراً جداً بسبب القصف المتواصل والبراميل الحارقة التي تنزل على البيوت فتهدمها وتقتل أصحابها، وقد سمعت من بعض أصدقائه أنه معتقلٌ، أما أنا فقد وصلت إلى شواطئ هذه المدينة بمعجزة إلهية.

تنهد «زاك» بحزن ووضع كفيه على وجهه ثم قال: لا أدري ماذا أقول لزوجته «كريستين» الآن؟! لو علمت أنه معتقل لفقدت صوابها؟ مسكينة هذه الفتاة لقد أحبت «محمود» حباً جنونياً وما زالت تعتقد بأنه سيعود قريباً.

سأل أبو سليم: ألم تحاول منعه من السفر، فالوقت الذي سافر به إلى مدينته كانت الأوضاع الأمنية خطيرة جداً؟!

أجاب «زاك»: لقد وقع القدر ولا فائدة من الكلام واللوم، ثم أردف قائلاً:

ليته لم يسافر، لقد طلبت منه أن يغير رأيه ويعدل عن السفر ولكنه كان عنيداً كالصخر، وأصرَّ على الذهاب لرؤية والده المريض والآن لا نعرف ما مصيره هل هو حي يرزق؟ أم أصبح في عداد الأموات؟

قال أبو سليم وفي عينيه حسرة عميقة لا تخفى على أحد للأسف يا أخي كل من يدخل السجن لا أحد يمكنه أن يعرف مصيره، وأحياناً يطلب الخاطفون فدية مالية لإعادة الرهينة ولكن حتى دفع المال وتكبد الخسارة ليس مضموناً أيضاً، فقد يرسلوا لك جثة المعتقل في كيس من أكياس القمامة بعد أن يقوموا بتقطيعها.

انتفض «ذاك» غاضباً وغمغم تبّاً لتلك الحكومات والعصابات، تبّاً لكل من تأمر على بلادنا المقهورة، لماذا قاموا بهذه الثورات العاهرة؟!.. لماذا؟!

لقد كانت البلد آمنة، والناس سعداء بما يملكون.. من الذي دهم بعقولهم ليقوموا بهذه الثورات الفاشلة؟ لقد دمروا أنفسهم ودمروا البلد وكانوا سبباً بتشريد الملايين من ديارهم!، يريدون الحرية الآن؟ بعد أن صفقوا لقائدهم لمدة أكثر من عشرين عاماً؟!

دور أبو سليم عينيه الصغيرتين من وراء نظارتيه بعد أن أشعل سيجارته ثم أخذ نفساً طويلاً وخفض صوته ثم قال وهو يلتفت يميناً وشمالاً: «يا أخي لا تتحدث بالسياسة الله يرضا عليك وخلينا نمضي هذه الليلة على خير».

ابتسم «ذاك» ابتسامة واسعة فانشقت شفتاه عن أسنان ناصعة البياض ثم قال ضاحكاً: «لا تخف يا رجل أنت في بلاد العم سام

لا أحد يمس شعرة من رأسك هنا إلا إذا لم تدفع الضريبة أو إذا خالفت القانون، فهنا يحترم الإنسانُ جدًّا، وتحترم حقوقه».

ضحك أبو سليم ساخرًا: «نعم هذا صحيح، القانون هنا يطبق على الغني والفقير، العامل التافه والوزير»، ثم أردف:

«لا تنظر إليَّ هكذا باستغراب! فأنا أعرف الكثير عن هذه البلاد فوق ماتتصور».

ضحك «زاك» مجددًا ثم سأله وماذا تعرف أيضًا قل؟

أعرف أنَّ أمريكا التي أنت فرحٌ بها هي عبارة عن امرأة جميلة ترحب بك فور وصولك وتهديك وردة، ثم قد تطعنك فجأة من الخلف بخنجر مسموم، ألم تسال نفسك لماذا لم تساعدنا أمريكا في إيقاف الحرب النازفة في بلدنا لحد الآن؟ ولماذا سمحت بالحرب لمدة تجاوزت الخمس سنوات؟ الناس في سوريا يقولون إن... (صمت أبو سليم قليلًا)، نظر «زاك» إليه بتمعن ثم قال: اكمل، لماذا توقفت؟!

سأقول لك ولكن لا تخبر أحدًا الله يخليك.. يقولون إن أمريكا وراء هذه الحرب وهي التي تموّلها أيضًا، فبعد أن دمرت العراق وليبيا، تريد تدمير سوريا الآن.

سرح «ذاك» قليلاً ثم قال: هذا ليس صحيحاً، لماذا نرمي كل مصائبنا التي تحصل على ظهر أمريكا؟ وأين العرب والشامي؟ على أساس نحن عرب وأمة واحدة؟

صمت أبو سليم قليلاً ثم قال: كان العرب أمة واحدة ولكن هذا الكلام انتهى من زمن طويل، ونحن نعيش الآن تحت جناح الخونة والمفسدين، لقد شعرت بالعطش بعد هذا الحديث المضني، دعني أذهب للمطبخ لأحضر شيئاً نشربه.

زوجتي خرجت هي والأولاد للحديقة القريبة، فقد شعروا بالملل من الجلوس في هذه الشقة الصغيرة.



أعدّ أبو سليم إبريقاً من الشاي ووضع قليلاً من الحلويات الشامية التي أحضرها معه، ارتشف «ذاك» شيئاً من الشاي ثم سأله وماذا نفعل الآن؟

أبو سليم: أنت تعرف الوضع هناك في البلاد! ثم أخذ قطعة من البقلاوة ووضعها في فمه دفعة واحدة، ثم تمتم لنفسه: لذيدة هذه البقلاوة!

سأخذ قطعة ثانية.

شرب «زاك» كوبًا ثانيًا من الشاي ثم استطرد: تعتقد لو تحدثنا مع أحد الذين يعملون مع الحكومة بإمكانهم معرفة مكان «محمود» ومن ثم الإفراج عنه؟

أجاب أبو سليم: يجب أن نحاول ولا توجد خسارة بذلك، المهم أن لا تؤجل الموضوع، خاصة أنه مضى على غيابه أكثر من سنة الآن ونحن لا نضمن الظروف.

هتف «زاك»: لدي قريبٌ متقاعدٌ وكان يعمل برتبة عميد في الجيش سأتصل به لأعرف ماذا بإمكانه أن يفعل من أجله.

على كل حال أشكرك على ضيافتك ووقتك، ولكن هناك سؤال يحيرني يا صديقي؟

ما الذي جاء بك إلى هنا؟ إذا كنت تعرف كل هذه الأشياء عن أمريكا وبأنها غدارة وغير مضمونة المستقبل، وتطعن الناس من الخلف؟!

ردّ أبو سليم: الحاجة والفقري يا زكريا. قل لي أنت ماذا تفعل إذا فقدت بيتك ومالك وقريتك ووطنك. كله أصبح مرتعًا للكلاب

الضالة؟! وكما سمعت بأنّ الذين قدموا إلى هنا من المهاجرين من جميع أنحاء العالم حصلوا على مساعدات ومعونات مادية وعناية طبية مجانية أيضاً، وأنا لدي طفلان لديهما إعاقة، ابني الكبير لديه قدم مشوهة والثاني يحتاج عملية جراحية لعينه، وأنا ليس لدي المال من أجل تلك العمليات، وأنت تعلم حالتنا المادية في البلاد، الفقر كان ينهشنا قبل وقوع الحرب وكنا بالكاد نوفر ثمن اللقمة والعلاج البسيط، فما بالك الآن ونحن نعيش في بلد محطم ويعاني من ارتفاع جنوني بالأسعار، الدولار يا رجل بخمسمائة ليرة سورية الآن! بعدما كان بخمسين ليرة فقط!

لقد كنت أعمل في مدينتي سائق تاكسي، وكنت أجنبي بعض المال الذي يكفيني لأنفق على أسرتي، فأنا لم أُنل قسطاً وافياً من العلم وقد حصلت على الشهادة الابتدائية، لا أدري ماذا سأعمل هنا في هذه المدينة؟

سأله «ذاك»: ألم تقدّم لكم مفوضية اللاجئين أي مساعدات؟

أجاب أبوسليم: نعم ولكن اعتباراً من الشهر القادم نحن مجبرون على أن نعمل أنفسنا ونبحث عن عمل أنا وزوجتي، وكما ترى لا يوجد لدي سيارة لأنقل في المدينة وأبحث عن عمل وقد أوقفوا لنا الآن البطاقات المجانية لشراء الطعام أيضاً.

صرخ «ذاك»: يا إلهي! وماذا ستفعل؟

لا أعرف يا أخي، غداً سأذهب للمسجد وأخبرهم عن وضعي المادي، وربما يساعدونني مؤقتاً ريثما أجد عملاً مناسباً أكسب منه لقمة العيش، يجب أن يعرفوا عندما وقعت الحرب فقدت كل شيء، حتى بيتي البسيط الذي تداعى تحت القصف، والأطفال لا يعرفون ما معنى أنك فقيرٌ أو ليس لديك مالٌ لتؤمنَ لهم احتياجاتهم، فهم يريدون الطعام والكساء والدواء وووو، وعندما يستيقظ طفلي الصغير في الصباح الباكر يريد خبزاً وحليباً، وبعد اشتداد الأزمة الاقتصادية أصبحنا نعاني من شظف العيش وصعوبة شديدة بإيجاد كل متطلبات الحياة الأساسية، فلذا لم يعد بإمكانني الانتظار، وأنا أرى أطفالي يتضورون جوعاً وبرداً، ولذا كان لا بد من الرحيل لأي بلدٍ تمنحنا مساعدات لنستطيع الاستمرار والعيش بكرامة. لقد ركبت زورقاً صغيراً أنا وعائلي مع خمسين مسافراً وهو لا يتسع إلا لعشرين راكباً فقط!

حمداً لله على سلامتك. (قال ذاك وهو يرتشف كأساً ثانياً من الشاي) ومن كان على متن القارب؟

لقد كان المسافرون من جنسيات مختلفة، منهم المصري والسوري، الصومالي والإريتري، كانت الأرجل تصطك

ببعضها لضيق المكان، بشكل يتعذر معه الجلوس، الوقوف أو النوم، ولم يكن هناك ما يكفي من الطعام والشراب، فقد كان هناك بعض الخبز والجبن المعلب وقليلٌ من البسكويت والماء، والمهريون يبيعون الطعام بأسعار خيالية وكانت العائلات التي معها أطفال تضطر لشراء تلك المأكولات الباهظة، والجميع يعاني من الحر في النهار فتشقق الشفاه والجلود من الجفاف، وفي الليل كان البرد ينخر في العظام فيؤلمها، والوضع صعب للغاية، الرائحة النتنة تنبعث من الأشخاص والقذارة في كل مكان، كان الجميع يتحدث عن أفضل البلدان التي تقدّم المساعدات للاجئين، كالسويد وألمانيا وعن أفضل الطرق للتقديم إلى اللجوء للحصول على الإقامة، والبعض يحاول أن يلفت الجو بنكتة عابرة ليضحك الناس ويبعد عنهم الحزن، وبينما كان الناس يواسي بعضهم البعض، فجأة هبت عاصفة قوية وعلا الموج كثيراً .

وأصبحت السفينة كالريشة التي تتأرجح بالفضاء، مما جعل الناس يميلون إلى جهة واحدة ويتخبطون ببعضهم البعض، وعندها شعرت بشيء يصفعني على وجهي وينبهني بأنني أصبحت لاجئاً. نعم لاجئ وليس لي بيتٌ أو وطنٌ، وكأنني بحلم أو كابوس مزعج تمنيت لو أنني أصحو منه، شعرت برعبٍ رهيبٍ حتى أحسست

بأنّ دمائي تبيست في عروقي، ثم بكيت وانهمرت دموعي كالنهر
وامتزج نحبي بصوت بكاء الأطفال وارتفعت صرخات النساء
وعويلها واستغاثات الكهول وسط جو من الرعب القاتل، ولم
يعد يستطيع الناس رؤية بعضهم البعض! وبثوانٍ قليلة انقلبت
السفينة بمن فيها وعلق قسم تحتها، وغرق الذين لا يلبسون ستر
النجاة، والذين كانوا يلبسونها قفزوا إلى البحر، ثم صمت أبو
سليم للحظات ومسح دموع حارة تدرجت على خده، ثم تبعها
سيلٌ كان حبيس مقلتيه.

وتابع أبو سليم: وبعد وقت قليل أصبحت الجثث تطفو على
وجه الماء، وبعد هذا المشهد المؤلم أتذكر أنّ فرق الإنقاذ جاءت
ونقلت الناجين إلى المستشفى القريب لإجراء الإسعافات اللازمة
لهم، ولكن كان هناك الكثير الذين بلعوا المياه المالحة وغرقوا
وتعذر انقاذهم، ومن قضى نجه أصبح طعاماً لسمك القرش.

تنهد «ذاك» تنهيدة عميقة، وقال بصوت تغلغل فيه الحزن: يا
إلهي ما هذا الذي أسمعه؟ كأنه فيلم رعب مخيف! ليتني لم
أسألك ولم أفتح جروح الماضي النائمة، على كل حال سوف
أعطيك سيارتي القديمة لتعمل عليها فأنت تعرف القيادة ولديك
إقامة قانونية الآن، كل الذي تحتاجه هو رخصة القيادة، وخلال

الأسبوع المقبل سوف آخذك للمركز لتقدم للامتحان وستنجح
وتبدأ العمل، في هذه البلد إن لم تعمل لا أحد يعطيك دولارًا
واحدًا، صدقني.

شكر أبو سليم «زاك» كثيرًا لكرم أخلاقه ولطفه، ودعا له بالخير
والسعادة.

الفصل السادس عشر

الجد دافيد.. والعشاء الأخير

في يوم الجمعة بدأت «راشيل» التجهيز لعشاء السبت، فاشترت الخضار والفواكه واللحوم، وقامت بإشعال الشموع، ثم قالت دعاءها «يا الله.. يا ربنا.. يا ملك الكون.. يا مَنْ قدستنا بوصاياك، وأوصيتنا أَنْ نضيء يوم السبت»، وعندما أصبحت المائدة جاهزة دعت الجميع لتناول الطعام، كانت قد حضّرت رغيفين من الخبز الأبيض (حالا) وغطته بالقماش المطرز ووضعت إناء التوابل وكؤوس النبيذ. كانت تحتفل مع أسرتها بعيد «روش هاشناه» وهو عيد السنة اليهودية ويؤكّل فيه العسل والتفاح وذلك رمزٌ لبداية سنة جميلة، وبعد تلاوة الدعاء بدأ الجميع بأخذ قطعة من خبز الشبات، جلست «روزان» وطفليها بجانب زوجها «زاك»، الذي كان مهموماً وشارد الفكر بسبب قصة «محمود» واختفائه، وكانت «كريستين» منهمكة بابتها الصغيرة «ليلي» الطفلة العنيدة التي تُصرّ على أَنْ تأكل لوحدها بعد أَنْ تجاوز عمرها العامين، فتبعثر فتات الخبز على الطاولة والأرض، وعندما تؤنّبها أمها تركض وتذهب لـ«راشيل» لتجلس في حجرها، فتبتسم «راشيل» وتقبّلها، فقد كانت تعتبرها مثل حفيديها إيفا ويعقوب.

كان قد بدا المرض والتعب على الجد «دافيد»، وقد أصبح بطيء الحركة، وينتقل على كرسي متحرك بعد أن أنهكه المرض، فقد شحب وجهه وغارت عيناه الخضراوان، وبدا أكبر من عمره بكثير خلال أيام قليلة ولكن ذاكرته لم تتآكل فما زال يميز الأشخاص ويسميههم بأسمائهم واحدًا واحدًا، ولكن سمعه بدأ يخف تدريجيًا، إلا أنه كان يدون شيئًا من مذكراته وحكمته كل يوم ليتركها لابنته «روزان» لتقرأها من بعد رحيله، في ذلك اليوم بعد أن انتهى العشاء في منزله شعر بتعب مفاجئ وألم شديد في صدره، فقد كان غير قادر على الجلوس لفترة طويلة وراد أن يستلقي على سريره.

طلب «دافيد» من ابنته أن تأخذه إلى غرفته، فقد كان يبدو أنه استسلم في معركته ضد الموت والمرض، وقد بدت ساقاه المتعبتان كساقبي سجين حُرّم من الطعام لفترة طويلة؛ لأنه كان لا يأكل إلا القليل من الطعام، فقد كان يتعذر عليه أكل اللحوم والفاكهة، وكانت وجبته الوحيدة هي صحن صغير من الحساء وقليلًا من عصير الفاكهة.

ركض الطفلان مع «ليلي» التي تلحق بهما دائمًا لغرفته وتناديه (grandpa) أي جدي، وكأنهم شعروا بأن جدهم اقترب من

النهاية وراحوا يمسكون بيده التي امتلأت بالعروق والتجاعيد لكي يقوم ويلعب معهم، ولكن وقعت يده فجأة، وهو يقول أحبكُم كثيرًا أيها الأشقياء الثلاثة.

دخلت «روزان» غرفة والدها فوجدته مغشيًا عليه، والأطفال من حوله ينادونه ولكن لا يجيب! أسرع إلى خارج الغرفة وهي تبكي وتنادي على «زاك» ليساعدها بنقله إلى المستشفى وعندما وصلوا أدخل العناية المركزة، ولكن لم تمض ساعات حتى أبلغهم الطبيب بأنه في حالة إغماء، وقد لا يصحو منها لأن لديه مشاكل صحية كثيرة، ومرض السرطان قد استفحل في أغلب جسده وأعضائه، وقد كان الأطباء يتوقعون رحيله منذ عامين، ولكن معجزة السماء حفظته حيًا لحفيديه بعد أن تحسنت صحته قليلًا في ذلك الوقت، فقد كان إصراره على الحياة كالسيف الذي يقطع رأس المرض كلما بدأ بالنمو في شجرة جسده الهرمة.

كانت ابنته تمكث إلى جانب سريرهِ تقرأ له الأدعية من الإنجيل وتارة تقرأ له قصصًا لكتاب كان يحب القراءة لهم مثل هاروكي موراكامي وإيرنست همنغواي، وبقيت أسبوعًا كاملاً، وهي تنتظر سفينة الأمل لتحمله إلى غيمة الشفاء ولكن بلا جدوى، فقد كانت حالته تتدهور يومًا بعد يوم.

جاء «زاك» من الحانة بعد منتصف الليل ليطمئن عليه ويرى «روزان» فقد اشتاق إليها، كما أن الأطفال يبحثون عنها وعن جدتهم «دافيد» ويقرعون باب غرفته ولكن بلا جواب.

كيف هو الآن يا حبيبي؟ سأل «زاك» وهو يدلف إلى الغرفة وقد ظهر عليه التعب.

روزان: هو في حالة إغماء، لا يسمع ولا يتحدث!

دخل الطبيب المناوب الغرفة، وقام بفحصه فوجد نبضه ضعيفاً جداً، ولم يكن قادراً على سماع دقات قلبه، هلع الطبيب بنقله إلى غرفة الإنعاش في العناية المشددة فوراً! ومنع الجميع من زيارته.

في غرفة العناية كان الجد «دافيد» غائباً.

طلب «زاك» من زوجته أن تذهب معه إلى البيت لترتاح وترى طفلها فقد كانت والدتها «راشيل» تقوم بالعناية بهما، ولكن «روزان» رفضت وأصرّت على البقاء في المستشفى لتطمئن على والدها.

كانت أنجيلا الممرضة التي أشرفت على علاج «كيم» لا تزال في المستشفى. ابتسمت «روزان» عندما رأتها وشعرت بالاطمئنان،

كانت قد تعرّفت عليها عندما كانت تزور والدّة «كريستين» وعرفت أنّها متزوجة من زوج عربي الجنسية ودعتها لزيارتها، هتفت أنجيلا: لا تقلقي سيكون بخير إن شاء الله، وأنا سأتابع حالته واطمأنك عليه.

مضت ثلاثة أسابيع و«دافيد» يقبع في غرفة الإنعاش إلى أن جاءت أنجيلا ذات يوم لتسأل عنه في الصباح الباكر وعلمت أنّه فارق الحياة، فالأيام كانت تتكدس على جسده بكسل ومرارة، جعلت منه روحًا وقلبًا متعبًا كان ينشد الخلاص والراحة بعد أن شرب كأس الحياة الأخيرة الذي كان مترعًا بالآلام، فقد رحل بعد صراع أليم مع المرض والألم، حاول خلال حياته أن يبحث عن حل لهذا الوجود الغامض فلم يجد، وأيقن أن هناك الكثير من المشكلات التي قد تعترض طريق الإنسان ولكن قد لا يجد لها الحل إلا متأخرًا. لقد عاش بروح محاربة لآخر لحظة في حياته، فقد كان يريد أن يعيش خمس سنوات حتى يأخذ حفيديه إلى المدرسة، في ذلك الوقت كان الأطباء قد أخبروه بأنّه سيعيش أسبوعين فقط، فعاش أكثر من سنتين بعد أن نُقل إليه نخل العظم من ابنه «جاك»، تحسنت صحته كثيرًا وعاد لحياته الطبيعية وأصبح يعمل بالحديقة ويزرع الورود في أيام العطل، ويذهب للكنيسة لتأدية صلواته، ويلعب حفيديه ويقرأ لهما القصص الجميلة ويغني

معهما ويعزف على البيانو أغانيهما المفضلة، فقد كانت لديه طاقة عظيمة وإرادة قوية جعلته يعيش شهوياً وأياماً كأنه سرقها من جيبه القدر، لقد زرع «دافيد» قبل رحيله بعام ونصف ثلاث شجيرات صغيرة من البرتقال لكل حفيد شجرة يسقيها ويرعاها كل يوم، وكان يراقب نموها، ولكن كان نمو حفيديه أسرع من نمو تلك الشجيرات، وقال لهما الشجرة الأولى هدية مني والثانية هدية الجدة «راشيل» والثالثة هدية من بابا «زاك».

كانت «روزان» تأخذ الأطفال كل يوم ليسقوها ويعتنوا بها، وكانا يسألان عن جدتهما فتخبرهما بأنه ذهب ليحضر سماداً للأرض وسيعود قريباً، فهي لم تتقبل فكرة الموت وبأنه رحل ولن يعود، فقد كانت تعيش حالة صعبة بعد رحيله ورفضت أن تلفظ كلمة الموت مع اسمه، وكلما طرق أحدهم باب المنزل، ركض الصغار ليفتحوا الباب، عسى أن يكون الطارق الجد العجوز «دافيد».

كانت «روزان» تزور قبره كل يوم وتحدث إليه بكلمات مسموعة وأحياناً بصمت، فسمع رده وهو يجيب على أسئلتها، قال لها في أحد الأيام: الحياة هنا في الدار الآخرة جميلة جداً، لا صراع بين الناس، لا حقد، لا غيرة والكل يرتدي ثوباً واحداً ويأكل طعاماً واحداً وتسقيهم السماء من دموعها النقية ويستمعون لموسيقى

واحدة، حيث تعزف لهم لحن الخلود الجميل، لاتحزني
يا ابنتي لأنني رحلت فيومًا ما ستأتين إلى هنا وستتابع أحاديثنا،
وسأروي لك قصصك المفضلة التي كنت تُحبين سماعها ذات
يوم.



دخلت «روزان» غرفة والدها بعد رحيله بأسبوعين، فقد
استجمعت شجاعته واستسلمت للقدر، كان عليها أن ترتب
المكان الذي كان يمكث فيه وتجمع أوراقه المبعثرة، وجَّهت
بصرها إلى سريره وتأملته للحظات فتخلت لبرهة من الزمن
أنه ما زال موجودًا، ممددًا على سريره مرتديًا نظارته السمكة
وعلى رأسه قبعته الصوفية، ويقرأ الإنجيل ويقول لها تعالي يا
ابنتي واجلسي بجانبني، نزلت دمعة ساخنة من إحدى عينيها ثم
بدأت تأخذ زجاجات الدواء الفارغة، وبعضها كانت جديدة لم
يستعملها قط، وعلى الطاولة القريبة منه كان هناك الكثير من
الكتب وألبومات الصور وقصاصات من الورق التي كان يكتب
عليها، بالإضافة إلى صحف ومجلات قديمة متناثرة كانت هنا
وهناك، كانت «روزان» تعرف أن الفوضى لا تهمه أو لا تزعجه
أبدًا، بل على العكس كانت تثير شهيته للكتابة.

فتحت «روزان» دفتر مذكراته وقرأت آخر ماكتب: «أتمنى أن أموت بلطف ودون ألم وخوف، وأن تخرج روحي بهدوء إلى بارئها دون أن أطلب من الأطباء أن يقطعوا لي حبل حياتي، لأنني لم أعد قادراً على تحمل الألم ولم أعد قادراً على العطاء.

أعرف يا ابنتي أنك ستفتحين هذا الدفتر وتقرئين ما كتبت بعد رحيلي، لا أعتقد سيكون عندي وقت لأكتب للجميع فأنا أشعر الآن بأن الموت بدأ يحيك لي ثوب الوداع، ليدعوني إلى حفل موتي. الذي أريد أن أقوله لك إنني أحبك جداً أكثر من أي شيء في هذه الحياة، ولكن لا أريدك أن تحزني بعد ذهابي، فجميعنا راحلون والرب هو الباقي، وقد نختلف في طريق الرحيل، والفقد نجده في كل زوايا الحياة. عندما نموت يا ابنتي لن تذهب أرواحنا بعيداً، بل ستبقى قريبة ممن نحب وسوف نلتقي بهم عندما نحيا من جديد. لقد كُتِبَ على الإنسان الولادة من رحم الحياة الواسع، والخروج إلى مكان ضيق، قد لا يتسع لآلامه التي يحملها عند الرحيل، والحياة هي هبة من الله يجب أن نعيشها بسلام ونصنع فيها السعادة ببساطة، ونحن لا يمكننا أن نجعل فيها هذا العالم مثاليًا ولكن من الممكن أن نغيّر أنفسنا ليصبح عالمًا أفضل، وبوجود الحب تزهر ورود الحياة، ويصبح الزمن قيثارة نعزف عليها ألحان السعادة والفرح، وعندما يختفي الحب من

حياتنا نعيش الموت كل يوم على مدى الأيام والساعات، وتكثر الحروب بين البشر والشعوب، وتصبح الحياة صعبة وأحياناً مستحيلة.

وفي أغلب الأحيان نكون نحن الذين نخلق تلك الصعاب ونضع الأسوار بيننا وتتسبب بشقاء البشرية، فالحب إكسير القلب ونبضه، ونحن نحب الحياة لأجل السعادة التي يمنحنا إياها الحب، ونكره الموت لأنه انقطاع الحب كله. أتمنى لك كل السعادة والهناء أنتِ وأسرتكِ الجميلة، ولا تنسي أن تسقي شجرتي وشجرة «راشيل» وشجرة «زاك» لكي لا تذبل تلك الأشجار، ولا تنسي أن تكتبي لي رسائل بعد غيابي، فسوف أستمع لك وأعرف أخباركِ أنتِ وأطفالكِ الصغار، كلما زرت قبري بعد رحيلي».

والدُّك دافيد

انتهت «روزان» من قراءة تلك الأسطر التي كتبها والدها قبل رحيله بأيام، فلم يكن قادراً على كتابة المزيد، ولكن هناك المزيد من الأوراق الأخرى التي دوّن فيها الكثير من الحكمة والنصائح لابنته المفضلة التي كانت ترافقه معظم الوقت خاصة قبل وفاته.

كانت كسيرة القلب ومجروحة المشاعر، فقد غابت ابتسامتها
وبُهِت جمال وجهها بعد رحيله.

كتبت له بعد مرور شهر على غيابه: «اليوم مضى شهر على رحيلك
يا والدي، علقت صورتك على الجدار، نظّمت كتبك على رفوف
المكتبة، وعلقت ملابسك على المشجب التي لا تزال تحمل
رائحتك، كان الليل طويلاً هنا، وكانت الأشجار تحدثني عنك،
والسماء فتحت أبوابها لتستقبل ضياء وجهك الذي انتقل إلى
الأعلى فكنت قريباً من الله، وأنا قريبة جداً من روحك التي ما
زالت تتغلغل في كل مسامات الأرض. أصبحتُ هشة بغيابك،
أخاف أن يضيق الوقت عندما يطول الغياب فيصبح كالتابوت،
وأن تتوقف النجمات عن الغناء بالليل، انهمرت دموعك عندما
علمتُ أنني أحببت رجلاً شرقياً وفرحت لفرحي. لم تغضب لأنّه
كان عربياً! قلت لي يوماً أيتها الشقية المهذبة، أنتِ تملكين قلباً
بحجم السما، ولذا أنت تُحيين كل البشر، وقلبك يتمدد كل يوم
ليتسع المزيد، كم أشبهك يا أبي! لم أستطع أن أشبه أحداً غيرك!
أنت يا والدي بحرٌ عميقٌ دُفن تحت التراب أخاف أن تبلل الأرض
فنغرق يوماً ما، سأكتب لك كل فترة قصيرة لتعلم أنني بخير وما
زلت اشتاقك!»!

حاول «زاك» أن يخفف حزن «روزان» وتركها تمكث في منزل والديها، فقد كانت تتشج بالسواد ويملاً قلبها الحزن والأسى، وتجلس في غرفة والدها ساعة من الزمن وكأنه ما زال موجوداً، فقد كانت تشعر بروحه مازالت ترفرف فيها.

كان «زاك» يشجعها أن تستعيد نشاطها وقوتها من أجل طفلها، ولكنه بذات الوقت أصبح مشغولاً بقصة «محمود» وكيف سينقذه من الإعتقال ليرجع لبيته وزوجته، فبعد عدة أسابيع تمكن قريبه في المدينة من معرفة مكان «محمود» والسجن الذي يقبع به، فقد كانت له صلاتٌ برجال المسؤولين، ويعرفون أماكن السجناء، ولكن الرجل المسؤول طلب فدية ليست بقليلة، لذا كان لابد أن يستشير «روزان» و«جاك» حتى أخبر «جاي» صاحب الحانة بذلك الخبر وطلب منه مساعدة مالية لكي يرسل الفدية لإطلاق سراح «محمود».

بدأ الجميع بالمساهمة لجمع المال المطلوب، ولكنهم لم يخبروا «كريستين» ليتأكدوا أنه خرج من السجن وركب الطائرة، لأنهم كانوا خائفين على مشاعرهما لو أن قدومه لم يتم لسبب ما، وقد كانوا فرحين من أجل «كريستين» و«ليلي» فقد ظهر شعاع الأمل الذي تعلقوا به، وما هي إلا أيام حتى بدأ «زاك» بجمع الفدية لإرسالها للشخص الذي وعد بإخراجه، كان المبلغ كبيراً

ولكن صاحب الحانة «جايي» وعد بأن يدفع مبلغًا كبيرًا من أجل إطلاق سراح «محمود»، أما «روزان» و«راشيل» فبدأتا بصنع الحلويات لبيعها في الكنيسة والسانيجوك في أيام السبت والآحاد للمساهمة بجمع المال المطلوب.

كانت «كريستين» مازالت متشبثة بالأمل وبأن حبیبها لا بد أن يعود، فروحها وروحه توأمان ولا يمكن أن ينفصلا.

خرجت ذات مساء تمشي في شوارع إيبور بلا هدف، عسى أن تتبدد سحابة الحزن التي لا تفارقها وكانت تسأل نفسها، هل سيعود «محمود»؟!

مع أنها لم تعلم أنه سجين، كان قلبها يحدثها بأن شيئًا قد حصل له فكانت تجدد السؤال: هل هو على قيد الحياة؟ وإن عاد هل سيكون معافي؟ فأنا أريده أن يعود تحت أي ظرف وأنا مستعدة أن أخدمه طول عمري حتى ولو جاء على كرسي متحرك.



انتهى «زاك» من جمع الفدية بعد مرور أسابيع طويلة، وقام العديد من أصدقائه بالتبرع له، وساهمت «راشيل» وابنتها «روزان» ببيع

الكثير من الفطائر والكعك وجمعت كل منهما مبلغاً كبيراً، وتمكّن «زاك» من إرسال المبلغ الكبير للشخص المطلوب الذي سيسعى إلى إخراجه، كان الجميع فرحين بأنّهم ساهموا بعمل إنساني كبير لإنقاذه من المكوث وراء القضبان، وبدأ الانتظار، فقد كان «زاك» ينتظر خروج «محمود» بفارغ الصبر، لأنّ قلبه كان يتقطع حزناً على «ليلي» فقد سافر والدها وغاب دون أي خبر منه، ثم فقدت الجد «دافيد» الذي كان يحبها ويعتبرها حفيدته، وكانت تبحث عنه كلما ذهبت لمنزل «روزان»، وكانت تحاول أن تفتح باب غرفته المغلقة لأنّها كانت تظنّ بأنّه مازال موجوداً فيها يقرأ الإنجيل.

اقترب العيد من جديد، كل شيء كان دافئاً وجميلاً، طاولة الطعام اللذيذ، والخبز الذي تصنعه «راشيل»، والشموع التي تذرف دموعها، وكرسي الجد «دافيد» الفارغ ما زال يسأل عنه، وهو محاطاً بنوره وعطره الذي بقي، كأن روحه كانت تحوم بالغرفة وترصد كل تفاصيلها،! فقد كانت الأيام تمضي بسرعة كبيرة بالرغم من الألم الذي تركه خطواتها والجرح الذي تنقشه في القلوب، الأطفال يكبرون وينسون قليلاً مَنْ كان حولهم فقد تجاوزت أعمارهم الثلاثة أعوام، فهم يتبعون «راشيل» عندما تذهب إلى المطبخ لتصنع لهم الفطائر اللذيذة وكانت تحاول إشراكهم في صنعها فيمسكون

بقوالب المعجنات ويقطعون الكعكات اللذيذة بالأشكال التي يحبونها، كانت الجدة تحاول أن ترسم ابتسامة على وجهها بالرغم من غصة الفراق والحزن الذي كان يتسرب إلى ملامحها أحياناً، أما «روزان» فكانت كالفراشة الثكلى، تجلس عند عتبة الباب أحياناً لتقرع أبواب الذكريات التي تحيط بها لتعيش على أصواتها التي ما زالت تتكبد في قلبها وأذنيها، وكانت مشاعر الفقد تتلبس الجميع، فقد علموا أن الحياة لا تتوقف لرحيل إنسان، تستمر بدوران عجلتها دون أن تلتفت إلى الوراء.



«إن ذكريات الأشخاص ربما هي الوقود الذي يحرقونه حتى يظلوا على قيد الحياة ما بعد الظلام»
(هاروكي موراكامي)



«زاك» لـ «روزان»: ميلادٌ مجيدٌ يا حبيبتي. قبلها ووضع يده على يدها. كانت تحمل «ليلي»، فقد كانت تبقى عندها طيلة فترة عمل «كريستين».

سألت «زاك» وهي تنظر إلى «ليلي»، وتمسح بيدها على شعرها الأشقر: هل تعتقد سيعود «محمود»؟ كم أتمنى أن أخبر «كريستين» بالذي قمنا به!

زاك: لا إياك أن تخبريها بشيء، نريد مفاجئتها بهذا الخبر المفرج.

هتفت «روزان»: ولكن، افترض أنه لم يعد، وأن هذا الشخص الذي تقاضى المبلغ كان محتالاً. نحن في زمن الكذب والاحتيال وقلة الضمير! لا تنسِ هذا «زاك»!

«زاك»: أعرف ذلك يا «روزان» ولكن نحنا عملنا واجبنا تجاهه، وستتعلق بضوء الأمل حتى لو كان ضعيفاً، أعرف كم هو صعب ذلك الانتظار والأصعب منه التعلق بحبال الوهم الضعيفة، فليس هناك شيء مضمونٌ وصادقٌ في هذه الحياة سوى الموت.

لا، لا تشاءم أرجوك (ردت روزان)، لا أريد أن أسمع شيئاً عن الموت ولا أحب المواعظ، اتركني بجهلي، هكذا سعيدة أنا به! فأنا عندي يقينٌ بأنه سيعودُ وستحضنه «كريستين» وسيقبل ابنته «ليلي» التي لم يرها منذ أشهرٍ طويلة، وسندعو الجميع إلى العشاء في بيتنا ونشرب نخب سعادة كل الأصدقاء والمحبين.

أجاب «ذاك»، أتمنى أن يتحقق حلمك يا حبيبتي المتفائلة، فمن
عينيك أرى بزوغ الشمس ومن وجهك يستمد القمر شعاعه.

ضحكت «روزان» وأردفت: يا لك من شاعر وحالم وأنا أحبك
بجنون، ولن أسمح لك بالسفر إلى أي مكان إلا برفقتي أنا،
فحياتي دونك ليلٌ حالكٌ بلا شعاع ولا لون أيها المجنون.

الفصل السابع عشر

لقاء روزان بمرجانة بعد مرور عامين .. ومجىء بهاء الدين إلى أمريكا

عادت «روزان» لحياتها الطبيعية بعد مرور بضعة أشهر على وفاة والدها، وأصبحت «راشيل» وحيدة في منزلها الكبير، ولذا طلبت منها ابنتها أن تسكن معها لكي لا تشعر بالوحدة والحزن، خاصة بعد أن انتقل ابنها «جاك» الوحيد إلى شقة صغيرة في سوهو بالقرب من عمله، وأصبح سعيداً في عمله في حانة الهايد بارك، وقد جاءت صديقتها التي تعرّف عليها بالحنة وسكنت معه وأصبحت تساعد بتسديد الفواتير.

كان «زاك» سعيداً بانزياح غمامة الحزن التي لازمت منزله بعد وفاة الجد «دافيد»، وطلب من زوجته أن تتابع دراستها في الجامعة، فمنذ ولادة طفليها لم تفكر بالدراسة مطلقاً، ثم زاد انشغالها بمرض والدها ووفاته.

قال لها «زاك» ذات ليلة: أرى يا «روزان» أنك الآن بإمكانك متابعة دراستك بمعهد الفنون والموسيقى، لتحصلي على شهادة تخصص وتصبحي أعظم عازفة بيانو وكمان.

فأنا أعرف أنك تجيدين العزف عليه منذ صغرك، وقد ورثت تلك الموهبة عن والدك، كم كنت أحبُّ عزفه الجميل. كان رجلاً عظيماً سأفتقده كثيراً.

أجابت «روزان»: يا الله كأنك كنتَ تقرأ أفكارِي، فهذا ما كنتُ أفكرُ به بالفعل، ولكن أريدُ أن أطلب من والدتي أن ترعى إيفا ويعقوب حتى تنتهي من دراستي.

هل تعتقد ستقبل أن تترك بيتها وتأتي لتعيش في شقة صغيرة في إيبورستي؟!

هتف «زاك»: أعتقد ستقبل، فهي متعلقة بحفيديها جداً، وستجد هذه فرصة جيدة للبقاء بجانبهما! أخبريها اليوم لنرى ماذا سيكون رأيها.

ولكن ماذا عن رأيك أنت؟ (أردفت روزان) ألن تنزعج من وجودها ببيتك لمدة طويلة؟

ضحك «زاك» وهو يضع يديه حول محيط خصرها، لا لن أنزعج فأنا ووالدتك أصبحنا صديقين، ولقد فهمتني وعرفت شخصيتي تماماً، وأنا عرفتُ عنها الكثير بأنها جدة رائعة وسيدة جديرة وبارعة بإدارة منزلها ويكفي أنها المرأة التي أنجبت لي حبيبتي «روزان». على فكرة العطر الذي تضعينه يثيرني جداً!

ضحكت «روزان» وقالت: آه كم أحبك أيها الرائع! كم أنا محظوظة لأنني أصبحت زوجتك ولو لم أجذك لبقيت بلا زواج طيلة العمر.



بدأت «روزان» بالذهاب إلى معهد الفنون لتتابع دراستها. كانت سعيدة جداً بهذه الخطوة لأنها كانت تريد أن تحقق هذا الحلم من زمن بعيد ولكن حبها لـ «زاك» ورغبتها بتكوين عائلة معه جعلها تؤجل دراستها لحين يأتي الزمن المناسب، فقد كانت تعشق الأطفال منذ صغرها، وتحلم بأن تكون أمّاً وزوجةً لشخص تحبه، أما «راشيل» فقد وجدت القرب من حفيديها هو من أسعد القرارات التي اتخذتها في حياتها، وقد ساعدها هذا الأمر على التغلب على حزنها وفراق زوجها.

كانت «روزان» تذهب إلى المكتبة للقراءة والتحضير لامتحاناتها لتوفر الهدوء والكتب التي تحتاجها، فقد شعرت بأنها خلقت من جديد لتبدأ مشوار العلم والدراسة، بعد انقطاع دام أكثر من ثلاث سنوات، وقد كانت سعيدة جداً بهذه الخطوة، لأنها كانت وصية والدها لها، فقد كان يقول لها دائماً أنا لا أخشى عليك يا ابنتي

من فقر الجيوب، ولكن من فقر الفكر والثقافه والعلم؛ لأنَّ العلم وحده هو الذي يمكِّنك من فهم كينونة هذا الكون ويفتح لك آفاق المجد والإدراك.

كانت نصيحة والدها نيشاناً تعلقه على صدرها.

التقت «روزان» بـ«مرجانة» في إحدى المكتبات، فبعد وفاة «سام» الذي مضى على رحيله عامان، انشغلت بإكمال دراستها وأصبحت كاتبة وصحافية مرموقة.

رأتها من بعيد، فركضت وحضنتها، وقالت كم أنا سعيدة بأني رأيتك اليوم!

سألتها «روزان»: لماذا لم نعد نراك يا «مرجانة»؟ فبعد أن تركت الحانة انقطعت أخبارك عنا وأنا لا أعرف رقمك الجديد!

هتفت «مرجانة»: انشغلت كثيراً بعد وفاة أخي «سام» ودخول والدي السجن، كان يجب أن أتابع دراستي وأساعد أهلي بمصروف المنزل، فأنا العائل الوحيد لهم الآن، وأنا الآن أعمل، وانتهيت من دراستي ولكن ما زلت أطور نفسي بتعلم أشياء أخرى خارج مهنتي، فأقرأ الكثير وأرسم أحياناً وأتعلم العزف على الجيتار في أوقات فراغي.

رمقتها «روزان» بنظرة إعجاب، وقالت يا لك من فتاة قوية ونشيطة، هكذا كان يحب والدي الأثنى أن تكون جامحة بأحلامها وطموحها إلا أقصى الحدود، كم افتقدته، رحل وترك لنا عطره الذي لا ينسى.

انهمرت دمعة من عين «مرجانة»، وقالت رحمه الله، كم كنت محظوظة يا «روزان» بوالدك، يا إلهي ما أروعه من أب ورجل حكيم، أنا عشت حياة طفولتي مأساة حقيقية، لم أتذكر منها سوى الصراخ والظلم والاستبداد وقد ترك ذلك في قلبي جرحاً لم يندمل. دعينا من الماضي الأليم، كيف هي أخبار الحانة وهل مازال «زاك» يعمل هناك؟ وكيف «كريستين» و«محمود»؟

صمتت «روزان» برهة، ثم طلبت من «مرجانة» أن تقبل دعوتها لكوب من القهوة لتروي لها كل الأحداث التي حصلت طيلة فترة غيابها.

جلست الفتاتان في أحد المقاهي القريبة، وأفرغت كل واحدة ما في جعبتها من قصص وأحداث، ثم قالت «مرجانة»: يا إلهي كل هذا يحدث في غيابي؟! «كريستين» وحيدة الآن هي وابنتها!، و«محمود» بالسجن؟ كم هي قاسية تلك الحياة!

«روزان»: نعم يا صديقتي، للأسف «زاك» أرسل فدية كبيرة من أجل إطلاق سراح «محمود» ولكن بلا فائدة!

ولكن ألم تسمعوا شيئاً من الخاطفين بعد أن دفعتم الفدية لـ «محمود»؟ (سألت مرجانة) .

أطلقت «روزان» تنهيدة طويلة، ثم أردفت: لقد مرَّ ثلاثة أشهر على دفع الفدية ولم نسمع شيئاً لحد الآن والهواتف كلها مغلقة، تخيلي! وأنا بدأت أشكُّ بهؤلاء الأشخاص الذين زعموا أنَّهم سيطلقون سراحه فور استلام النقود، وسيكون بقرب عائلته.

وهل علمت «كريستين» بهذه القصة؟ والمال الذي تمَّ دفعه من أجل إنقاذ «محمود»؟ (أضافت مرجانة).

لا لم يرضَ زوجي أن يخبرها. كان خائفاً عليها أن تعيش على أمل اللقاء ولا يأتي «محمود» وستكون صدمتها كبيرة جداً، (أجابتها روزان). هذه قصة حزينة بالفعل، مسكينة «كريستين» لم تتهنى بزواجها وحببيها، وطفلتها الصغيرة ستكبر وتسأل عن والدها!

سمعت «مرجانة» كل التفاصيل، وقالت ليتني أستطيع أن أساعده بأي شيء، ولكن أرجو أن نبقي على اتصال وبلغني سلامي إلى «زاك»، لقد افتقدت الحانة كثيراً، ولكنني لا أحب أن أدخلها،

فهي تذكرني بأخي «سام» الذي لم يعد موجوداً هناك، وأنا أعمل طيلة الأسبوع وأكتب بعدة صحف الآن، لأستطيع تسديد القرض الجامعي وأعيل أسرتي أيضاً، فالحياة أصبحت صعبة والأسعار غالية جداً هنا.

أجابت «روزان» نعم يا عزيزتي هذا صحيح، ولذا قررت أنا أيضاً أن أتابع دراستي لأساعد زوجي، فعندما يكبر طفلانا ويصبحان في سن الجامعات يجب أن يكون لدينا المال الكافي لتعليمهما والوقت يجري بسرعة، مَنْ يقول إنهما الآن قد تجاوزا الثلاث سنوات؟ وسيدخلان دار الحضانة بعد عدة أشهر! كم أنا متشوّقة لهذا اليوم، وكم تمنيت لو أن والدي بقي على قيد الحياة ليراهما يرتديان ثياب المدرسة ويحملان حقائبهما الصغيرة وهما يتدافعان على باب السيارة ليجلسا فيها، وأنا أصرخ عليهما وأطلب منهما بأن يصمتا.

ضحكت «مرجانة» ملء قلبها: لقد شجعتني بكلامكِ الجميل عن الأسرة والأولاد بأن أفكر بالزواج وأقلع عن محاربة الزواج بعد كل الذي حصل معي ومع والدتي من تجارب أسرية سيئة.

هتفت «روزان»: لا تدعي شبح الماضي وطعمه المرّ يسيطر على قراراتكِ يا «مرجانة»، فكل إنسان لديه ذكرى أليمة في هذه

الحياة، وماضٍ قد يعيقه عن متابعة أحلامه، ولكن يجب أن لا نستسلم لتلك التجارب والمعارك الخاسرة، ويجب أن ندخل غابة الحياة بقوة ونقطع الشوك بأظافرنا لننعم بالورود الجميلة ونستمتع بها، فلو وجدتِ فتى أحلامك سلميه مفاتيح قلبك وعيشي معه لحظات الحب التي لا تقارن بأي سعادة ثانية، ستحلقي فوق السحاب وتشربي من نهر العشق الجميل وتنسي همومك وماضيكَ الأليم.



مرجانة: أحلم برجل شرقي الملامح والرجولة، لا يؤمن بأنّ الأنثى عبءٌ ثقيلٌ أو عالةٌ على أسرتهَا، ولا يجبرها على أن تكون في الصفوف الخلفية للرجال، لا يؤمن بأنّها حرمة مكانها البيت ومهمتها تربية الصغار فقط، فأنا أريد أن أحرّر المرأة من الفقر والجهل والمرض، وهذه المصائب الثلاث التي تحيط بكل النساء العربيات اللواتي يعشن في أغلب البلاد العربية الفقيرة سببها الأول والأخير اضطهاد المرأة واعتبارها سلعة جنس رخيصة يشتريها الرجل عندما تتوفر لديه المادة، لا يؤمن بأنّها عارٌ وعورة، ليسجنها في كهف فلا تخرج إلا بإذنه ولا تعود إلا بإذنه، أريد شابًا محبًا يجعلني وطنه ويجعل حياتي تمتلئ بالفرح،

فلو أخطأت الاختيار هذه المرّة سأكون بمكانٍ لا أحبه وأعيش مع
إنسان غريب علي وعلى مبادئي.

هذا صحيح: أجابتها «روزان»، لديك كل الحق، فأنا أعرفُ ما
تعنيه تلك الكلمات، وأنا أستطيع أن أقول لك لقد اخترتُ أنا
الرجل المناسب وأنا أسعد امرأة في العالم.

كان دائماً يقول لي في بلادنا يا «روزان» نحن لا نتكلم في
المحرمات الثلاثة، فهم تابو كما تقولون بالإنجليزية!

فسألته ما هذه المحرمات؟، وقد خطر لبالي أنها مثلاً الخمر،
المخدرات، الخنزير، ولكن عندما أخبرني بأنهم المرأة والجنس
والسياسة، استغربت وضحكت بنفس الوقت، ولم أستغرب هذه
المحرمات أن تكون موجودة في البلاد العربية لأنّها محكومة
بالدين والعادات والتقاليد.



«مرجانة»: لقد تحملت كثيراً من المشقات يا «روزان»، من أجل
أن أخرج من سجنني، وبالتالي أريد أن أُخرج كل امرأة محاصرة
بقلعتها وأفك قيدها لتمشي حرة كراعي غنم تسير القطيع حيث

تجد المرج الأخضر، فقد كنت أرفض الحياة الراكدة بشيء من عنادي وأعمل على الخروج منها، وكان عليّ أن ابني شارعاً ضيقاً في وسط البحر الهائج، لأمشي عليه واجتاز العاصفة، فأنا لست كالآخرين، أقبل بأي نمط مكرر أراه أمامي، وقد أصبح العالم ورائي مشهداً لا يعنيني، كنتُ أسأل نفسي كثيراً كم من القوة يلزمني لأقلب كل شيء في حياتي رأساً على عقب، ولكن لم أكن أعرف تماماً هل كنت أخشى الفشل أم كنت أخشى الناس؟!

أجابتها «روزان» وهي تنظر إليها بإعجاب: أحياناً نخشى الاثنين عندما نقوم بتغييرات مصيرية في حياتنا، فعندما هربتُ من المنزل لأنزوح «زاك» لا أخفي عليكِ أنه كان لدي شعورٌ ضعيفٌ بالخوف من الفشل، وذات الوقت كنتُ خائفةً من عائلتي ومن المجتمع وكيف ستكون ردة فعلهم لأنني تزوجت مسلماً وأنا يهودية!

«مرجانة»: ولكن أنتِ و«زاك» لا تمارسان أي طقوس دينية كما علمت من «سام»؟ فلماذا كان أهلك يعترضون على زواجك منه؟

ردت «روزان» بشيء من الحزن: لأنه عربي الجنسية أولاً! وثانياً لأنه مسلم! وأنتِ تعرفين الصراع العربي - اليهودي القديم، ونحن الجيل الجديد ندفع ثمنه!

نعم فهمت، أومأت «مرجانة» برأسها، كم كنتُ سعيدةً اليوم لأننا التقينا، أنا وأنتِ.

وأنا أسعد ابتسمت «روزان» وهي تودعها وتقول: «مرجانة» أنت متمردة مثلي! سأهاتفك ولنلتقي بـ «كريستين» قريباً، ستفرح برؤيتك لأن «سام» كان أعز أصدقائها.

«لقد كنت أشعر برضا غامر بأنني خارج القانون»

(سيمون دي بوفوار)



عادت «روزان» إلى بيتها وهي سعيدة بلقاء «مرجانة» وقد أخبرت «زاك» بأنها معجبة كثيراً بشخصيتها القوية وتصميمها، وطلبت منه أن يقرأ مقالاتها التي تنشرها في الجريدة اليومية، فقد أصبحت تدافع عن حقوق المرأة وتساعد المعنفات منهن العربيات والأمريكيات.

كان «زاك» يستمع لـ «روزان» ويحاول أن يقرأ رسالة هاتفية جاءت من رقم غريب.

الفصل الثامن عشر

بهاء الدين يعمل بالحانة

كان «زاك» خائفاً على «كريستين» ليزف إليها خبر قدوم «بهاء الدين» من سوريا، دون أن تكون هناك أي أخبار مفرحة عن «محمود»، كان ضمناً يريد أن يخبرها القصة كاملة التي سمعها من «بهاء الدين» لكي لا تتعلق بأمل كاذب، فقد مضى أكثر من عام ونصف على غيابه، وكان يتمنى لو أن العائد من السفر هو «محمود»، كما نبه زوجته بأن لا تخبر «كريستين» عن قدوم أخيه «محمود»، حتى تكون الظروف مناسبة لذلك، ويكون مرتباً لذلك الأمر.

أل «زاك» «بهاء الدين»: ماذا الذي تريد أن تعمله الآن؟

أجابه «بهاء»: لا تحمل همي يا «زاك»، فأنا سأقبل بأي عمل يصادفني لكي أبدأ حياتي هنا في بلاد العم «سام»، فقد غيّرتني الظروف التي حصلت مؤخراً في البلاد وأنا لا أخفيك القول، كنت أول المعارضين لسفر «محمود» وزواجه من «كريستين»، ولكن الآن وجدت أنه كان على حق بكل ما فعل، وكم تمنيت لو

أنّه لم يأتِ إلى سوريا لرؤية والده ليلقى ذلك المصير المجهول،
ويصبح في عداد الغائبين، وأنت لا تعلم مدى حزني عليه الآن،
كم أتمنى في هذه اللحظة أن أكون بمكانه، ويكون هو هنا بين
عائلته التي تحتاجه ويحتاجها، ولكن ما باليد حيلة، وأنا هنا
الآن لأكحل عيني برؤية ابنته وأقدم لها أي مساعدة تحتاجها،
وأعوّضها عن عطف وحنان والدها. كل الذي أرجوه منك أن
تساعدني لكي أجد عملاً عندك في مطعم الحانة، لكي أستطيع
أن أسكن لوحدي، فأنا لا أريد أن أكون عبئاً على أحد، وأعرف أن
كل إنسان لديه ما يكفيه من عناء ومشقات في هذه الحياة.

ابتسم «زاك» وقد أطلق تنهيدة طويلة، يا لهذا الزمن العجيب، أكاد
لا أصدق الذي يحصل وكأنني أمام فيلم سينمائي طويل لا يريد أن
ينتهي، والزمن يعيد نفسه أمامي، بالأمس وقف أمامي «محمود»
وسألني على عمل في الحانة، والآن أشعر بأنه عاد بوجه جديد!

ماذا تقصد رد «بهاء الدين»؟ هل أنت منزّع من قدومي ولا تريد
أن تبدأ الماضي من جديد؟

أجاب «زاك»: لا، أبداً، الماضي يتكرر أحياناً بصور مختلفة،
وأيامنا كلها تكاد تكون متشابهة، ولكن كنت أفكر بكل الذي
حصل منذ قدوم «محمود» وصراعه في الحياة، مسكين ذلك

الشاب، لا أدري لماذا كُتب عليه كل هذا الشقاء؟! فبعد أن استقرَّ في هذه المدينة، ووجد فتاة أحلامه، خدعه القدر وقلب حياته كلها رأسًا على عقب، ولكن تلك هي الحياة التي لم أعرف أنها ممكن أن تكشف عن أنيابها بهذا الشكل المرعب. أطلق «بهاء الدين» تنهيدة تعتصر بالألم ثم استطرد: نعم للأسف، ليتني استطعت أن أنقذه من السجن، ولكن الظروف كانت أقوى مني ووجدت نفسي مكبلاً بحبال اليأس وأنشد الفرار من السجن الذي لم أر فيه طيلة مكوثي به ورقة شجر خضراء، حيث كان أصدقائي هناك مجموعة من الصراصير وجرذاً كبيراً أراه في الزنانة المقيتة، ومجرد أن أعود بذاكرتي لتلك الأيام البائسة أشعر بحزنٍ شديد لدرجة الغثيان. كل الذي أريده منك الآن كما أسلفت أن تحدّث صاحب الحانة عني، ربما يمنحني أي عمل بأسرع وقت فلم يبق لي أحدٌ في هذه الحياة سوى أنت وابنة أخي «ليلي» أريد أن أؤمن لها كل ما تحتاج إليه وبذلك أكون قد سدّدت جزءاً من المعروف لأخي الذي لا أعرف مصيره.

هتف «ذاك»: لا تقلق سأحدّث «جاني» عنك، فحاليّاً نحتاج موظفين في الحانة بعد أن تم تجديد المطعم فيها، فقد أصبح عدد روادها في زيادة كبيرة منذ افتتحنا الصالة الشرقية فيه وهذا سيديرُ مالاً وفيراً علينا جميعاً، ولكن يا «بهاء» يجب أن تعلم منذ الآن

سيكون العمل شاقاً، تبدأ من السادسة مساءً ولا تنتهي إلى الرابعة صباحاً، تلك هي سوهو وحاناتها التي لا تعرف النوم إلا حين يتسلل الفجر، ويبقى السكارى فيها يتسكعون في الشوارع حتى يجدوا صديقاً لم يلوّث ذاكرته النيذ ليأخذهم إلى منازلهم.



فَكَرَّ «بهاء الدين» قليلاً ثم تابع حديثه: لا مانع لديّ بالقيام بهذا العمل سأكون عند حسن ظنك، دعني أبدأ العمل اعتباراً من يوم الغد، فأنا لا أحب الجلوس بالمنزل.

أخبر «زاك» صاحب العمل «جابي»، بقدوم «بهاء الدين» وعن ظروفه القاسية التي مرّ بها، فلم يمانع بقبوله، ليصبح عاملاً جديداً في الحانة، ولكنه سيقبله بشكل مؤقت ريثما يتأكد من تحمله مشقة العمل وسرعة الحركة وقبوله بتقديم جميع أصناف الكحول، والتمرّس بصنع الكوكتيلات والمقبلات.

كان «بهاء الدين» مستغرباً لكل الأشياء التي تحيط به، فكل شيء مختلفٌ وغريبٌ عليه، ولكنه كان مستعداً أن يقلب صفحة قديمة في كتاب حياته ليبدأ صفحة جديدة بعد كل المعاناة التي واجهها، كان يعتقد للحظة بأنّه بكابوس طويل وحلم لم يستطع الانفلات

منه، ولكنه عاهد نفسه أن يكون قوياً، واستعد لتقليل أظافر الحياة لبدء عمله بارتياح.

كان «زاك» يشعر به وبمعاناته الكبيرة، فطمأنه بأنه سيحب العمل بالحانة وسينسجم مع العاملين فيها، فهم من جنسيات مختلفة مثله ويسعون لجني الرزق ويعملون كفريق رائع يساعد بعضهم بعضاً، وقد جمعتهم ظروف الحياة والأيام ليعملوا تحت سقف واحد، وكان عليه أن يتعلم اللغة الإنجليزية بسرعة

وذلك لأن لغته ضعيفة ولا يستطيع أن يتفاهم مع الزبائن ويلبي طلباتهم، وكان ذلك عائقاً يمنعه من أداء عمله، وبعد عدة أسابيع على قدومه أخذه «زاك» إلى المعهد المجاني المخصص للأجانب لتعليم اللغة، حيث يُوضع الطلاب حسب مستواهم في الصف المناسب، فمنهم المبتدئ ومنهم المتوسط والمتقدم، وتمكن «بهاء الدين» من تعلم الجمل الضرورية التي يحتاجها في حياته اليومية، ثم بدأ يبحث عن غرفة يقيم بها مع أحد الأصدقاء العاملين في الحانة.



استقر وضع «بهاء الدين»، وبدأ يفكر كيف سيحصل على الإقامة ليثبت بعمله في المدينة.

سأل «زاك» في أحد الأيام: هل أستطيع أن أجِد فتاة أمريكية هنا
لأتزوجها؟

ضحك «زاك» وأجابه: هل أنت جادٌ يا صديقي؟ تريد الارتباط
بامرأة أمريكية؟!

رد «بهاء الدين»: نعم ولكن أريدها عذراء، لم يمسسها أحدٌ.

أطلق «زاك» ضحكة ساخرة ثانية ثم استطرد: أكيد أنت تمزح
الآن! هل تريد مني أن أضع لك هذا الطلب في إحدى الجرائد
وعندها نرى مَنْ سيتقدم ويقبل بك زوجاً مثلاً؟!

امتعض «بهاء الدين» من رد «زاك»، ثم أردف: هل أنت تسخر من
طلبي؟ أنت تعرف أنني عربي ومسلم وكل ما تعنيه هذه الكلمات
من الأعراف عندنا والتقاليد؟

اعتدل «زاك» في جلسته ثم قال: معقول يا «بهاء» مازلت تحمل
هذه الأفكار الرجعية بعد كل الذي حصل معك وقدومك إلى هنا
وهو نقلة نوعية بحياتك يا أخي، لا أصدق أنك تبحث عن نقطتي
دماء تسيلان من غشاء البكارة في ليلة العرس والدماء بالوطن
تغسل الشوارع كل يوم.. هل يعقل هذا؟ أن تربط شرف الأنثى
بقطعة غشاء صغير وربما تمزق لأيّ سبب من الأسباب؟!

أطرق «بهاء» برأسه قليلاً، مبرراً موقفه بأنه هكذا نشأ في بلده، وكل الشباب في الوطن العربي يبحثون عن الأنثى العذراء.

نظر «زاك» إليه قليلاً ثم أخبره: سأسأل لك عن فتاة عربية مسلمة تحمل الجنسية الأمريكية! ونرى رأيها بك في البدء وهل ستقبل بك وبأرائك هذه، ولكن أريد أن أخبرك في البدء إياك ثم إياك أن تسأل أنثى في هذه البلد إن كانت عذراء أم لا ربما تصفعك على وجهك، فهذا سؤال لا يسأل لأي فتاة هنا، كما يجب أن تتخلص من المفاهيم القديمة التي نشأت عليها وتواكب هذه الحضارة وثقافتها بكل ما فيها من عيوبه.

هتف «بهاء» بشيء من الغضب: هل أفهم منك أنك تريدني أن أنسى ديني ومعتقداتي التي نشأت عليها وآمنت بها؟!

ابتسم «زاك» ثم أردف: لا ليس بالضرورة، أنا لم أطلب منك أن تخلع عباءة الدين، ولكن يجب أن تصبح أكثر ليونة وتتقبل ما يؤمن به الآخرون أيضاً، لاسيما أنك تعيش تحت سماءهم الآن، ودعني أخبرك سرّاً، أنا أوّمن به كثيراً وقد سهّل عليّ هذه الحياة المعقدة!

نظر «بهاء» إليه بشغف وقال: أخبرني أرجوك ما هو؟

ابتسم «زاك» وقال: من المستحيل أن تحتسي كأس الدين كلها، فقد تصاب بشعور الانعزال عن الواقع الحقيقي، فالذين يحيطون بنا كهنةٌ يلبسون أقنعة الملائكة وهم بالواقع شياطين، ولذا يجب عليك أن لا تأخذ كل هذه الحياة وما فيها على محمل الجد والتصديق الأعمى لكل شيء، اكتف فقط بجزء من الحقيقة لكي لا تصدمك الوقائع.

صمت «بهاء الدين» برهة من الزمن وكأنه عاد للحظة اغتيال عائلته وراها كيف كانت تغرق بالدماء وهو مكبلٌ بأسلاك الخوف ولا يستطيع أن يفعل شيئاً، ثم ردَّ بصوت مبتور.

هل تعرف يا «زاك»؟ أحياناً أرى أن كل الذي تقوله وتؤمن به صحيح، ولكن تلك الأفكار التي أتينا بها هي أشبه بالوشم على الحجر قد تحتاج وقتاً طويلاً لتتحرر منها قليلاً.

أنا الآن حرٌّ!،

ولكن مازال الوطنُ أسيراً، كنت أجوبُ طوال السنوات الماضية في أرض محترقة وأشاهد آلام الضحايا والأيتام والعار يلاحقني وعاهدت الضحايا بالثأر، وعاهدت أخي المسجون بالحرية، ولكنني مررت بلحظة ضعف وهزيمة، فقررت الهرب والانفلات

من قبضة الموت، لتراني اليوم هنا أعيش صراعاً آخر. كتبت رسالة صغيرة وأرسلتها لكل مَنْ كان وراء الأسوار وقلت لهم: اطمئنوا فأنتم لن تُنسوا، وراء هذه الجدران الباردة التي لا ترى الشمس، ولا أي عرقٍ أخضر.



عاد «زاك» أحد الأيام إلى البيت وهو يفكر كيف سيجمع «كريستين» بـ«بهاء الدين».

قال لزوجته: أنا حائرٌ فعلاً الآن ولا أدري ماذا سأفعل، كيف سأخبر «كريستين» بأنَّ «محمود» مازال مفقوداً؟ وبأنَّ أخاه «بهاء الدين» جاء لهذه المدينة ويريد رؤية ابنة أخيه «ليلى»؟ وهل ستقبل أن تراه؟

أجابت «روزان»: أنا لدي فكرة، ما رأيك بأن ندعو الجميع إلى عشاء في منزلنا ونخبرها بالموضوع قبل قدومها بقليل ونرى ما ردة فعلها، وسندعو «مرجانة» أيضاً فقد وعدتها بأن نجتمع عن قريب؟

هتف «زاك»: فكرة رائعة، سأحضر عشاءً معي من مطعم الحانة الجديد وستكون سهرة ممتعة، في يوم الأحد المقبل، لدي شعورٌ

بأنَّ الأمور ستكون على ما يرام وستفرح «كريستين» برؤية «بهاء الدين» لأنَّه من عائلة زوجها وسيكون عوناً لها ولايتها.

اتصلت «روزان» بـ«كريستين» وأخبرتها بقدوم «بهاء الدين» وبأنَّه راغب برؤية ابنة أخيه «ليلى» ورؤيتها أيضاً.

كانت الدعوة مفاجأة كبيرة لها، وفجأة بدأت الدموع تسيل من عينيها وقالت: لقد جاء «بهاء الدين» لوحده؟ هل هذا يعني أن «محمود» مازال مفقوداً؟

لا أدري إذا كنتُ سأتمكن من القدوم لأراه، سيفتح الجرح الذي بقلبي ويذكرني بـ«محمود»! دعي الأمر للظروف.

كانت «روزان» متوقعة أن تسمع منها هذه الكلمات، ولكنها أعدت كل ما يلزم من أجل تلك الدعوة، رحبت بـ«مرجانة» التي جاءت بكامل أناقتها وقد بدت جميلة وملفتة بعطرها الفواح.

جلس الجميع حول المائدة بانتظار «زاك». كان «بهاء الدين» يتحدث مع «مرجانة» وقد بهره جمالها، كما أنَّها أعجبت بشخصيته كثيراً فقد كان يشبه «محمود» كثيراً.

سألت «مرجانة»: كيف وجدت العمل في الحانة يا بهاء؟

أجابها: لم أبدأ بعد، ولكنني الآن أدرس اللغة.

هتفت «مرجانة»: لقد افتقدت عملي هناك وافتقدت أصدقائي أيضاً.

سألها «بهاء»: هل كنتِ تعملين بالمطعم؟



أجابت «مرجانة»: بابتسامة لا تخلو من التحدي والدهاء، نعم عملت في المطعم في النهار وفي صالة الرقص في المساء. احمر وجه «بهاء الدين» وبدا عليه الاستغراب والنفور بأن واحد، ثم أردف: أنتِ كنتِ راقصة؟ لا يبدو هذا عليك؟!

وراح يثبت نظره عليها بحبال غير مرئية! بينما كان يضغط بكفيه على ركبتيه.

قالت ضاحكة: لقد عملتُ بعدة مهن قبل أن أصبح صحافية من أجل كسب العيش. العمل لا يعيب الأنثى ما دامت لا تتبع جسدها لأحد.

صمت بهاء وقد بدا عليه عدم الوفاق على ما تقوله «مرجانة»، وراح ينظر إلى أنحاء الغرفة ويفرك أصابع يديه التي بللها شيء من العرق، وقد توتر قليلاً بسبب الرغبة التي سرت بجسده، فقد

كان تأثير «مرجانة» عليه واضحاً وقد أثارت غرائزه التي تجاهلها منذ زمن طويل، فهو شابٌ لم يشرب من خمر الحب ولا من نبيذ المتعة ولم يلمس أنثى في حياته.

كان يرسم على وجهه ابتسامة باهتة ويحاول أن يبعد نظره عن مفاتن «مرجانة» الظاهرة بوضوح.

أما «مرجانة» فقد أدركت شخصيته بذكائها وراحت تسأله إذا يحب أن يشرب شيئاً، فقد أرادت أن تحضر لنفسها شراباً بعد أن شعرت بالعطش.

كان منظره يوحي بأنه متعطشٌ جداً لمياه الحب والغرام ويبدو على وجهه العطش الشديد ولكنه عطشٌ من نوع آخر.

وبينما كان الجميع مستغرق بالحديث جاء «زاك» يحمل طعام العشاء الشهى الذي انتشرت رائحته بالغرفة، الأمر الذي جعل الجميع يشعر بالجوع، وما هي إلا دقائق وقد سمع الجميع جرس الباب، ركضت «روزان» ووجدت أمامها «كريستين» وابنتها «ليلي»، فتفاجأ الجميع بقدموها.

روزان: كنت أعرفُ أنكِ قادمة لأنكِ اشتقتِ للجلوس معنا على مائدة العشاء ونحن افتقدناكِ جداً جداً، تعالي اجلسي هنا بقربي، أكيد أنتِ جائعة!



وقف «بهاء الدين» أمامها عاجزاً عن الكلام، ووقفت هي مشدوهة وصامتة لبرهة من الزمن، نفرت الدموع من عينيها بغزارة، فقد كان الشبه بينه وبين «محمود» كبيراً. عادت ذاكرتها بلمح البصر إلى ساعة الوداع لتعيش تفاصيلها وهي ترى وجه «محمود» شاحباً أمامها ومهموم التقاسيم وهي الحمامة الوديعة التي كانت ترفرف فوق رأسه للمرة الأخيرة، وهو يضمها ويأخذ شيئاً من عقبها قبل أن يغادر وتأخذ هي حفنةً من الحب لتقتات عليها ريثما يعود.

رأتها «مرجانة» فحضنتها واختلطت دموعها بدموع «كريستين»، فكل منهما شربت من معين الفقد واللوعة، وذاقت مرار الاشتياق وغدر الزمن.

لم يكن يتوقع «بهاء الدين» أنها على هذا القدر من الجمال والحسن، كان ينظر إليها بتمعنٍ ويغمغم لنفسه يا لها من أنثى فاتنة.

اقترب من ابنة أخيه «ليلي» فقبَّلها ووضعها بجانبه، ثم قال: ما أجملها، حفظها الله ورعاها.

كانت الطفلة تبتسم وكأنها رأت وجه أبيها به، مع أنها لا تذكر والدها أبداً، فقد كان عمرها عاماً واحداً عندما سافر، كم صار عمرها الآن؟ سأل «بهاء الدين».

أجابت «كريستين»: أرجوك في البدء أخبرني ماذا حدث لـ«محمود» وهل سيعود أم لا؟

رد «بهاء الدين» وقد شعر كأن سيفاً يجرح حلقة، وعينه امتلأتا بالدموع: صدقيني لا أعرف سوى أنه بالسجن إلى هذه اللحظة، أما أنا فقصة هروبي سيرويها لك «زاك» لأن لغتي مازالت ضعيفة نوعاً ما، وربما لا أتقن سرد كل التفاصيل كما يتقنها «زاك».

ساد سكوتٌ قصيرٌ، ثم صرخ «زاك»: أرجوكم كفوا عن الحديث الآن ودعوا الحزن والذكريات، أنا أتصور من الجوع، اليوم لم يكن لدي وقت في الحانة لأكل لقمة واحدة. احتسيت فقط كأساً من النبيذ، الأمر الذي زوّد شعوري بالجوع، فقد كنت متعباً طوال اليوم وأنتظر لحظة قدومي إلى هنا بفارغ الصبر.

يا إلهي كم كان المطعم مزدحماً بالرواد وأكثر الناس جاؤوا من أجل الشاورما، وقد أضاف الشيف اليوم طبق المنسف الذي نال إعجاب العرب والأجانب أيضاً، الأمر الذي جعل الناس تقبل على شراء كميات كبيرة لأنهم يفتقدون هذه الأطباق هنا.

وضع «زاك» الطعام على المائدة وبدأ الجميع بتناول طعام العشاء، كانت الأطباق لذيذة ومتنوعة والكل مستمتع بطعمها الرائع.



روزان: وهي تلتهم شطيرة اللحم: أفضل شيء حصل لي في حياتي كلها هو زواجي من «زاك»، فلو لم التقِ به، لما فكرت بالزواج أصلاً!

ضحك «زاك» بصوت عالٍ، ثم أردف قائلاً: أعتقد شطائر الشاورما التي كنتُ أصنعها كان لها الأثر السريع بإتمام الزواج.

أجابته «مرجانة»: وكيف تريدها أن لا تتعلق بشاب وسيم وطاهر محترفٍ مثلك، دلني على شخص بهذه الصفات وأنا سأتزوجه فوراً وبلا شروط.

نظر إليها «بهاء الدين»، ثم هتف أنا أتقن طهي كثير من الأطباق العربية، ثم ابتسم وضحك الجميع وهم يطيلون النظر بـ«مرجانة» و«بهاء الدين» ويتمتمون بعبارات غير مفهومة، ثم التفت «زاك» إلى «مرجانة» قائلاً: فكري جيداً لقد قال لك إنه يجيد فن الطهي وهذه فرصتك، ربما لا تتكرر!

سألها «بهاء» بصوت خفيض عن رقم هاتفها، فتجاهلت طلبه.
ضحكت «مرجانة» بصوت عالٍ، ثم استأذنت للمغادرة لأنَّ لديها
عملاً في الصباح.

و«ليلي» الصغيرة كانت تأكل بفرح مع عمها «بهاء»، فقد قام
بمهمة إطعامها وتنظيف يديها، ثم أخبرهم «زاك» بأنَّه سيحضّر
البقلاوة والشاي، لكي يبقوا حول المائدة.

كانت سهرة جميلة، قضى فيها الأصدقاء وقتاً رائعاً بالرغم من
الحزن الذي خيمَّ بالبدء بسبب غياب «محمود».

حاول «زاك» أن يخلق جوّاً مرحاً ليسعد ضيوفه ويدخل الفرح
إلى قلوبهم.

سأل «بهاء الدين» «كريستين» لو أنَّها بحاجة إلى أي مساعدة ليقوم
بها، وطلب منها أن تتصل به كلما سنحت الظروف ليطمئن عليها
وعلى «ليلي».

غادرت «كريستين» وهي سعيدة بلقاء الجميع، وهي مازالت
تحلم بلقاء «محمود» حتى ولو طال الانتظار.



عادت «كريستين» إلى منزلها وحيدة، وقد لَقَّنها القدر درسًا في الحب بعد أن مسح من رأسها كل الدروس. العشق لا يمكن أن تخبو جذوة ناره مهما مرَّ الزمن، فهو كالبركان لا يزال مشتعلًا تحت فوهة القلب، الذي أتعبه البعد والفراق، وهي لن تستسلم، ففوة الحب تسري في دمائها تمنحها كل الطاقة اللازمة لمواجهة مصائب الزمن ومفاجآته. سوف تنتظر حبيبها الذي ودعته على جسر الفراق متيقنة تمامًا بأنه سيعود بشكلٍ أو بآخر، سيعود ليحضنها ويشم رائحتها فينسى كل الذي مرَّ به من آلام، مزدحمة هي بالانتظار، ترافق ظله وتبحث عن الزمن الذي يعيش فيه ولو كان خارج الوقت، فالأرض هنا ما عادت جذورها تحمل أي حياة، وكل مساءاتها مهملة لا يظهر فيها القمر، وما زالت هي تتذكر لون الوداع الأخير، فقد عاهدت نفسها بأن تزيع ستائر الليل لتدخل شمس الفجر وأن تظل بانتظاره، وما زالت في ذاكرتها تلك التواريخ والأرقام التي أصبحت جزءًا منها، تاريخ أول لقاء بينها وبينه، وتاريخ زواجها منه، وميلاد ابنتها «ليلي»، ويوم رحيله.. تلك التواريخ لها ذكرى جميلة وأليمة بنفس الوقت، ولكنها ستبقى كالوشم في مخيلتها، تعيش على ذكرها حتى يعود من جديد، أما ابنتها «ليلي» فبقيت بمنزل «زاك» و«روزان»،

لأنّها متعلّقة جدّاً بإيفا ويعقوب، فهي تقضي معظم الوقت تلعب معهما، وتستمتع للقصص التي كانت «راشيل» تقصّها عليهم قبل النوم، فهي الجدة التي منحتها الحب وعوّضتها عن فقد والدها وجدتها، ولذا كانت تتبعها في المنزل مثل القطة الصغيرة التي تتبع أمها، حيث تقوم بإطعامها وتنظيف ملابسها وأخذها إلى مدرسة الحضّانة.

قالت «راشيل» ذات صباح لابنتها «روزان» كم أصبحت متعلّقة بهذه الطفلة الودّعة، وأشعر بأنّها حفيدتي بالضبط مثل إيفا ويعقوب، وأشعر بالحزن عليها لأنّ والدها لم يعد ليعطيها الحنان والعطف، لأنّ حب الوالد وعطفه لا يعوّضه أحدٌ يا ابنتي!

أجابتها «روزان»: صحيح يا أمي، فأنا مازلت أفقد والدي جدّاً، ولقد ترك أثره وحكمته في قلبي، أتذكره كلما أسقي الشجيرات التي زرعها قبل رحيله، وأدعو الله أن يجعله يزورني بالحلم، كلما اشتقت له وكلما أقرأ مذكراته التي تركها لي، وأشعر بالفرح عندما أعزف الألحان التي علمني إياها وكأنني أحلق في السماء. كان والدي بارعاً في كل شيء، علمني أن الحب هو القوة الوحيدة التي تغيّر هذا الكون، بما فيه من حزن وشقاء بسبب الحروب المستمرة، وهذه القوة قادرة على أن تحول الصحراء القاحلة

إلى حدائق غناء، وأنَّ أعظم فرح ممكن أن نشعر به هو عندما نمنح الآخرين شيئاً من الحب، العطف، العرفان، أو حتى ابتسامة بسيطة.. فتلك العطايا تساوي ثراء العالم كله، وكما أتمنى أن يمتلئ هذا العالم بقوة الحب الذي سيعيد بناء كل شيء ويعيد السعادة للعالم.



انتهى «بهاء الدين» من دورة اللغة الإنجليزية، واستعد لدخول الحانة.

سأل «زاك»: هل تعتقد بأن لغتي أصبحت جيدة يا «زاك»؟ قال «زاك»: هي ليست ممتازة ولكن مقبولة إجمالاً، وكما تعلم إتقان اللغة يحتاج الوقت الطويل والكافي والمحادثة مع الناطقين باللغة الإنجليزية. أنت الآن لن تحتك بالزبائن كثيراً وكل المطلوب منك تحضير المشروبات والمقبلات فقط، وعليك أن تستمع للمحادثة بين الأشخاص فسوف تتعلم الكثير منهم.

في اليوم الأول شعر «بهاء الدين» بشعور غريب لم يشعره من قبل، فقد رأى الفتيات اللواتي كن يشربن الكحول ويضحكن بأصوات عالية، ورأى شباباً من جميع الجنسيات محاطين بإناث يرتدين

ثياباً قصيرة ورقيقة، كانت يدها ترتجفان وراء البار وهو يحضر المشروبات وبعض كؤوس الكوكتيل كما طلب منه «زاك».

استغفر ربه بضع مرات، استعاذ من الشيطان، ثم قال لنفسه: (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً).. ثم نسي بقية الآية. جلس أحد العنصرين وراء البار ليطلب كأساً من النبيذ، رأى «بهاء الدين» وتبين له من ملامحه أنه عربي، فتمتم بصوت مسموع: «Another camel jockey in town»، (راكب جمل آخر في المدينة؟) ساد صمتٌ قصيرٌ، ثم جاء صديقه النادل وأخذ الكؤوس ليوزعها على الزبائن، ثم طلب منه صنع كأس من المارتيني لإحدى الفتيات في الحانة مع وضع كثير من الثلج فيها، ثم قال له: الفتاة التي تجلس على الكرسي بمفردها طلبت رقم هاتفك، وكأساً من النبيذ.. ماذا أقول لها؟

قال «بهاء الدين»: أعطني لحظات لأسجل لك الرقم.

أخذت الفتاة الرقم وابتسمت، أما هو فكان ينظر إليها من بعيد، يتتسم، ويشير إليها أن تتصل ليحفظ رقمها في جواله.